الجمهوريـــة الجزائريـــة الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعـــــة الأمير عبد القادر للعلـــوم الإسلامية
كلية أصول الدين والحضارة والشريعة الإسلامية
قسم: الكتـــاب والســـنة
شعبة: التفسير وعلوم القرآن

الرقم التسلسلي:.....

رقم التسجيل:.....

الوحدة الموضوعية في سورة الحج

– مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن –

من إعداد الطالب: رياض عميراوي
تحت إشراف الدكتور: هلال خزازي

السادة أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	أمام اللجنة
يخلف رمضان	دكتورا محاضرا	جامعة الأمير عبد القادر	رئيسا
هلال خزاري	دكتورا محاضرا	جامعة الأمير عبد القادر	مقررا
أحمد رحماني	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	عضوا
صونية وافق	دكتورا محاضرا	جامعة الأمير عبد القادر	عضوا
مصطفى ربتن	دكتورا محاضرا	جامعة الأمير عبد القادر	عضوا

نوقشت يوم: 11 جويلية 2009م

السنة الجامعية: 1430هـ/ 2008م – 2009م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهداء

أُهدي هذا العمل إلى الوالدين الكريمين؛ الذين أنارا لي الدرب، لأصل إلى ما كنت أتمنّاه وأصبو إليه، إلى من سهرا الليالي من أجل تربيتي وتعليمي، إلى من حرما نفسيهما من أجلي، أقدم هذا العمل المتواضع.

كما أُهدي هذا البحث إلى رفيقة الدرب والحياة، إلى الزوجة الصالحة، والمرأة التي شاركتني مسيرة طلب العلم، وصبرت معي كل هذه السنوات.

إلى أبنائي وبناتي: جهاد، سارة، نور، همّام، مرية وملاك، وحارث...الخ

إلى إخوتي: نبيل، خالد، وفريد، إلى جدتي وجدي رحمه الله تعالى، وإلى أصدقائي جميعا؛ طارق وعائلته، محي الدين، ومحمد وحسن، ومراد، وعمي السعيد....إلى كل هؤلاء أُهدي هذا العمل؛ المشبع بالأمل.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وتقدير

أتقدم إلى أساتذتي الأفاضل وفي مقدمتهم مشرفي المحترم الدكتور هلال خزاري، بجزيل الشكر وإلى أستاذنا الفاضل الدكتور أحميده عميراوي نائب رئيس الجامعة، وجميع الأساتذة الذين نهلت من معينهم الذي لا ينضب، أخذت منهم مفاتيح العلوم ومصادرها.

كما أتقدم إلى جميع عمال المكتبة بأحر التقدير والامتنان لتقديمهم يد المساعدة لي، ولا أنسى كل القائمين على هذا الصرح العلمي: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ورئيسها الدكتور عبد الله بوخلخال، وإلى كل من ساعدني من قريب أو بعيد.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب و لم يجعل له عوجا، قيمًا لينذر بأسا شديدا من لدنه، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا، ماكثين فيه أبدا، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله وأطيبهم، سيدنا محمدﷺ، وعلى آله وصحبه وأهل بيته الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان، واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

ثم أما بعد:

مما لا شك فيه أن القرآن العظيم كلام الله المنزل على سيدنا رسول الله محمدﷺ، بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، حيث فصل سبيكة واحدة من اللوح المحفوظ، وأُنزل دفعة واحدة إلى السماء الدنيا، ثم ترادف نزوله بعد ذلك إلى الأرض منجّمًا مفرّقًا، في قرابة ثلاث وعشرين سنة؛ بحسب الحوادث والأسباب، وبحسب ما تقتضيه الحاجة والضرورة، ثم جُمع وأُعيد ترتيبه في عصر الخلفاء كما كان أول مرة، فاجتمعت أجزاؤه، وآياته من جديد، حتى كأنه لم يتفرق عن بعضه يوما.

ودون الخوض في تفاصيل إحكام هذا الترتيب، وتناسق آياته وسوره، فإن العرب قد أفصحت عن رأيها فيه، وأجمعت على إعجازه، واعترفوا بقصورهم عن تحديه، وما قدر أساطين اللغة، والفصحاء منهم والخطباء، أن يأتوا بمثله أبدا، وهم بهذا حجة على غيرهم من العرب فضلا عن غيرهم.

وقد تناول القرآن الكريم مواضيع متنوعة، شاملة لجميع مناحي الحياة الإنسانية، آخذا بعين الاعتبار كل الاختلافات الموجودة بين البشر على تنوع مشاربهم، واختلاف ألوانهم وصفاتهم، وبيئاتهم، فخاطبهم بما يعقلون عبر الزمان والمكان، فتحدث عن العقيدة والأخلاق، وعن الحدود والسياسة والاقتصاد....الخ، قال تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾.

وقد توزعت مواضيعه في آياته وسوره، فمن مواضيع جاءت مبثوثة في سور القرآن هنا وهناك، إلى مواضيع مركزة في سورة واحدة، أو مقاطعَ محدودةٍ عبَّر عنها بمجموع من الآيات، إلى مواضيع أخرى قد عالجها القرآن الكريم في طيّات صفحاته، وقد اهتم العلماء والمفسرون بتفسير القرآن، وفهم مواضيعه ومعانيه ولغته؛ اهتمامهم بالقرآن نفسه، سواء من ناحية الجمع والتدوين، أو من ناحية الشكل والحفظ، فشرحوه وبسَّطوه للناس، وفسروه على ضوء ما وصل إليه علمهم وعقولهم من اجتهاد وفهم، وحاولوا استنباط علومه وأحكامه وحكمه وشرائعه وأوامره ونواهيه، وذلك اعتمادا على أسس وقواعد قد حددوها لتعصمهم من الوقوع في الزلل والخطأ، واشترطوا لذلك جملة من العلوم؛ على المفسر الأخذ بها، لهذا ظهرت مناهج واتجاهات مختلفة، وطرق ووسائل متنوعة، وتباينت استنباطاتهم، واختلفت مفاهيمهم، فاهتموا في بداية الأمر بالتفسير بالمأثور، ثم توسعت آفاقهم، وتنوعت مدارسهم، وأطلقوا

العنان لعقولهم، فاهتموا بالتفسير بالرأي، ثم توسعوا إلى اتجاهات أخرى متعددة موجودة في التفاسير القديمة، وبعض التفاسير الحديثة، ومنهم من اهتمّ بالتفسير اللغوي، وآخرون بالتفسير العلمي، ومنهم من اعتمد في تفسيره على الإشارة، وبعضهم يركّز على استنباط الأحكام الفقهية، وغيرهم من فسّره حسب ما تقتضيه طرقهم الصوفية والكلامية...وهكذا، فكان هذا التباين سببا في اختلاف مناهجهم في الأخذ به، فكان التفسير التحليلي، والتفسير الموضوعي الذي يعتبر قفزة نوعية في تاريخ التفسير؛ إذ لما استشكلت بعض الأمور على الناس، واحتاجوا لها في حياتهم، لجأ العلماء للبحث عن طرق أخرى وسبل ووسائل توصلهم إلى فهم واستنباط أحكام القرآن وحكمه، وهداياته، فحاولوا أن ينظّروا لهذه الطرق والمناهج، بل وحاول البعض تطبيقها على بعض السور والآيات، فأمكنهم من فهم وشرح بعض الأمور التي لم يُشْبعُوا البحث فيها مما يتعلق بمستجدات العصر.

ولذلك اهتموا بالتفسير الموضوعي كبديل عن المناهج التقليدية، طبعا دون إهمالها رأسا، والذي يعتبر منهجا جديدا وطريقا فريدا في فهم القرآن الكريم، خاصة في هذا العصر، ليفرز لنا بعد ذلك ألوانا معينة، فجعلوا منه التفسير الموضوعي التجميعي، وما يعرف بالمصطلح القرآني، والتفسير الموضوعي الكشفي و كذا – الوحدة الموضوعية – التي تعتبر طريقا من طرق هذا الأخير، والتي نحن بصدد الحديث عنها في هذا البحث، لعل الكلام عن الوحدة الموضوعية، والكشف عنها، يحتاج منّا الكشف عن ذلك الرابط الخفي، الذي يربط بين أجزاء السورة وآياتها، سواء كانت مدنية أو مكية، أو كانت خليطا بينهما، وسواء كانت متحدة الموضوع أو مختلفة.

إنّ كل سورة من القرآن الكريم قد احتوت على موضوع ما، أو عدة مواضيع، ولهذا أردنا أن نبحث في إحدى سوره عن هذه السمة، مطبقين في ذلك منهج التفسير الموضوعي الكشفي، مبرزين تلك الوحدة الموضوعية للسورة، فاخترنا لذلك سورة الحج.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

إنّ للبحث العلمي أهمية كبرى في الكشف عن الحقائق والمعارف، وفي البناء العلمي؛ (إذ يؤسس السابق لما يأتي بعده، ويبني على نتائجه السابقة)، والتراكم المعرفي واستمراره، واختيارنا لهذا المنهج ولهذه السورة تحديدا هو:

1 - تطبيق منهج التفسير الموضوعي في الميدان، لتوضيح معالمه، وإبراز سماته، ومعرفة مدى تحقيقه نتائج في فهم القرآن وتفسيره.

2 - للإطلاع على دقة نتائجه واستيعابه لمواضيع القرآن كله، وإعطائه النظرة الشاملة لمواضيع القرآن.

3 - تغطية جانب من جوانب الإعجاز القرآني، من خلال إبراز تلك اللحمة الموضوعية، وذلك الترابط المتين، وذلك الانسجام الرصين بين آياته وسوره، وذلك الإحكام الذي ينبئ على أنه من عند عليم حكيم.

4 - الإسهام في الكشف عن هذا المنهج في التفسير إذ أغفله كثير من المفسرين، باعتباره منهجا جديدا في خدمة كتاب الله، كما سنرى بإذن الله في مطلب نشأة الوحدة الموضوعية.

5 - الكشف عن الوحدة الموضوعية لسورة الحج، والتي تبدو من خلال القراءة الأولى لها أن مواضيعها مختلفة والحقيقة خلاف ذلك.

6 - أحسب أن سورة الحج كافية لتطبيق هذا المنهج، ذلك أنها تمثل حزبا كاملا من القرآن الكريم، تصلح أن تكون أنموذجا مصغرا لهذا النوع من التفسير.

7 - أضف إلى ذلك أن سورة الحج من تلادي (من العتاق الأوائل التي حفظتها)؛ إذ حفظتها في مناسبة علمية عندما كنت في مرحلة الصبا.

8 - وقد وقع اختياري عليها لتنوع مواضيعها، واختلاف آياتها بين مدني ومكي، حيث تحدثت عن العقيدة من خلال حديثها عن القيامة وأهوالها والزلزلة وصفاتها..كما حدثتنا عن أحكام الحج والجهاد، وعن النبوات واتّباع الرسل ومصير المكذبين..فأردت أن أجد علاقة بين هذه المواضيع، وأن أربط بين هذه المواضيع المختلفة المتنوعة، لأخلص إلى وحدة موضوعية واحدة، وأخْذِ نظرةٍ كلية شاملة لسورة الحج، لكي تُفهم فهما دقيقا علميا عمليا.

9 - كما أن لي رغبة ملحة في الذهاب بعيدا في هذا الاتجاه وفي هذا الطرق لتفسير كتاب الله تعالى مستقبلا إن شاء الله.

إشكالية البحث:

عندما نسمع من يقول أن القرآن هو مأدبة المؤمنين في الأرض، وهو صالح لكل زمان ومكان، وأن ما من موضوع له علاقة بحياة الناس إلا في القرآن نصيب منه، وأن كل سورة لها وحدة موضوعية واحدة تعالج قضية من قضايا الناس، فإننا نتساءل عن مدى صحة هذا الكلام، وعن واقعيته، وما تم تحقيقه لحد الآن من خلال تطبيق المناهج الجديدة لا سيما منهج التفسير الموضوعي، على سور القرآن وآياته، ويأخذنا الشوق لفهم هذا المعنى، خاصة عندما نقرأ قول الله تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾.

من خلال هذه المقدمة تتضح لنا إشكالية البحث، وتتمثل في طرح بعض الأسئلة هنا للإجابة عنها من خلال هذا البحث.

- هل يستوعب القرآن الكريم كل مشكلات الإنسان في هذه الأزمنة، ويجد لها حلولا في ظل سوره وآياته؟ وهل من فائدة ترتجى من كشفنا لتلك المعاني الشاملة العامة لجميع التساؤلات المطروحة؟

وهل يمكن أن نستخرج من سورة الحج تحديدا هذا المفهوم، ونحدد لها موضوعا واحدا مستقلا شاملا نتوصل فيه للربط بين مواضيعه الجزئية، مثل العقيدة والعبادة، أو الحج والجهاد مثلا؟ وإذ يظهر ذلك التباين بين آيات سورة الحج في كونها مدنية ومكية، كأنها ذات مواضيع متشعبة مختلفة، والحقيقة أنها متنوعة متسقة منسجمة، فأردنا أن نكشف عن ذلك التناسب والتناسق، وعن تلك الوحدة الموضوعية، وذلك الانسجام بين أجزائها، وهل هي كذلك؟ وهل يُجدي هذا الكشف عن ذلك التناسب نفعا، وتتوخى منه فائدة عملية للمسلمين؟ وما هي يا تُرى مقاصد سورة الحج العامة؟ وكيف تتحد هذه المقاصد بعضها ببعض؟ وكيف يمكن أن نستخلص منها نظرية على حد تعبير السيد "باقر الصدر" تخدم المسلمين عند أدائهم الوظيفة الدينية؟ وكيف يفهمون مواضيع سورة الحج في سياق واحد ومقصد عام وحيد، يربطون فيه بين مسائل تخص حياتهم اليومية.

وأردنا من دراستنا أيضا إسقاط هذه المقاصد العامة للسورة على واقع الناس، حتى لا تكون عبادتهم وجهادهم ضد الأعداء مجرد طقوسٍ تُؤدى عارية عن الحركية والديمومة، كما عبَّر عنها "سيد قطب" وما دور هذه المقاصد في حياة الناس؟ وكيف ينبغي أن ينظروا إليها، ويستحضروها في أذهانهم وفي حياتهم، وما هي معالمها الحقيقية وموقعها من الحياة؟

ثم ما مدى نجاعة منهج التفسير الموضوعي في الوصول إلى تلك الحلول التي تعالج مشكلات الناس في ظل تعقيدات الحياة المعاصرة، وفي خضم هذه المتغيرات المتسارعة؟ وهل ستثبت هذه المناهج الجديدة جدواها، وتحقق نتائج في مجال التفسير الحديث للقرآن الكريم إلى جانب المناهج الأخرى؟

أهداف البحث وأغراضه:

للبحث أهداف وأغراض منها:

1 - تطبيق منهج التفسير الموضوعي على سورة من سور القرآن الكريم، حتى يتسنى لنا الاستدلال عمَّا كنّا قد طرحناه من قبل عن فحوى تطبيق هذا المنهج، وكيف أنه ذو ثمار طيبة، ونتائج محققة، تعين على فهم القرآن فهما معاصرا، وتبرهن على صحة هذا المنهج في التفسير.

2 - الرد على شبهات المستشرقين الذين أنكروا الوحدة الموضوعية، وطعنوا في ترتيب هذا الكتاب، ودعوا لإعادة ترتيبه، لأنه بترتيبه هذا لا يخدم التدرج التشريعي، ويلبل الأفكار كما يزعمون[1].

3 - البرهان على إعجاز القرآن الكريم من حيث ترابطه ودقة انسجامه، وتشابكه، سواء في شكله وترتيبه، أو معانيه ومضامينه.

4 - إرساء قواعد هذا المنهج الجديد في التفسير، والإشارة إلى بيان أهميته، وتأييد الآراء التي تقول به، لكي يكون طريقا جديدا لمعرفة وفهم موضوعات القرآن الكريم في ظل ما تفرضه المستجدات والمتغيرات، وفي ضوء ما يلوح في الآفاق من تطورات في جميع المستويات.

5 - الاستعانة على فهم القرآن بتلك النظرة الكلية الشاملة والتي تعين على فهم المعنى الحقيقي من خلال معرفة السياق، ومقاصد السورة وأهدافها، وصلتها بالسياق القرآني.

6 - إضافة شيء جديد من هذه المباحث للمكتبة الإسلامية خاصة أنّ هذه المباحث سهلة التناول، ودقيقة النتائج.

7 - إعطاء صورة واضحة لسورة الحج ومقاصدها، والتعبير الدقيق عن أهدافها في تحديد العبادات، وترشيد الضمائر، وتقويم السلوك، وضبط الأخلاق، وتوجيه الناس، ووضع علاقات وحدود، وربط كل هذا بالعقيدة لتوضيح المنهج السليم.

منهجية البحث:

لا بد لدراسة موضوع ما من منهجية يتبعها الباحث ليعطي الموضوع حقه من ناحية الشكل، ومن ناحية المضمون، ليُحقق بذلك نتائج علمية مرضية.

وعليه فإنني اخترت لهذا البحث منهج التفسير الموضوعي، مطبقا في ذلك خطوات الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية، حيث بدأت بالتعريف بهذا المنهج في التفسير، وبالوحدة الموضوعية كلون من

---

[1] - مجلة الأزهر، عبد الله درّاز، مقال: النقد الفني لمشروع ترتيب القرآن الكريم حسب نزوله، مطبعة الأزهر، 1950م، المجلد: 22، ص: 784.

ألوانه، ثم أنتقل بعد ذلك إلى سورة الحج لاستقراء ما فيها من مواضيع تشكلها آياتها وأجزاؤها، آخذا بخطوات التفسير الموضوعي.

ثم عرَّفت بسورة الحج تعريفا تفصيليا، ما تركت شاردة ولا واردة تخص هذه السورة إلا جئت بها، ووضعتها في نصابها، مع الإشارة إلى بعض التعريفات والمفاهيم التي رأيتها مهمة، وأدرجت هذا الفصل تحت عنوان: الدراسة الخارجية للسورة.

ثم عقدت فصلا آخر عنونته بالدراسة الداخلية للسورة، وأعني بها الدراسة الموضوعية، حيث أبرزت فيه الموضوع الرئيس للسورة، ومواضيعها الرئيسية، مع الكشف عن الروابط والمناسبات التي تجمعها من جهة، وبالموضوع الرئيس للسورة من جهة أخرى، وأحيانا أربطها بالموضوع العام للقرآن الكريم إن أمكن ذلك، وفسرت كل مجموعة من الآيات تفسيرا مختصرا مرجحًا للمعنى الذي يخدم الموضوع ويصب فيه، مبرزاً جوانب ذلك الموضوع في تلك اللحمة من الآيات مستشهدا بما قاله المفسرون فيه، لأخلص في الأخير إلى شبه نتائج أربط بها بين العناصر التي تشكل الموضوع الرئيس للسورة، أو بما يسمى بالوحدة الموضوعية للسورة.

ومع كون هذه السورة مدنية ومكية مختلطة، إلاّ أن الجو العام تغلب عليه موضوعات السور المكية، خاصة عند الحديث عن الساعة والبعث ومشاهد يوم القيامة، فقد ساعدني هذا الجو على تقسيم السورة إلى تلك المقاصد، و إلى تلك المحاور.

أضف إلى ذلك أن بعض الألفاظ المزلزلة والشديدة التي تبين عنف تلك المواقف، الممزوجة بنوع من الرهبة، سمحت بتسجيل مشاهد رائعة قد صورتها الآيات رسماً أقربَ ما يكون للعقل.

وقد استعملت أسلوبي الخاص في البحث، إلا ما كان من قبل المفسرين فإن الأمانة العلمية تقتضي نقل النص دون تغيير، إلا ما أنص عليه في الهامش، وقد أعلق أحيانا على بعض الآراء، أو أردف شرحا لبعض النصوص الغامضة المنقولة من كتب التفسير، وقد اتبعت طريقا موحدا في الترقيم والتهميش، وفي كتابة الآيات ...كما أنني قمت بالترجمة للأعلام خاصة المجهولين والأقل شهرة، كما خرَّجتُ كلَّ الأحاديث، واكتفيت بالتخريج الفني لها، دون التخريج العلمي، فأحلت إلى مصادرها دون الخوض في صحتها وضعفها، إلا ما أشرت إليه.

وقسمت البحث إلى ثلاثة فصول، ذكرت في الفصل الأول مقدمات حول هذا المنهج من التفسير، وعرَّفتُ بالوحدة الموضوعية، والفصل الثاني تحدثت فيه عن الدراسة الخارجية للسورة فعرفت بسورة الحج وكل ما يتعلق بها، ثم انتقلت إلى الفصل الثالث فتحدثت عن موضوع السورة ومواضيعا الرئيسية وربطت بينها وبين موضوع السورة من جهة وبينها وبين القرآن الكريم كله، كما تحدثت عن أسلوب

السورة، وعن فواصل السورة وذيول الآيات، وآيات الإعجاز العلمي، ومناسبة السورة مع سابقتها ولاحقتها، لأصل بعد ذلك إلى نتائج هذا البحث متمثلة في خاتمة البحث.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والتقصي عبر المكتبات والدوريات، ومن خلال الشبكة العالمية للمعلومات توصلت إلى بعض الدراسات تخص منهج التفسير الموضوعي في تناول سور القرآن الكريم، وفي الوحدة الموضوعية تحديدا، فمنها التفاسير القديمة، والحديثة، وبعض الكتب والرسائل الجامعية، ومجموع مقالات ومحاضرات.

فأما كتب التفسير القديمة فتحتوي على إرهاصات لهذا المنهج في الدراسة، لا تربو على أن تكون اجتهادات في إبراز بعض مواضيع السور أو الحديث عن بعض مقاصد السور والمقاطع، وهي إشارات خفيفة في بعض المواضع من القرآن الكريم، مثل التفسير الكبير للرازي، حيث حاول إعطاء نماذج من وحدة الموضوع في بعض السور، ومثل الإمام الشاطبي في الموافقات، وابن الزبير الغرناطي في كتابه البرهان في تناسب سور القرآن، حيث يبرز الروابط بين السور ومقاطعها، دون إعطاء الوحدة الموضوعية الشيء الكثير، وقد تكلم برهان الدين البقاعي في نظم الدرر عن تناسب السور، وأشار إلى مواضيعها، معتمدا في ذلك على كتاب البرهان لابن الزبير.

هذا ومن المفسرين المعاصرين سيّد قطب في كتابه: "في ظلال القرآن"، حيث تحدث عن الوحدة الموضوعية، وحاول مجتهدا إظهار مقاصد السور ببعض التفصيل، حيث يقسم السورة إلى مقاطع وأشواط، يقوم بتفسيرها ويستخلص موضوعها حسب ما يراه.

وأشار الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في كتابه: "التحرير والتنوير" إلى بعض مقاصد السور، خاصة فيما يُعرف عنده بالتفسير المقاصدي لسور القرآن، كما كتب في هذا المعنى الشيخ سعيد حوّى في تفسيره: "الأساس في التفسير"، مبرزا في ذلك مواضيع السورة، وذلك بتقطيعه للسورة إلى مقاطع، وشرح وتفسير كل مقطع، وربط مقاصد السورة ومحاورها بعضها ببعض، وهو العمدة في هذا الفن، وكتب محمد البهي أيضا كتابا سماه: "الوحدة الموضوعية في سور القرآن" تحدث خلاله عن هذا المنهج وعن ثماره.

كما وجدت بعض الدراسات والرسائل الجامعية في الوحدة الموضوعية في سورة معينة:

- **أولا**: رسالة ليسانس بعنوان "**الوحدة الموضوعية في سورة النور**" للطالبة منيرة بوريدان قسم الكتاب والسنة لعام 2000-1999م /تحت رقم 212/14 جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية/ قسنطينة/ الجزائر.

ثانيا: رسالة ماجستير بعنوان "**الوحدة الموضوعية في سورة مريم**" من تقديم الطالبة حدة سابق، قسم الكتاب والسنة 2003م جامعة الأمير عبد القادر/قسنطينة.

ثالثا: رسالة ماجستير بعنوان "**التفسير الموضوعي لسورة البقرة**" للطالبة نورة بن أحسن/ جامعة باتنة/2000/2001م .

- كما حصلت على بعض الدراسات القرآنية في هذا الموضوع متمثلة في بعض الكتب والمقالات أهمها:

1 - الوحدة الموضوعية في سورة يوسف لحسن محمد باجودة.

2 - الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية لـــرفعت فوزي عبد المطلب، دار السلام للنشر والطباعة والنشر.

3 - الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم محمد محمود حجازي مطبعة القاهرة 1970م.

4 - الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية عبد الرحمن عبد الخالق، وهي سلسلة دروس ومحاضرات.

5 - تدبر سورة الفرقان في وحدة الموضوع حبنكة الميداني.

6 - الوحدة الموضوعية ومنهج التفسير لـــلدكتور عبد الحميد غانم في مجموع محاضرات عند حديثه عن طرق تناول التفسير الموضوعي.

7 - نظرية الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم من خلال كتاب الأساس في التفسير، لأحمد الشرقاوي بتاريخ 1426/12/10هـــ. وقد تناول فيه صاحبه الوحدة الموضوعية وأقسامها.

- وأما من تناول سورة الحج وأفردها بدراسة موضوعية، أو بهذا العنوان" الوحدة الموضوعية في سورة الحج" فلم أجد دراسة سابقة بهذا الشكل، اللهم إلا ما جاء في التفاسير التي ذكرناها من قبل، حيث لم تكُ مركزة بسبب تناول المفسرين للقرآن كله، و لم تشبع كل سورة بالدراسة في هذا السياق.

وأردت بهذه الدراسة الوصول إلى شيء جديد في إبراز الوحدة الموضوعية لسورة الحج وصياغتها بعد ذلك في شكل نقاط عملية يسهل الأخذ بها.

الوحدة الموضوعية في سورة الحج

(تفسير سورة الحج تفسيرا موضوعيا)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول: مقدمات ومفاهيم حول منهج التفسير الموضوعي

المبحث الأول: منهج التفسير الموضوعي

المطلب الأول: تعريف التفسير الموضوعي.

المطلب الثاني: أنواع التفسير الموضوعي.

المطلب الثالث: قواعد التفسير الموضوعي وضوابطه.

المطلب الرابع: آراء العلماء حول منهج التفسير الموضوعي.

المبحث الثاني: الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية.

المطلب الأول: مفهوم الوحدة الموضوعية.

المطلب الثاني: حقيقة الوحدة الموضوعية.

المطلب الثالث: أهمية الوحدة الموضوعية.

المطلب الرابع: نشأة وآراء العلماء في الوحدة الموضوعية.

الفصل الثاني: الدراسة الخارجية لسورة الحج.

المبحث الأول: تعريفات عامة

المطلب الأول: تعريف القرآن الكريم.

المطلب الثاني: تعريف السورة.

المطلب الثالث: تعريف الآية.

المبحث الثاني: بين يدي سورة الحج

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول: تسميتها، ترتيبها، عدد آياتها.

المطلب الثاني: مكيها، ومدنيها.

المطلب الثالث: فضل سورة الحج.

المبحث الثالث: أجواء نزولها وفضلها.

المطلب الأول: أسباب نزول بعض آياتها.

المطلب الثاني: مكان وزمان النزول.

المطلب الثالث: ناسخها ومنسوخها.

المطلب الرابع: متشابهات سورة الحج.

الفصل الثالث: الدراسة الداخلية لسورة الحج.

المبحث الأول: الموضوع الأساسي للسورة.

المطلب الأول: آراء العلماء في الموضوع الرئيسي لسورة الحج.

المطلب الثاني: وجه تسمية السورة وعلاقته بالموضوع الرئيس.

المطلب الثالث: دور المطلع في تحديد الموضوع الرئيس.

المطلب الرابع: دور الآيات المكية والمدنية في تحديد الموضوع الرئيس للسورة.

المطلب الخامس: دور جو النزول في الكشف عن الموضوع الأساسي للسورة.

المبحث الثاني: الدراسة الأسلوبية للسورة

المطلب الأول: الفواصل في سورة الحج.

المطلب الثاني: تذييل آيات سورة الحج.

المطلب الثالث: الأثر الدلالي لبعض اللمسات البيانية الواردة في سورة الحج.

1 – تكرار بعض الألفاظ المشتركة في الحروف.

2 – صيغة التوكيد والتكرار.

3 – دلالة "يأيها الناس" وعلاقتها بموضوع الحج.

4 – تكرار صيغة النداء: "يأيها الناس" ووجه الربط بينها.

5 – الفرق بين (ذلك) و(ذلكم)؟، وحقيقة تكرار هذا اللفظ.

6 – صيغة "إن الله يفعل ما يريد" و"إن الله يفعل ما يشاء".

7 – التفاتة لسجدتي سورة الحج.

8 – صيغة المبالغة "وما ربك بظلاّم للعبيد".

9 – الفرق بين الحكم والفصل في القرآن الكريم.

المطلب الرابع: بعض آيات الإعجاز في سورة الحج.

الفرع الأول: الإعجاز في إعادة الخلق.

الفرع الثاني: الإعجاز في الذباب.

المطلب الخامس: بعض الصور البيانية الواردة في سورة الحج.

المطلب السادس: الغريب في سورة الحج.

المبحث الثالث: مواضيع سورة الحج ومقاصدها العامة.

المطلب الأول: آراء العلماء في مواضيع السورة.

المطلب الثاني: علاقة موضوع السورة بمقاطعها الأساسية.

المطلب الثالث: علاقة المطلع بخاتمة السورة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الرابع: تناسب محاور السورة فيما بينها.
المطلب الخامس: علاقة مواضيع السورة بالقرآن الكريم.
المطلب السادس: تناسب السورة مع سابقتها ولاحقتها.
خـــــاتـــــمة
فهـــــــــارس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الجمهوريـــة الجزائريـــة الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعـــــة الأمير عبد القادر للعلـــوم الإسلامية

كلية أصول الدين والحضارة والشريعة الإسلامية

قسم: الكتـــاب والســـــنة

شعبة: التفسير وعلوم القرآن

الرقم التسلسلي:.....

رقم التسجيل:.....

الوحدة الموضوعية في سورة الحج

– مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن –

من إعداد الطالب: رياض عميراوي **تحت إشراف الدكتور: هلال خزاري**

السادة أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	أمام اللجنة
يخلف رمضان	دكتورا محاضرا	جامعة الأمير عبد القادر	رئيسا
هلال خزاري	دكتورا محاضرا	جامعة الأمير عبد القادر	مقررا
أحمد رحماني	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة	عضوا
صونية وافق	دكتورا محاضرا	جامعة الأمير عبد القادر	عضوا
مصطفى وينتن	دكتورا محاضرا	جامعة الأمير عبد القادر	عضوا

نوقشت يوم: 11جويلية 2009م

السنة الجامعية: 1430هـ/ 2008م – 2009م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول

مقدمات ومفاهيم حول منهج التفسير الموضوعي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: منهج التفسير الموضوعي.

المطلب الأول: تعريفه

لتعريف التفسير الموضوعي ينبغي أن نتعرض لتفسير لفظيّ هذا المركب، المكون من لفظة: "التفسير" ولفظة: "الموضوعي"، فنبدأ أولا بتعريف مادة: "فسر" في اللغة ثم في الاصطلاح، وبعد ذلك نتعرض لمادة: "موضوع"، لنعود بعد ذلك فنعرّف هذا المركب اللفظي كعَلَم على علم مخصوص، وفن مدون.

أولا: التفسير

لغة: التفسير في اللغة هو تفعيل من الفِسْر؛ الذي هو الكشف والبيان، وفسَّر الشيء يفسّره بالكسر، ويفْسُره بالضم فَسْرًا، يعني: أبانه، والتفسير كشْفُ المراد عن اللفظ المبهم[1]، وقال الأزهريُّ: الفَسْرُ: «كشف ما غُطِّيَ، وهو بيان وتفصيل للكتاب [العزيز]... والتَفْسِرَةُ: اسم للبول الذي ينظر فيه الأطباء يستدلون بلونه على عِلَّةِ العليل، [فكذلك المفسر يكشف عن شأن الآية، وقصصها، ومعناها، والسبب الذي أُنزلت فيه، وكأنَّهُ تسمية بالمصدر، لأن مصدر فعل جاء أيضا على تفعلة]، يعني فسَّرَ تَفْسِرَة.

وكل شيء يُعرفُ به تفسير الشيء ومعناه، فهو تفسرته، وقول الله تعالى: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[2]، وقال بعضهم: التفسير: «كشف المراد عن اللفظ المشكل»[3]، وفَسَرَ وسَفَرَ لغة واحدة، أي إشتقاقهما واحد، ومعناهما الكشف، قال الجوهريُّ: «...وسَفَرَتِ المرأة: كشفت عن وجهها، فهي سافرٌ، ومَسَافِرُ الوجه: ما يظهر منه ... وأسفر الصبح، أي أضاء، وفي الحديث: أسفروا بالفجر، فإنَّهُ أعظم للأجر[4]، وأسفر وجهه حُسنًا، أي أشرق»[1].

---

[1] - لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، تحقيق: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، 2003م/ 1424هـ، ج6، ص134.

[2] - سورة الفرقان، الآية 33.

[3] - معجم تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: د. رياض قاسم، دار المعرفة، الطبعة الأولى، سنة (1422هـ/ 2001م)، بيروت - لبنان. المجلد الثالث، ص2787.

[4] - حديث رواه الترميذي في سننه، باب: ما جاء في الإسفار، ج1، ص263، ورواه النسائي في باب: الإسفار بالفجر، ج2، ص277، ورواه أحمد في المسند من طريق رافع بن خديج، ج35، ص150/ ج48، ص157/ ج48، ص172. وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ج1، ص345، 355، 457، 478، ورواه الطبراني في المعجم: ج9/ 4/ 17، ص150، 13، 460، ورواه البيهقي في الآثار، باب: الصبح، ج2، ص325.

وقال الزركشي في البرهان: «والتفسير هو الكشف أيضا، وهو كشف المغلق من المراد بلفظه، وإطلاق للمحتبس عن الفهم به، ويُقال: فسَّر الشئ أفْسَره تفسيرا، وفسّرْتُهُ أفْسِرُهُ فسرًا، والمزيد من الفعلين أكثر في الاستعمال، وقال آخرون هو مقلوب من سفر ومعناه أيضا الكشف، يقال سفرت المرأة سفورا إذا ألقت خمارها عن وجهها، وهي سافرة، وأسفر الصبح أضاء»[2]، وجميعهم متفقون على أن أصل التفسير الكشف والبيان.

اصطلاحا:

لقد تفاوتت التعاريف الاصطلاحية لهذا اللفظ بسبب اختلاف العلماء في تحديد ما يندرج تحته من مدلول، ومقصد، فبعضهم يقول: هو علم يُعرف به نزول الآيات، وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيُّها، ومدنيُّها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وأمثالها وغيرها[3].

وقد جمع هذا التعريف كل ما يتعلق بعلوم القرآن، وتناول مختلف الدراسات القرآنية.

وهناك من يقول: «هو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك[4].

وقصد بذلك عدة علوم كالقراءات، ومعاني الألفاظ، والنحو، والصرف، والبيان، والبديع، وهذا يُفهم من خلال قوله: «كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها، وأحكامها التركيبية والافرادية»، والمجاز من خلال قوله: «ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب»، وقصد أيضا علم أسباب النزول والمبهم،...وغيره، وهذا يُفهم من قوله: «وتتمات ذلك»، وهو كل ما يتعلق بما جاء في كتاب الله من متشابه ومحكم وقصص...وغيره.

---

[1] – تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة، 1426هـ/ 2005م، بيروت – لبنان، الجزء 2، ص589.

[2] – البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، (1376هـ/ 1957م)، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ج1، ص147.

[3] – كشاف اصطلاحات الفنون، محمد علي الفاروقي التهانوي، تحقيق: لطفي عبد البديع، المؤسسة المصرية العامة، مكتبة النهضة العربية، الطبعة الأولى، 1382هـ/ 1963م، ص33.

[4] – البحر المحيط، علي بن يوسف أبي حيان الأندلسي، ج1، ص14.

وأما الزركشي فيعرّف التفسير بقوله: «التفسير: علم يُعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو، والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ»[1]، وهو الكشف عن مراد الله بقدر الطاقة البشرية.

وهذا الأخير تعريف عام، يفهم منه أن التفسير هو الجهد الذي يبذله المفسر، للكشف عن مراد الله تعالى من خلال خطاب الله المتعلق بأفعال العباد، بقدر استطاعته، وبقدر ما آتاه الله من علم، وبما فتح الله به عليه من فهم.

ثانيا: الموضوع

لغة: فهو في الأصل مصدر ميمي لفعل وضع، يقال في اللغة وضعه يضعه وضعا وموضعا وموضوعا، بمعنى حطّه، ويقال ذلك في الحمل والحمل - بفتح وكسر الحاء - فيقال: وضعت الحمل فهو موضوع، قال ﷻ: ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾[2] وقوله ﷻ: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾[3]، فهذا الوضع عبارة عن الإيجاد والخلق. ووضْعُ البيت: بناؤه، قال ﷻ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾[4] ووضعت الدابة، أسرعت، وتضع في سيرها: تُسرع، ودابة حسنة الموضوع سريعة، وأوضعتها: حملتها على الإسراع[5]، والإبل ألزمتها المرعى فهي موضوعة[6].

والموضوع أيضا من الوضع؛ وهو جعل الشيء في مكان ما، سواء أكان ذلك بمعنى الحط والخفض، أو بمعنى الإلقاء والتثبيت في المكان، تقول العرب: ناقة واضعة: إذا رعت الحمى حول الماء ولم تبرح، وهذا المعنى ملحوظ في التفسير الموضوعي، لأن المفسر يرتبط بمعنى معين لا يتجاوزه إلى غيره حتى يفرغ من تفسير الموضوع الذي أراده[7].

---

[1] - البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، (مصدر سابق)، ج1، ص13.

[2] - سورة الغاشية، الآية 14.

[3] - سورة الرحمن، الآية 10.

[4] - سورة آل عمران، الآية 96.

[5] - المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سعيد كيلاني، دار المعرفة، (دون تاريخ)، بيروت. ص526.

[6] - التفسير الموضوعي، عبد الجليل، (مصدر سابق)، ص33.

[7] - مقدمة في التفسير الموضوعي، محمد بن عبد العزيز الخضيري، كلية المعلمين قسم الدراسات القرآنية، ص20.

وهذه لفظة غنية المعاني، حقيقية ومجازية، وهي لا تستعمل في الاستعمال الـــذي نقـــصده لأنهـــا مصطلح حديث شاع حتى أصبح حقيقة عرفية على القضية العلمية.

اصطلاحا:

جاء في المعجم الوسيط: «الموضوع هو المادة التي يبني عليها المتكلم أو الكاتب كلامه»[1]، وهو محل العرض المختص به، وموضوع كل علم: ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية، كبدن الإنسان لعلم الطب، وكالكلمات لعلم النحو[2].

ويعرّفه آخرون بأنه قضية، أو أمر متعلق بجانب من جوانب الحياة، في العقيدة أو السلوك الاجتماعي، أو مظهر من مظاهر الكون، تعرَّضت له آيات القرآن الكريم[3]، وبإضافة (تفـــسير) إلى (موضـــوعي): صارت علما على هذا الفن، بعد أن رُكبت معها وصارت كلمة واحدة، كما هو الشأن في اسم (معد يكرب)، أو (حضرموت)، أو (سيبويه)، فتنوسيت تلك الإضافة مع مرور الزمن، وصارت كأنها كلمة واحدة لها معنى خاصًا بها.

تعريف المركب: أما تعريف التفسير الموضوعي كمركب إضافي فهو: عبارة عن منهج جديد يُتناول به تفسير القرآن الكريم، بطريقة سهلة ميسورة تخدم المقبلين على كتاب الله، فتمكنهم من فهم القرآن الكريم فهما دقيقا كاملا، وهو «عبارة عن جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضـــوع واحـــد، مشتركة في الهدف، وترتيبها على حسب النزول- كلما أمكن ذلك - ثم تناولها بالشرح والتفـــصيل، وبيان حكمة الشارع في شرعه وقوانينه، مع الإحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد في القرآن الكريم، والذب[4] عما يمكن أن يكون قد أثير حوله من شُبَه الضالين والملحدين من أعـــداء الـــدين»[5]، وقيل: هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر[6].

وقيل: هو علم يبحث في قضايا القرآن المتحدة معنى وغاية عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها

---

[1] - مجمع اللغة العربية، (مصدر سابق)، ج2، ص1052.

[2] - التوقف على مهمّات التعاريف، عبد الرؤوف المناوي، (مصدر سابق)، ص720.

[3] - مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، (مصدر سابق)، ص16.

[4] - تعني: الدفاع.

[5] - التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، محمد يوسف القاسم، الطبعة الأولى، سنة1981م، القاهرة، القسم الأول، ص7.

[6] - مباحث في التفسير الموضوعي، (المصدر السابق)، ص16

على هيئة مخصوصة بشروط مخصوصة لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع[1]، وكل هذه التعاريف متقاربة بعضها لبعض، فبعضهم عرّف التفسير الموضوعي باعتباره علما على فن مدون، وبعضهم عرفة على اعتبار أنه مركب وصفي، ولعل كل هذه التعاريف تخدم بعضها بعضا وتتم المعنى المطلوب.

المطلب الثاني: أهمية التفسير الموضوعي.

أخذ التفسير في العصر الحديث اتجاهات متعددة ومناهج متنوعة، بعضها يساير ما كان عند القدامى ويعتبر امتدادا له، وبعضها لم يكن له عند القدامى قسمات واضحة، وإنما هو لون تعروه جدة في إطاره، وبعض مضامينه، وإن كان لا يخلو من أثر يمكن نسبته إلى جهود القدماء، ولقد اجتهد المعاصرون في البحث عن طرق وسبل تيسّر لهم فهم القرآن الكريم، وضوابط وقواعد جديدة تُمكن المفسر من خوض غمار هذا الكتاب العظيم، وهذا بسبب التقدم والتطور الذي عرفته البشرية.

يقول الدكتور محي الدين بلتاجي في هذا الشأن: «والواقع أن الحياة الانسانية قد تغيرت معالمها ومعارفها تغيرا كبيرا منذ بدأ التأليف في التفسير عند القدامى، بمساراتهم التي ارتضوها حتى هذا القرن الذي نعيشه، والذي تشكلت في مطلعه حضارة مادية أظلت حياة الناس، تغلب عليها النظرة العلمية، وتوجه الكثير من اتجاهات الفكر فيها... ومما لاشك فيه أن كثيرا من القضايا التي عرض لها القدامى من المفسرين، لم تعد تساير العصر، لأنها ليست من معطياته الفكرية في شيء، ومن هنا اتجه الكثير من المحدثين إلى التفسير، وهم يحاولون الربط بين ما جدَّ في حياتهم من قضايا وبين كتابهم»[2].

ويقول الدكتور يوسف القاسم: «ممَّا لا شك فيه أن هذا النوع من تفسير القرآن الكريم نحن في أشد الحاجة إليه، وخصوصا في هذا العصر الذي تقدمت فيه العلوم والمعارف، وتغيرت العادات والتقاليد عما كانت عليه من قبل، وأصبحنا في حاجة ماسة إلى عرض أعمالنا على القرآن والسنة الشريفة وعمل السلف الصالح، فما وافق أخذنا به وما لا يوافق طرحناه وراء ظهورنا»[3].

وإن تقسيم القرآن إلى مواضيع معينة وتفسيرها، هي الطريقة المثلى في الكشف عن خبايا هذا الكتاب، من تشريعات، وقواعد، وسلوك حميد، وكل ما من شأنه يفيد الناس في حياتهم، وما يتعلق

---

[1] - التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا، أحمد رحماني، منشورات جامعة باتنة، ص42.

[2] - دراسات في التفسير وأصوله، محي الدين بلتاجي، دار الثقافة، الطبعة الأولى، ص193، سنة1987م، بيروت.

[3] - التفسير الموضوعي، يوسف القاسم (مصدر سابق)، ص10.

بسلوكهم، وهذا ما يشعرنا بما للقرآن من صلة وثيقة بنظامنا الديني، والاجتماعي، والأخلاقي.

كما أن أهمية هذا المنهج تكمن في التصدي لمبادئ الشيوعية والإلحاد وبعض المادية، خاصة وأنها تدعي إطلاق الحرية، وتتهم الآباء بالغفلة والرجعية، وذلك من خلال إبراز مواضيع القرآن الكريم بصورة علمية جديدة، وبشكل يخدم القضايا المعاصرة، ويطرح الموضوع من جوانبه المختلفة، لتكتمل الصورة، وتقوم الحجة، على كل من يدعي فهم الحياة وحقيقة الإنسان، ليزداد الذين آمنوا إيمانا، وليستيقن من كان في قلبه ريب.

كما تتجلى أهمية هذا المنهج في إبراز وجه من أوجه إعجاز هذا الكتاب المحكم المرتب ترتيبا يوحي بأنه من عند حكيم حميد، لا سيما إذا كانت أسباب النزول متعددة، وأزمنة النزول متباعدة، حيث يظهر ذلك من خلال جمع الآيات، وصبها في موضوع واحد، كما هو الشأن في هذا المنهج من التفسير.

ويرى الأستاذ أحمد رحماني أن أهمية التفسير الموضوعي تكمن في تحديده موضوع معين، وهو تتمة لرسالة الفقهاء[1].

ويمكن تلخيص أهمية هذا المنهج في الأمور التالية:

الأول: إبراز وجوه جديدة من إعجاز القرآن الكريم، فكلما جَدّت على الساحة أفكار جديدة – من مُعطيات التقدم الفكري والحضاري – وجدها المفسر جلية في آيات القرآن، لا لبس فيها ولا غموض، بعد تتبع مواطن ذكرها فيه، فيسجل عندها سبق القرآن إليها، ويدلل بذلك على كونه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه الذي لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي غرائبه ودلائل إعجازه.

الثاني: التأكيد على أهمية تفسير القرآن بالقرآن، الذي هو أعلى وأجلُّ أنواع التفسير، إذ قد يوجد من لا يلجأ إلى القرآن عند إرادة إيضاحه وتفسيره لقصور فيه، أو تقصير منه، وبالتفسير الموضوعي ندرك أهمية هذا اللون من التفسير فتزداد عنايتنا به، وتتعاضد جهودنا لبيانه، فنُكفى بذلك الوقوف عند كثير من مشكل القرآن، أو مواطن الخلاف بين علماء الأمة في تفسير آياته، ونورد ما يوضح المراد ويشفي العليل ويروي الغليل بالقرآن نفسه.

الثالث: إن تجدد حاجة البشرية، وبروز أفكار جديدة على الساحة الإنسانية وانفتاح ميادين

---

[1] – التفسير الموضوعي، أحمد رحماني، (مصدر سابق)، ص14.

للنظريات العلمية الحديثة لا يمكن تغطيتها ولا رؤية الحلول لها إلا باللجوء إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، إذ عندما نُجَابَهُ بنظرة جديدة، أو علم مـ.تحدث، فإننا لا نقدر على تحديد الموقف من هـــذا العلم، وتلك النظرية، وحل المشكلة القائمة، وبيان بطلان مذهب ما، إلا عن طريق تتبع آيات القرآن، ومحاولة استنباط ما يجب نحو كل أولئك.

وإن جمع أطراف موضوع ما من خلال نصوص القرآن والسنة، يمكّن الباحث مـــن القيـــام بـــدور اجتهادي للتوصل إلى تنظير أصولي لهذا الموضوع، وعلى ضوء هدايات القرآن ومقاصده نستطيع معالجة أي موضوع يَجدّ على الساحة.

الرابع: إثـــراء المعلومات حول قضية معينة، فغالباً ما يُطرح موضوع أو قضية أو فكرة أو مـــشكلة للبحث، ويبقى أيٌّ من ذلك محتاجاً إلى إشباع، ومزيد من الدراسة، ويتم تحقيق ذلك من خلال التفسير الموضوعي بحيث تتبين لذوي الشأن أدلة جديدة، ورؤى مستفيضة، وتفتيق لشيء من أبعـــاد القـــضية المطروحة.

الخامس: تأصيل الدراسات أو تصحيح مسارها، حيث نالت بعض علوم القرآن حظاً وافـــراً مـــن البحث والدراسة، إلا أن هناك علوماً أخرى برزت جديدة تحتاج إلى تأصيل بضبط مسارها، حتى يُؤمَنَ عثارها مثل (الإعجاز العلمي في القرآن)، فـــقد كثر الكاتبون حوله إلا أنه بحاجة ماســـة إلى ضـــبط قواعده لِيُتَجَنَب الإفراط فيه أو التفريط، وهذا إنما يتم عبر دراسة موضوعية لآيات القرآن وهداياته في هذا المجال.

وهناك علوم ودراسات قائمة منذ القدم لكن المسار الذي تنتهجه يحتاج إلى تصحيح وتعديل، وإعادة تقويم، كعلم التاريخ الذي أخذ منهجاً في سرد الوقائع والأحداث من غير تعرض لسنن الله في الكـــون والمجتمع، علماً بأن هذه السنن قد أبرزتها آيات القرآن خلال قصصه بشكل واضح، وهناك انحرافـــات مبثوثة في كتب التاريخ تخالف ما نص عليـــه في القرآن الكريم، ولن يتم تعديلها وتقويم مثـــل هـــذه العلوم إلا بطريق استقصاء منهج القرآن في عرضها ودراستها..[1]

المطلب الثالث: ألوان التفسير الموضوعي.

من خلال استعراضنا لبعض ما أُلّف في هذا المنهج، ومن خلال ما نلحظـــه في التفاســـير القديمـــة والحديثة، وما كُتب في التنظير لهذا المنهج نستنتج ثلاثة أنواع من ألوان التفسير الموضوعي.

---

[1] – مقال للأستاذ: محمد بن عبد العزيز الخضيري، كلية المعلمين، قسم الدراسات القرآنية، تاريخ: 05/ 02/ 2002م.

اللون الأول:

وهو ما يُعرف بالتفسير الموضوعي للّفظة القرآنية، وطريقته أن يتتبع الباحث لفظة معينة من القرآن الكريم، كالعقيدة، أو الحب، أو الأمانة، أو الجهاد، أو النفاق...إلخ، فيجمع لها الآيات التي وردت فيها هذه اللفظة من القرآن الكريم كله، سواء بلفظها أو بمشتقاتها، ثم يعهد الباحث إلى تفسير هذه الآيات، مستنبطا من خلالها دلالات تلك اللفظة، واشتقاقاتها من خلال استعمال القرآن لها، فتكتمل بذلك الصورة، حيث يُطلعنا ذلك على أساليب القرآن الكريم في تعامله مع الألفاظ، واستخدامها في الموضع الأليق بها، دون تقديم أو تأخير.

وهذا اللون من التفسير الموضوعي أشبه بما في بعض الدراسات السابقة، كالأشباه والنظائر، وغريب القرآن، وغيرها.

وقد أورد الدكتور مصطفى مسلم بعض النماذج من هذا اللون من التفسير، نكتفي بذكر أنموذجا واحدا لإيفائه بالغرض، حيث جاء في كتابه: "مباحث في التفسير الموضوعي" تحت عنوان نموذج من كتاب: "إصلاح الوجوه والنظائر" للدامغاني، ما يلي: «قال الدامغاني تحت مادة: (خ ي ر)، (خير) على ثمانية أوجه:

المال، الإيمان، الإسلام، التفضيل، العافية، الأجر، الطعام، الظفر والغنيمة.

- فمعنى المال جاء في قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾[1].
- وبمعنى الإيمان جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾[2].
- وبمعنى الإسلام جاء في قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[3].
- وبمعنى أفضل جاء في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾[4].
- وبمعنى العافية جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

---

[1] - سورة البقرة، الآية 180

[2] - سورة الأنفال، الآية 23.

[3] - سورة البقرة، الآية 105.

[4] - سورة المؤمنون، الآية 118.

- وبمعنى الأجرُ في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾[2].

- وبمعنى الطعام في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾7.

- وبمعنى الظفر والغنيمة، جاء في قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾[3]»[4].

وهذه الأمثلة التي سقناها من القرآن ليست وحدها التي جاء فيها الخير بهذه المعاني بل هناك آيات أخرى أعرضنا عن ذكرها لعدم التطويل.

اللون الثاني:

ويسمى التفسير الموضوعي التجميعي، ويعرف أيضا باسم التفسير الموضوعي لموضوع قرآني، حيث يختار الباحث موضوعا له أبعاده الواقعية في الحياة أو العلم أو السلوك...إلخ، مما يتعلق بأمور الناس، ويفيد البشر جميعا، وخاصة المسلمين في حياتهم، ويشكل منه موضوعا يدرسه على ضوء القرآن الكريم من خلال آياته، ويخرج بعد ذلك بخلاصة تساعد في فهم جوانب الموضوع، وتعطي حلولا للمشاكل المطروحة.

وهذا اللون من هو الذي اشتهر بين أهل الاختصاص، وإذا ما أطلق اسم التفسير الموضوعي، فلا يكاد ينصرف الذهن إلاّ إليه[5].

وفيه أن يقوم الباحث بجمع آيات تصب في موضوع واحد، ويقوم بتفسيرها على ضوء ما تسمح به ثقافته، ثم ينسق بين معاني هذه الآيات، ويقسمها إلى مقدمة، وصلب، وخاتمة، ويربط كل ذلك، بالواقع الذي انطلق منه، ليعود في الأخير إلى استخلاص قواعد وحلول شاملة للمشكل المدروس.

وقد ألّف في مثل هذا النوع العلماء السابقون، إذ يجمعون الآيات المشتركات في شيء واحد مثل الأمثال في القرآن، أو الآيات التي اشتملت على الأحكام، أو ما جاء في الناسخ والمنسوخ، أو غير ذلك مما له رابط بعضه ببعض، ولكنهم أوردوها ليقفوا على ما فيها، فلم يربطوا بينها ليستخلصوا موضوعا

---

[1] - سورة الأنعام، الآية 17.

[2] - سورة الحج، الآية 36.

[3] - سورة الأحزاب، الآية 25.

[4] - مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، الطبعة الثانية، 1997م/ 1418هـ، دمشق، ص24.

[5] - المصدر السابق: ص28.

واحدا بالصورة التي نعهدها اليوم في هذا المنهج، و لم يتجاوزوا الحديث عن مدلولات ومعاني تلك الآيات واستخلاص مسائل جزئية، فضلا عن تقسيمهم لتلك المجموعات من الآيات، لتشكل مقدمة وصلب موضوع، وخاتمة، بل جمعت بطريق آخر ورتبت إما ترتيبا مصحفيا، أو بحسب المتقدم منها والمتأخر، لتخدم الغرض الذي جمعوا من أجله تلك الآيات.

ولعل كثيرا من المؤلفين في هذا العصر قد دأب على هذا الطريق، فكتبوا في هذا النوع، خاصة بعض الباحثين من طلاب في رسائلهم الجامعية، وهي مواضيع منتشرة في المجلات والدوريات، مثل "حقوق الإنسان في القرآن"، و"العِرض في القرآن"...وغيرها، وقد خطا هذا النوع خطوات لا بأس بها، وهو في طريق النمو، والإزدهار.

اللون الثالث:

وهو التفسير الموضوعي الكشفي، ويسمى أيضا التفسير الموضوعي للسورة القرآنية، أو الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، والذي نتعرض له بالتفصيل في المبحث القادم، وهو أن يختار الباحث سورة من القرآن تكون مدار بحثه، ويخرج منها بدراسة موضوعية متكاملة، كما فعل باقر الصدر عندما تناول سورة البقرة، وسورة هود، ويونس، وسنذكر بعض من ألَّفَ في هذا النوع في الحديث عن الوحدة الموضوعية ونشأتها.

وهذا اللون من التفسير الموضوعي لا يتجاوز السورة الواحدة من القرآن، وطريقته أن يستوعب الباحث الموضوع الرئيس للسورة، وكذا مواضيعها الجزئية، مستعينا في ذلك بعدة أمور، مثل ترتيب النزول، وأسبابه، وهل تلك الآيات مكية أو مدنية، مع دراسة لأسلوب القرآن في تناول ذلك الموضوع، مع التركيز على كشف ذلك الرابط الذي يجمع تلك الموضوعات الجزئية، وإبراز علاقتها بالموضوع الرئيس للسورة، لتفسر تلك المجموعات وتلك المقاطع من الآيات بصورة عامة متكاملة، بعد تقسيمها وترتيبها بحسب ما يقتضيه الموضوع، على أساس أن يخرج المفسر بعد الدراسة بإحاطة وافية للموضوع، وإلمام تام بجوانبه، في شكل خلاصة يسهل فهمها، والأخذ بها.

وقد شح هذا اللون من التفسير في كتب القدماء، كما يخبرنا بذلك الدكتور مصطفى مسلم فيقول: «و لم يظفر هذا اللون من التفسير الموضوعي بعناية القدماء، بل جاء في ثنايا تفاسيرهم الإشارة إلى بعض أهداف السور، وخاصة القصيرة منها، وكذلك التوخي لوجه المناسبة بين مقاطع بعض السور، كما فعل الفخر الرازي في تفسيره الكبير، وما فعله البقاعي في "نظم الدرر"، وعبد الحميد الفراهي في

كتابه: "نظام القرآن"»[1].

وهناك نوع آخر من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم متكاملا، حيث تتظافر جهود عدد من الطلبة للبحث في الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم، وإخراجه في صورة واقعية إلى حيز الوجود، وهي فكرة طيبة تحتاج إلى من يتبناها، ويدعمها ويحوطها بالعناية، لتثمر وتزهر وتكون لبنة تضاف إلى هذا المجال، كما قال الأستاذ باقر الصدر في مقدمات التفسير.

المطلب الرابع: قواعد وضوابط التفسير الموضوعي.

لقد توسع المفسرون القدماء توسعا كبيرا في عرض القضايا النحوية والصرفية، وحشوا تفاسيرهم بالعديد من المسائل التي أثقلت التفسير، بحيث تجعل القارئ يتخبط في خضم هذه الآراء والتحليلات، والمناقشات الفقهية... إلخ.

كما أنهم قد حشوا كتبهم بإسرائيليات نقلوها عن أهل الكتاب، إستنادا لرخصة النبيﷺ، القائل في حديثه الشريف: "خذوا عن بني إسرائيل ولا حرج"[2]، فعجّت مؤلفاتهم بتلك القصص والروايات والأساطير التي أفسدت المعنى ووضعت بينه وبين المعنى الحقيقي كثيف الحجاب.

وما زاد الطين بلة تلك التفاسير المشوبة ببعض الأحاديث الموضوعة، وتلك الروايات الضعيفة المزعوم صحتها عن رسول اللهﷺ، والتي كثيرا ما تحيدنا عن المعنى الحقيقي لفهم القرآن الكريم.

لكل ذلك بات من الضروري البحث عن منهج ينقي ويصفي التفسير من الشوائب التي علقت به عبر الزمان، وحالت دون إبراز بعض المعاني القرآنية السامية، والتي تحمل في طيّاتها هدايات للبشر، فحاول العلماء وضع ضوابط وقواعد تعصم من كل ذلك، فاجتهدوا في إرساء بعض قواعد منهج التفسير الموضوعي، نذكر منها:

- وضع خطة منهجية تتحكم في سير التفسير، بحيث لا يخرج المفسر عنها وهو ملزم باتّباع خطواتها، وهي تلك الأطر العامة، وذلك الطريق المتسلسل المتين، الذي ينطلق من مقدمات علمية صحيحة، مستدلا على ما يعرض من تفسير من الكتاب نفسه، ومما صح عن رسول اللهﷺ، وعما اجتمعت عليه الأمة وتعارف عليه المسلمون منذ بداية النزول إلى يومنا هذا، ليخلص بعد ذلك إلى نتائج حقيقية مرضية، ولأن النتائج مرتبطة بمقدمات، فإن صحت المقدمات، وصح الاستدلال، صحت لزوما النتائج.

---

[1] - مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، (مصدر سابق)، ص29.

[2] - حديث رواه البخاري في كتاب التفسير، الجزء8، ص120، تحت رقم 503.

- العمل على ربط معاني القرآن بما ورد في السنّة الشريفة، والعمل على التخلص من الروايات السمعية الواهية المنكرة، حيث أن الحديث الشريف يساعد على ترجيح بعض مدلولات، سيقت لها الألفاظ التي تحمل أكثر من معنى.

- مراعاة القراءات التي تمكّن المفسر من اختيار بعض الوجوه المحتملة وترجيحها على بعض، لأن القرآن الكريم له عدة قراءات صحيحة متواترة، وهي متلاقية في معانيها، مقتربة في مدلولاتها، وربما تكشف الأخرى قرينتها، أو توجهها في المعنى، مثل ما جاء في آية الوضوء من سورة المائدة[1]، حيث قرأت كلمة "أرجلكم" بالفتح وبالضم، فعطفت الأولى على الغسل، وعطفت الثانية على المسح، فشرع بدلك غسل الرجلين، وكذا مسحهما. وما جاء في قوله تعالى: ﴿أَوْ لاَمَسْتُمْ النِّسَاءَ﴾[2]، فقُرأت بإثبات الألف وطرحها، أي "لامستم" و"لمستم" فالأول كناية على الجماع، والثانية على اللمس فقط[3].

- التخلص من الإسرائيليات، والتقليل منها، إلاّ عند الضرورة، ولا تكون إلا فيما وافق القرآن والسنة. وفي حيز ضيّق جدا، كوصف جلد بقرة، أو اسم كلب، أو قرية قد اندثرت، أو شيء من هذا القبيل. والذي لا يمد إلى المعنى بصلة، ولا يمس بقدسية هذا الكتاب ومعانيه الشريفة.

- معرفة أسباب النزول والمكي منها والمدني، ومعرفته عون على فهم النص القرآني وجو التنزيل، إذ به تترجح كثير من المعاني، وتتضح أفهام جديدة للمفسر على ضوء ما يستخلصه من أسلوب الخطاب المستعمل في فترات زمنية معينة متباينة فيما بينها، وفي أماكن مختلفة، وربطها بحوادث ومناسبات وربما بأشخاص معينين، فقد يصرح لهم القرآن الكريم، وقد يبهمهم، كما حدث مع الملك بن مروان حينما استشكل عليه فهم قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿ولاَ يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا وَيُحِبُّون أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا...﴾[4] فقال له ابن عباس رضي الله عنه أنها نزلت في أهل الكتاب، ومثل هذا كثير في القرآن.

- معرفة الناسخ والمنسوخ، وتقتضي معرفته معرفة المتقدم في النزول من المتأخر، لكي لا يقع المفسر أو

---

[1] - المائدة، الآية 6، وهي قوله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾.

[2] - سورة النساء، الآية 43.

[3] - الحجة في القراءات السبع، للإمام ابن خالويه، تحقيق: د.عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، الطبعة الثانية، 1397هـ/ 1977م، بيروت، ص124.

[4] - سورة آل عمران، الآية 188.

المفتي مأزق الإفتاء بنص منسوخ فيَضل ويُضل، كأن يفتي بإمساك زوجة جاءت بفاحشة مبينة في بيتها حتى يدركها الموت، أو يجعل الله لها سبيلا، وهو لا يدري أنها نسخت بآية اللعان.

– معرفة القصص القرآني؛ إذ أن التفصيل في القصص التي جاءت في القرآن مجملة، قد يعين المفسر على ترجيح رأي على رأي، لأنه يعطي للمفسر صورة متكاملة حول جزئيات القصة، ويجعله يعيش ذلك الجو الذي تصوره تلك الأحداث الدائرة في فلك القصة، فتمكنه من استخراج هداياها، واستنباط عضاها، وعبرها، المنبثة في ثنايا جزئياها، والتي تعود بالفائدة على المتدبر والتالي لكتاب الله، إضافة إلى استمتاع القارئ لهذه القصة وتفسيرها بتلك المشاهد التي تصورها من خلال جزئياها، فتبقى متعلقة بذهنه، وتؤثر في نفسه، كلما ذُكرت هزت نفسه، وحركت مشاعره، وزادت في ورعه وتقواه.

هذه أهم ضوابط منهج التفسير الموضوعي بصورة عامة كما نراها، وأمّا من كان له الفضل في تفصيل هذه القواعد، فهو الشيخ حبنكة الميداني بدون منافس، حيث يذكر في كتابه: "قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله" حوالي أربعين قاعدة كلها تصب في هذا المعنى من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، وهي قواعد شملت في تقديرنا جميع ما يحتاج إليه هذا المنهج من الحيلولة دون وقوع المفسر في الزلل والخطأ، فضلا عن توضيح وتجلية المعنى المراد من آيات الكتاب العزيز، بل إن الشيخ في اعتقادنا لم يترك شاردة ولا واردة إلا أشار إليها، فكان كتابه بحق جامعا مانعا لهذه الضوابط والقواعد، التي تنتظر من يأخذ بها ويطبقها، بل يحثنا صراحة على ذلك فيقول: «وفي هذه الرسالة كتبت هذه القواعد، وشرحتها بالأمثلة، وقد أكون في بعضها مسبوقا إلى كتابته أو الإشارة إليه، وقد يكون بعض المفسرين قد وضع في تصوره مراعاة بعضها، إلا أنني لم أجد من راعاها كلها مراعاة تامة في كل ما تدبر من كلام الله، كما أن بعض هذه القواعد لم يحظ بعناية أحد من المفسرين، وأمام الباحثين المتدربين لكتاب الله طريق طويلة، قد لا يصلون إلى غايتها مهما بذلوا من جهد وكد، إلا أنهم – من دون شك – سيكتشفون بالبحث كنوزا عظيمة من هذا التنزيل الرباني العظيم»[1] ولا بأس أن نشير إلى بعض هذه القواعد على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر:

إن أول قاعدة تناولها هذا الكتاب هي مراعاة ارتباط الجملة القرآنية بموضوع السورة، وارتباطها الموضوعي بما تفرق في القرآن المجيد[2]، وهي قاعدة نلمسها في محاولات بعض المفسرين في كشف تلك

---

[1] – قواعد التدبر الأمثل، حبنكة الميداني، الطبعة الثالثة، دار القلم، سنة2004م، ص12.

[2] – المصدر نفسه، ص13.

الروابط والمناسبات بين الآيات والسور، وبين مقاطع السورة كما هو الشأن في تفسير سعيد حوى، وتفسير عبد الله دراز، وضرب لهذه القاعدة أمثلة من القرآن ليستدل على صحة ما يذهب إليه، بأو د في القاعدة الثانية حديثا يدور حول الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، حيث سمّاها: وحدة موضـــ ع السورة القرآنية[1]، وضرب لذلك أمثلة بسورة الرعد، وسورة العلق، والقيامة، وجاء حديثه في القاعدة الرابعة عن بيئة نزول النص البشرية، والمكانية، والنفسية، والفكرية، والفردية، والاجتماعيـــة[2]، وهـــي أبعاد متعلقة بجو النزول وأسبابه، ويختم هذه القواعد بما أوردنا سابقا عـــن القـــراءات، ويحـــددها في القراءات العشر، ويعني بها مراعاة القراءات المتواترة، مستدلا على كل قاعدة يذكرها في الكتاب بأمثلة من القرآن الكريم، يسرد نماذج ومقاطع لبعض التفسيرات التي تصب في الموضوع المطـــروح، وتخـــدم المعنى المقصود، وفيما ذكرنا من القواعد والضوابط كفاية، والله المستعان.

المبحث الثاني: الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية.

مقدمة:

---

[1] – المصدر نفسه، ص27.

[2] – المصدر نفسه، ص53.

تعرضنا سابقا إلى انواع وألوان التفسير الموضوعي بشكل عام، دون التفصيل في خصائص كل لـ واكتفينا بضرب بعض الأمثلة منها، وسنأتي الآن إلى الحديث عن أحد هذه الألوان بالتفصيل، باعتبـــار أنه الاختيار أو اللون الذي أردنا أن نطبقه عمليا على إحدى سور القرآن الكـــريم، وهـــو الوحـــدة الموضوعية لسورة الحج، ولنبدأ بمفهوم هذا المصطلح العلمي الجديد، ونستعرض بعد ذلك نشأته وأهميته في مجال التفسير.

المطلب الأول: مفهوم الوحدة الموضوعية.

مفهوم الشيء عبارة عمّا يدّل عليه من حكم لا يدخل في لفظه معناه، كقوله تعـــالى:﴿..فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا...﴾[1]، ومفهوم أنّ ضربهما وشتمهما أولى بالتحريم، ورجل فهْمٌ من قـــوم فُهماء[2]. والفَهْمُ يقتضي الإحاطة بالمقصود إليه[3].

وليتضح مفهوم الوحدة الموضوعية لا بدّ لنا من إيراد بعض التّعاريف اللغوية والاصطلاحية الخاصة بهذا الاسم المركب من لفظتي: "الوحدة" و"الموضوعية"، وكذا المعنى المقصود من تركيبهما.

يقول ابن منظور الأفريقي[4]: «الوحدة – بكسر الحاء – هي: الأنثى المنفـــردة»[5]، والوحـــدة – بسكون الحاء – الإنفراد[6]، والواحد هو العدد، والأوحد هو الذي لا ثاني له، والوحدة – بفتح الواو وسكون الحاء – الإتحاد والاجتماع، وهي عكس الوِحْدَة: التي تعني الافتراق، والتشتت، ويمكـــن أن تجمع الوحدة – بفتح الواو – أفرادا، فتكوّن وحدة واحدة، والواحد الذي لا ينقسم بوجه، لا فرضـــا

---

[1] – سورة الإسراء، الآية 23.

[2] – أبو بكر بن الحسن بن دريد، تحقيق: منير البلعبكي، ج2، ص972، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، سنة1987م.

[3] – معجم المصطلحات العربية، د. فايز الدالآية، ص77، دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، سنة1410هـ/ 1990م.

[4] – هو جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن حقة بن منظور الأنصاري الأفريقي المصري الأسدي اللغوي، مولاهم الكوفي النحوي، صاحب الكسائي، يروي عن قيس بن الربيع، ومندل بن علي، وأبي الأحوص، وأبي بكر بن عياش، وعلي بن حمزة الكسائي، توفي سنة711هـ. انظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة جلال الدين السيوطي، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، الطبعة الثانية، سورية، 1979م، وسير أعلام النبلاء، شمس الدين بن أحمد بن عثمان الذهبي، ج10، ص119، مؤسسة الرسالة، (د.ط)، بيروت – لبنان، 1985م.

[5] – لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، تحقيق: عامر أحمد حيدر، ج6، ص478، مادة وحد، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان، 2003م/ 1424هـ.

[6] – التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: محمد رضوان الدالآية، دار الفكر، سورية، سنة1990م، ص675.

ولا وهما، ولا فعلا، ولا بينه وبين غيره نسبة بوجه[1]، فالوحدة في اللغة تطلق على الإنفراد، يقال وحده توحيداً: جعله واحداً، ورجل متوحد: منفرد[2]، قال أبو البقاء في كلياته: الوحدة كون الشيء لا ينقسم، وتطلق ويراد بها عدم التجزئة والانقسام[3]، والوحدة في النظام السياسي: إتحاد أمتين أو أكثر في الرياسة والسياسة والاقتصاد والجيش[4].

أمّا لفظة "موضوع" فقد سبق التعريف بها في المطلب الأول من المبحث الأول.

ويمكن أن نخلص إلى أنّ الوحدة الموضوعية كمركب لفظي: تعني أنّ للسورة الواحدة من القرآن الكريم موضوعا منفردا، وهو في الوقت ذاته مجموعة من المحاور مجتمعة لتشكل ذلك الموضوع الذي يسمى موضوع السورة، وتلك النظرة الكلية الشاملة لما جاء فيها، حيث يقول الشاطبي(791هـ)[5] في الموافقات وهو يتحدث عن النظم وفوائده: «اعتبار جهة النظم في السورة لا يتم به فائدة إلاّ بعد استيفاء جميعها بالنظر، فالاقتصار على بعضها غير مفيد للمقصود منها»[6] وما ذهب إليه الشاطبي هو عينه الذي نقصده بالوحدة الموضوعية.

وما يزيد هذا المعنى وضوحا قول الدكتور مصطفى مسلم، حين يتحدث عن طرق تناول التفسير الموضوعي، إذْ يعتبر البحث عن موضوع السورة، وتتبعها، لونا من ألوان التفسير الموضوعي، إذ يقول: «وكما أن الهدايات تجتمع في القرآن بتمامه، فإنّ هذه الهدايات منبثة أيضا في سوره، بصورة تجل عن الوصف، يراها من ينعم النظر فيها، فيجد لكل سورة وحدة تجتمع حولها آياتها وإن تعددت

---

[1] – لسان العرب، (مصدر سابق)، ص4780.

[2] – ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير، وأساس البلاغة، أحمد الظاهر الزاوي، دار الفكر، الطبعة الثالثة، (دون تاريخ)، دمشق، ج1، ص581.

[3] – الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، محمد محمود حجازي، دار الكتب الحديثية، مطبعة المدني، الطبعة الأولى، 1390هـ/ 1970م، ص32.

[4] – المعجم الوسيط– معجم اللغة العربية – القاهرة، ج2، ص1028.

[5] – هو إبراهيم بن موسى أبو إسحاق: فقيه مالكي، وأصولي مفسر، من أهل غرناطة، من مؤلفاته: "عنوان التعريف بأسرار التكليف" في الأصول، وكتاب: "الإعتصام" في تعريف البدع، و"الموافقات"، وله مؤلفات في النحو، وأصول الأحكام، توفي سنة790، أو 791هـ/ 1388م. انظر: الأعلام، خير الدين الزركلي، ج1، ص75، دار الملايين، الطبعة الأولى5، بيروت – لبنان. والمنجد في اللغة والأعلام، لويس معلوف، ص381، المطبعة الكاثوليكية، الطبعة الثالثة والعشرون، دار المشرق، بيروت – لبنان.

[6] – الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، ج3، ص415، دار الفكر العربي، الطبعة الثالثة، 1325هـ، بيروت.

موضوعاتها، ويحس فيها روحا تسري بين أجزائها، ووشائج تربط بينها، ومقصدا يجمعها ... وهـذا النوع من الدراسة هو الذي يميّز التناول الثالث للتفسير الموضوعي، فدائرته تحيط بالسورة القرآنية الواحدة، وتتجلى مهمة الباحث في الكشف عن الهدف الجامع، الذي تدور حوله السورة، وطريقته: أن يستوعب الباحث أهداف السورة المنبثة في أسباب نزولها، وترتيبها، ومكيها، ومدنيها، وأسمائها وعدد آيها، ومقاصدها الفرعية، وأساليب عرضها، والمناسبات بين مقاطعها»[1]

فالسورة في مجملها، كلٌ لا تنفصم عُراه، وطائفة ملتئمة من الآيات لا تحتمل التقطيع، وإنما النظر يكون في كلها، واستفاء معانيها بتمامها[2] وكل هذا يعتمد على أوجه المناسبة بين أجزاء السورة الواحدة متكاملة، مترابطة في سياقها، وأفكارها، إذ تشكل موضوعا مستقلا بذاته، مما يجعلها تفرض جواً خاصاً بها، ولا أدَلّ على ذلك من أنّ تَكرارَ القصة القرآنية في السور، الغاية منه أن تكون القصة في كل موضع شاهدة على فكرة، وعبرة معينة، تنسجم مع الموضوع الذي سيقت له السورة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، أنّ لتداخل السور المكية في السور المدنية غاية، يقصد منها مراعاة الوحدة الموضوعية للسورة الواحدة، لتتمحور حول فكرة مركزية، وكمثال على ذلك جاءت آية النفاق[3] من سورة العنكبوت المكية النزول، وكذا آخر آية من سورة المزمل مدنية، بينما السورة نفسها مكية.

ويذكر العلّامة الأستاذ محمد عبد الله درّاز فكرة النظرة الشمولية للسورة، ويعتبرها خطوة هامة في فهم السياق القرآني، فيقول: «إنّ السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقتضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه...، وعلى الباحث أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها، وضبط مقاصدها، على وجه يكون مِعْوَانًا له على السير في تلك التفاصيل»[4].

ويزيد الأمر وضوحا في مفهوم الوحدة الموضوعية، الدكتور رفعت فوزي عبد المطلب، حيث خصّ هذا الموضوع كتاباً سماه "الوحدة الموضوعية للسور القرآنية"، فيقول: «..فكثير من سور القرآن الكريم متعددة الموضوعات، وذلك يبدو من خلال النظرة الجزئية لكل موضوع في السورة هذه، لكنّ النظرة الفاحصة المتأملة للسورة ككل، تضع فكر القارئ للقرآن الكريم، أو التالي له عند موضوع واحد، تدور حوله السورة، وتتشكل موضوعاتها الجزئية بجوهر هذا الموضوع، وتسهم في جوانبه ومجالاته،

---

[1] – مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص28 .

[2] – مجموعة مقالات على الأنترنيت، د. عبد الحميد غانم، تاريخ التحديث: 16/ 02/ 2005م/ WWW.islam.ORG

[3] – سورة العنكبوت، الآيتان: 11/ 12، وهي من الموكد آياتان مدنيتان، لأن النفاق ظهر في المدينة بعد الهجرة.

[4] – النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص35.

ليؤدي كل منها إلى غاية واحدة، وهدف واحد، هي غاية هذا الموضوع الواحد، وهدفه الذي تنتظم حوله السورة القرآنية.

كما يسهب الدكتور عبد الجليل عبد الرحيم في هذا الموضوع فيقول في معرض كتابه "التفسير الموضوعي للقرآن الكريم في كفتي الميزان": «..والوحدة الموضوعية فيما هو متعارف عليه علميا وأدبيا في البحث والأدب، أن يكون النص الذي سيق لمعالجة قضية أو مسألة من المسائل مترابطا في جزئياته، متناسقا في أفكاره، لا يخرج عن فحوى هذه القضية أو الموضوع الذي يتناوله بما لا صلة له به من أفكار، وآراء لا تخدم هذا البحث، ولا تفيده» ثم يدقق الكلام، ويعتبر الوحدة الموضوعية لوناً من ألوان التفسير الموضوعي؛ الذي له قيمة علمية كبيرة، فيقول: «الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية: هو التفسير الذي يتوجه فيه المفسر إلى الكشف عن الموضوع الذي تعالجه السورة في ضوء معطيات اياتها المحكمة النسج والارتباط، بأسلوبها المتميز، وخصائصها المعجزة بلوغا إلى مقاصدها الهدائية» يتضح لنا من خلال هذا التعريف، أنّ غير المفسر الذي لم تتحقق فيه الشروط[1] التي وضعها العلماء، لا يحق له أن يُقْبِلَ ولا أن يتكلم فيه، خصوصا هذا النوع منه، لأنّه درجة متفوقة في التفسير التقليدي – التفسير التحليلي –، فغير العالم المتخصص في التفسير والذي هو على درجة كبيرة من الأهلية، قد يسيء في الوقت الذي يتصور فيه أنّه يحسن، وقد يؤوّل تأويلا أو يفسر تفسيرا، هو في صميمه تحريف للآيات، والمفردات القرآنية عن مواضعها.

المطلب الثاني: حقيقة الوحدة الموضوعية.

ممّا لا شك فيه أن أوجه إعجاز القرآن الكريم متعددة ومتنوعة، فكما أنه معجز ببيانه وأسلوبه،

---

[1] – وهي شروط المفسر الخمسة عشر: اللغة، والبيان، والصرف، والمعاني، والاشتقاق، والنحو، والبديع، والناسخ والمنسوخ، ومعرفة أسباب النزول، وعلم التاريخ، وأصول العقيدة، والفقه وأصوله، والقصص، أحاديث المجمل والمبهم، وعلم الموهبة. انظر: التفسير والمفسرون، حسين الذهبي، (مصدر سابق)، ج1، ص265.

وطريقة ترتيب آياته وسوره، وأحكامه وحكمه، فهو معجز أيضا في طريقة وأسلوب تناول وعرض القضايا التي يحتاجها الناس في حياتهم، وأنه معجز في إنبائه عن الماضي، وإخباره عن المستقبل، وعن الغيب، ومعجز في ترابط سوره، وآياته، ومعانيه، وفي ألفاظه وحروفه، ومعجز حتى في موسيقاه، فما يعطي عن كل موضوع صورة متكاملة تامة، على الرغم من معالجته في أكثر من موضع، وأكثر من سورة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[1].

وإنّ جمع القرآن الكريم لموضوعات عدة تصب في محور واحد، تؤدي إلى هدف واحد في سورة واحدة لأمر عجيب، ومعجز حقا، إذ هو يلائم بين موضوعات قد تبدو مختلفة، ولكنّها بصياغة خاصة تترابط في السورة، وبصياغة أخرى تترابط مع موضوعات أخرى في سورة أخرى، بحيث لا يستطيع بشر أن يفعل ذلك، وهذا واضح في القصص القرآني، إذ القصة الواحدة واردة في أكثر من سورة، ولكنّها تختلف في سورة منه عنها في أخرى - كما أسلفنا سابقا - لموضوع السورة العام، وغرضها الذي يؤدي إليه، وممّا يزيدنا يقينا أنّ القرآن من عند الإله الحكيم العليم، عندما نلاحظ أنّ موضوعات السورة الواحدة قد تباعد زمن نزولها[2]، وحينما يتأمل المتدبر في القرآن الكريم، يرى ذلك التناسق والترابط العميق بين آياته، تتجلى فيه عظمة الله تعالى وحكمته البالغة، وتتضح لنا حقيقة الوحدة الموضوعية، في أنها وجه من أوجه الترابط بين أجزاء وآيات السورة الواحدة، وتآلف معانيها، لتشكل موضوعا واحدا، هو موضوع السورة، ونوعا من أنواع المناسبات، كما جاء في كتاب "علم المناسبات في السور والآيات"[3] التي أعجزت أساطين العرب، واللغويين عن محاكاة هذا الكلام المترابط المتين، وهذا مما يؤكد أنّ القرآن ليس بكلام البشر، ويرد على الملحدين والمستشرقين وافتراءاتهم.

ويحدثنا الحجّة برهان الدين البقاعي عن هذا الترابط، وعلاقته بالوحدة الموضوعية في السورة القرآنية الواحدة، فيقول: «...فعلم مناسبات القرآن: علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المقال لمقتضى الحال، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة

---

[1] - سورة النساء، الآية 82 .

[2] - الوحدة الموضوعية، فوزي عبد المطلب، (مصدر سابق)، ص5.

[3] - علم المناسبات في السور والآيات، محمد بن عمر بن سالم بازمول، المكتبة المكية، الطبعة الأولى، سنة2002م، مكة المكرمة، ص28.

المطلوب ذلك فيه»[1].

ويقول أيضا في موضع آخر: «إنّ من عرف المراد من اسم السورة؛ عَرف مقصودها، ومن حقق المقصود منها عرف تناسب آيها وقصصها وجميع أجزائها ... فإنّ كل سورة لها مقصدا واحدا يُدار عليه أولها وآخرها، ويستدل عليه فيها، فتترتب المقدمات الدالة عليه على أكمل وجه، وأبدع منهج»[2].

وهذا من تمام إعجاز القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ويُعبّر السيوطي عن هذا المعنى بشكل دقيق للغاية بكلام يحتاج منا الوقوف عنده والتأمل فيه، فيقول: «ومعرفة الأمر الكلي المفيد لعرفان المناسبات، في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاجه ذلك الغرض من المقدمات، إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام، واللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف، إلى الوقوف عليها، وبهذا يتبين لك وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية في كل سورة»[3]، وهذا ما لا تقف عليه في كلام الناس، شعرا كان أو نثرا.

وإذا كان التفسير الموضوعي علما يتخذ الموضوعات الظاهرة أساسا من منهج القرآن وأسلوبه في معالجته لها، متخذا من القواعد، والشروط المرعية في التفسير سلما للوصول إلى هدي الكتاب، وجلال شأنه، كما يقول صاحب "كتاب التفسير الموضوعي في كفتي الميزان"، فإنّ هذا المعنى يتجلى خاصة في الوحدة الموضوعية، التي يعمد صاحبها إلى كشف الموضوع الأساسي للسورة.

وإذا كان التفسير الموضوعي منهجا يتخذه المفسر سبيلا للكشف عن مراد الله تعالى من خلال الموضوعات التي يطرحها، والقضايا التي يعالجها، توضيحا لهداية القرآن، وتجلية لوجوه إعجازه، فلا أدلّ ولا أجلّ من الوحدة الموضوعية للسورة عَلما على نجاعة هذا المنهج، في الوصول إلى تجلية المعنى، والوقوف على موضوعات القرآن وهداياته.

وإن كانت للوحدة الموضوعية علاقة بالنظم، والشكل البنيوي للقرآن الكريم، فإنّه لا يتم التحقق

---

[1] - مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، برهان الدين البقاعي، ج1، ص142، دار المعارف، تحقيق: عبد السميع محمد أحمد حسنين، سنة 2001م، الرياض، المملكة العربية السعودية.

[2] - المصدر نفسه، ص149.

[3] - الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ص697، دار الكتاب العربي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، سنة2004م، بيروت - لبنان.

من هذا الأمر، إلاّ بكشف براعة ذلك النظم، وتلك البنية الموضوعية، من خلال السورة الواحدة. التي يبدو أحيانا أنّ لها مقاصد شتى، ومعاني متعددة، وموضوعات مختلفة، لا يجمعها شيء. والحقيقة عكس ذلك تماما، إذ الناظر فيها، والمدقق لها يرى، تلك اللحمة من الأفكار — إن صاغ ذلك – وذلك التناسق في العبارات، والألفاظ، وذلك التوافق، والتناغم في الفواصل، والموسيقى من بداية السورة إلى نهايتها. وكيف يقلب العجز على الصدر، حتى تبدو لك تلك الأفكار والموضوعات ملتئمة متزاحمة تنسب جميعها في قالب واحد، يمثل موضوع السورة.

وإن كان للوحدة الموضوعية للسورة القرآنية كل ذلك القدر في التوصل إلى فهم القرآن فهما صحيحا، فإنّ لهذا المنهج في التفسير أهمية كبرى لا ينبغي الاستهانة بها، وذلك باتخاذ هذا المنهج طريقا لفهم المعنى الدقيق لسور القرآن في شكله الكلي، حيث يساعد هذا الفهم في وضع اليد على المعنى، والمقصد الذي ترمي إليه السورة، ولا يترك مجالا للتخبط والحيرة في ترجيح معنى على آخر، بل يكسب المفسر قناعة تامة في المعنى الذي يختاره، والذي يخدم مقصد السورة ككل، وسنعرج الآن على أهمية هذا المنهج في التفسير ومزاياه.

المطلب الثالث: أهمية الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية.

لقد اختلفت مناهج المفسرين في تناول كتاب الله تعالى، والكشف عن معانيه، وعلومه، وفنونه، وهداياته، ذلك أن عملية التفسير التي تعني الكشف عن مراد الله تعالى بقدر الإستطاعة البشرية، قد بدأت منذ صدر الإسلام، بإزالة الغموض عن ألفاظه، والإشكال عن معانيه، معتمدين في ذلك على التفسير بالمأثور، وعلى اللغة العربية التي توسع في هذه الأخيرة بعد ذلك كثير من العلماء، نتيجة دخول العجم في الإسلام، الأمر الذي جعل الناس يهتمون بالتفسير اللغوي، ثم توسع الناس بعد ذلك بما اقتضته الحاجة إلى التفسير، فظهرت اتجاهات ومناهج جديدة، حيث كان لكل عالم اتجاهه وميوله، ولكل منهجه وطريقته، حتى عجّت كتب التفسير بالقضايا الفكرية والفلسفية، وبالأحكام الفقهية، والآراء المذهبية، والنزاعات الطائفية، والنظريات العلمية...وقد احتاجت الدراسات القرآنية إلى مناهج جديدة في المجالات الاجتماعية، والسياسية، والتربوية، فكان التفسير الموضوعي رغم حداثته هو الخيار الطبيعي، والوجهة الجديدة التي انتهجها العلماء، وركّزوا عليها في هذه المرحلة، هذا فضلا عن توجههم إلى السور القرآنية يستعجلون مقاصدها، ويكشفون عن موضوعاتها وأساليبها التي تعالج بها القضايا

المتعددة التي تطرق بابها، مركزة على جانب الهداية القرآنية، مستجمعة لأهدافها، وغاياتها النبيلة[1]، كما أنّ هذا النمط من التفسير - الوحدة الموضوعية - هو أقرب لتحقيق الغاية التي نزل من أجلها الكتاب، تيسيرا للهداية، مع التركيز على المقصود دون تشتيت الذهن بمباحث جانبية، هذا مع ما هو معلوم من القضايا التي تناولها القرآن العظيم، هي القضايا التي شغلت البشرية وستظل تشغلها، ونجد نفسها عاجزة عن حل المشاكل التي تواجهها سواء كانت دينية، أو دنيوية بدون هداية القرآن.

وكما لا يخفى على أحد من المفسرين اليوم، أن منهج التفسير الموضوعي - الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية - بات من الأهمية بما كان، ولإعطاء هذه المصداقية لهذا المنهج، فإننا نشير إلى بعض فوائده تحديدا من الناحية العملية، فنقول:

أولا: من بين الفوائد التربوية لهذا المنهج، كون التنوع في معالجة الموضوع الواحد يناسب الفطرة الإنسانية، التي تتطلع وتطمح دائما للتنوع، وللجديد، فلا يتسرب إليها الملل، الذي يدخل إليها عندما يعالج موضوع ما باضطراد معين.

ثانيا: يساعد هذا التنوع في معالجة الموضوع الواحد على تثبيته في نفس التالي، أو السامع لكتاب الله عزّ وجل، أو المهتدي بهديه، إذ هو يوالي له إثبات هذا الموضوع من طرق عديدة، فكأنّه يكرر له هذا الموضوع دون تكرار، وإنما هو الترداد المستمر الذي يثبت القلب، ويغرس فيه موضوع السورة من موارد شتى، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[2].

ثالثا: يمكن أن نستنبط من خلال عرض القرآن لموضوع السورة، منهجا تربويا خالصا؛ إذ يشير في بداية السورة إلى الموضوع الذي يريد الحديث عنه، ثم يوالي إثباته بالموضوعات الجزئية، ثم يختم في النهاية بإثبات هذا الموضوع، وهو ما يشبه بعض الطرق التربوية في التعليم، حيث يعرض المدرس الموضوع في مقدمة عرضا عاما، يتحدث فيها عن محتوى المادة المُقدمة كفكرة عامة، ثم يجزئ هذا المحتوى إلى أفكار جزئية، وهذا ما يُعرف بتحليل المادة العلمية، مع التدليل على كل فكرة، ثم يخلص في الأخير لوضع خاتمة يؤكد فيها الموضوع الذي تناوله.

رابعا: كما أنّ هذه المعالجة للمواضيع تتلاءم مع استعدادات المؤمنين، على اختلاف قدراتهم، وثقافاتهم، ونسبة ذكائهم، ومعدل جهدهم، في فهم وتلقي هدايات القرآن الكريم، فبعضهم أسعد به

---

[1] - التفسير الموضوعي، عبد الجليل، (مصدر سابق)، ص39 .

[2] - سورة الفرقان، الآية 32.

من بعض، فقارئ جزء من القرآن تكون هدايته أقل ممن قرأ جزءا أكبر منه إن كان متساويان في [illegible] الفكرية والاستعدادات الفطرية، وبهذا يكون القرآن الكريم منبعا لا ينفذ، ومعدنا لا يصدأ، يأخذ من منه بما له من قوة وعزم.

خامسا: إنّ محاولة وضع اليد على موضوع السورة العام قبل الإقبال على تفسيرها، يعين ويساعد على الخوض في تفسير آياتها بما هو أعمق وأدق، لأنه مبني على ذلك الموضوع، فلا يتسرب إلى ذهن أحد أن مواضيع السورة مختلفة متنافرة، ولا أن قصصها مكررة مملة، وإنما يتخلل عقل المفسر يقين لما ذهب إليه من اختيارات، وترجيحات تخدم الموضوع العام للسورة.

سادسا: يُغطي جانبا من جوانب الإعجاز العلمي، ويرد على شبهات المستشرقين، وأتباعهم الذين أنكروا هذا التناسب، ودعوا إلى إعادة ترتيب القرآن وفق نزوله، كما سيأتي لاحقا.

سابعا: يعين على فهم القرآن، بتلك النظرة الكلية الشاملة، التي تعين على فهم المعنى من خلال معرفة سياق الآيات، ومقاصد السور، وأهدافها، وصلتها بالسياق القرآني العام.[1]

ويقول الدكتور عبد الله درّاز: «وبهذا تعرف مبلغ الخطأ الذي يتعرض له الناظرون في المناسبات بين الآيات، يعكفون على بحث تلك الصلات الجزئية بينها بنظر قريب إلى القضيتين أو القضايا المتجاورة، غاضين أبصارهم عن هذا النظام الكلي الذي وضعت عليه السورة في جملتها، فكم يجلب هذا النظر القاصر لصاحبه من جور على المقصد؟ وكم ينأى به عن أروع نواحي الجمال في النظم»[2].

ويضرب لنا الدكتور باقر الصدر مثالا حيا عمن أغفل النظرة العامة لمقصد السورة، وذهب يتتبع آياتها وألفاظها فيقول: «وهل يكون مثله إلا كمثل امرئ عرضت عليه حلة موشية دقيقة الوشي ليتأمل نقوشها، فجعل ينظر فيها خيطا خيطا ورقعة رقعة، لا يتجاوز بصره موضع كفّه، فلمّا رآها يتجاوز فيها الخيط الأبيض والخيط الأسود وخيوط أخرى مختلف ألوانها اختلافا قريبا أو بعيدا لم يجد فيها من حسن الجوار بين اللون واللون ما يروقه ويأنقه، لكنّه لو مدّ بصره أبعد من ذلك إلى طرائف من نقوشها لرأى من حسن التشاكل بين الجملة والجملة ما لم يره بين الواحد والواحد، ولتبين له من موقع

---

[1] – انظر: نظرية الوحدة الموضوعية للقرآن من خلال كتاب الأساس في التفسير، للشيخ سعيد حوى، تحقيق: أحمد بن محمد الشرقاوي، ص3، والوحدة الموضوعية، رفعت فوزي عبد المطلب، (مصدر سابق)، ص9-10، ومجلة الجامعة الإسلامية، مقالات عبد السلام حمدان، غزة، المجلد الثاني عشر، العدد الأول ذو القعدة 1424هـ/ كانون الثاني، 2004م، ومجلة كلية الشريعة وأصول الدين، أبها، العدد الثالث: 1403/ 1404هـ.

[2] – النبأ العظيم، عبد الله دراز، (مصدر سابق)، ص154.

كل لون في مجموعته بإزاء كل لون في المجموعة الأخرى ما لم يتبين له من قبل، حتى إذا ألقى على الجملة كلها نظرة جامعة تنتظم أطرافها، وأوساطها، بدا له من تناسق أشكالها، ودقة صنعتها ما هو أبهى وأبهر، فكذلك ينبغي أن يصنع الناظر في تدبره لنظم السورة من القرآن»[1]، ومن خلال عرضنا لأهمية هذا المنهج في التفسير ومزاياه، يتضح لنا مدى أهمية الموضوع، ومدى حاجتنا لفهم القرآن فهما جديدا معاصرا، ولهذا بات البحث في مناهج التفسير أمر ضروري، وأصبح التجديد فيها أمرا مهما، وهذا نظرا لطبيعة الحياة ومتغيراتها، حيث أنزل هذا القرآن لخدمة البشر في كل مكان وزمان، وهداية لهم.

المطلب الثالث: نشأة الوحدة الموضوعية وأقوال العلماء فيها.

إذا كانت الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية طريقة من طرق تناول التفسير الموضوعي الكشفي كما قررنا سابقا، وأنّ للوحدة الموضوعية علاقة مباشرة بعلم المناسبة في القرآن الكريم، فإن نشأتها تتزامن مع نشأة علم المناسبة، وتطورها مرهون بتطور التفسير الموضوعي الذي أصبح هو المنهج البديل في الأزمنة المتأخرة، ذلك أنّ القدامى لم يحددوا مصطلح الوحدة الموضوعية، ويعتبروها لونا مستقلا بذاته، بل تحدثوا عنها ضمنيا، عند كلامهم عن أنواع التناسب، وعن علم المناسبة، وأنّ المتأخرين فصّلوا بعض الشيء فيها، وحاولوا أن يضعوا اصطلاحات جديدة لكل نوع من أنواع التفسير الموضوعي، فوضعوا لذلك قواعد، وضوابط لكل لون من ألوان التفسير، ولكل نوع من أنواع التناسب.

هذا ما يجعلنا نرجع إلى أقوال السابقين نستلهم من خلال كلامهم حديثهم عن الوحدة الموضوعية، ولو لم تكن مستقلة كلون من التفسير كما أسلفنا، وإذا كان التفسير الموضوعي يتناول الآيات المتعلقة بالموضوع متفرقة متناثرة في القرآن الكريم كله، ويرتبها حسب النزول، ثم يفسرها ويحللها متبعا في ذلك خطوات معينة، فهو أيضا يتناول الموضوع في إطار السورة الواحدة، رغم أنه لا يزال منهج البحث فيه قائما، والخطة مرسومة في إطار السورة القرآنية بأسلوبها المعجز ووسائلها وأسباب هداياتها، وطرق معالجتها لموضوعها وقضاياها، وقد عزّ هذا الأخير على كثير من المفسرين والمتدبرين لكتاب الله، ذلك أنّ استخلاص موضوع واحد تدور حوله السورة يتطلب دقة في النظر وصبر وطول بحث.

يقول الدكتور عبد الجليل عبد الرحيم: «التفسير الموضوعي خارج نطاق السورة القرآنية كما وضحنا لم يعترضه أحد، بل وجدت الكل يحبذه، ويثني على منهجه في البحث، ويعقدون عليه الآمال

---

[1] - المصدر نفسه، ص155.

في نهضة حضارية قرآنية، يوجد فيها الحل لمشاكل، ومعضلات البشرية...»[1]، ثم يواصل ليحدثنا عن اختلاف الناس في اللون الآخر من التفسير الموضوعي، فيقول: «وهذا على خلاف الشق الثاني وهو: الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، حيث احتدم حولها الجدل، وثار النقاش للآراء المتعددة المطروحة حولها، نظرا لأنها أشد صلة وأقرب لُحْمَةً بالتفسير التقليدي، مما أثار حفيظة العديد من المفسرين والعلماء والباحثين»[2]، ويؤكد الدكتور مصطفى مسلم هذا الرأي، فيقول: «ولم يطفُ هذا اللون من التفسير الموضوعي بعناية المفسرين القدماء بل جاء في ثنايا تفاسيرهم الإشارة إلى بعض أهداف السور، وخاصة القصيرة منها، وكذلك التوخي لوجه المناسبة بين مقاطع بعض السور، كما فعل الفخر الرازي في تفسيره الكبير، وكما فعل البقاعي في نظم الدرر، وعبد الحميد الفراهي في كتابه نظام القرآن»[3]، بل إن الدكتور جمال العمري يذهب أبعد من ذلك؛ إذ يرى أن التفسير الموضوعي التجميعي لم تقم له قائمة من الناحية التفسيرية، لا قديما ولا حديثا، إلا نادرا، حيث يقول: «إن ذلك اللون من التفسير وجد ما يدانيه من علوم أخرى، إلّا أنه على النحو التفسيري لم يتم بنيانه، ولم تقم أركانه، ولم ينسج نحوه أحدا من العلماء السابقين، بل لم يتعرض له من اللاحقين إلا قليل»[4]، ولعل الدكتور قد وقع في وهم حينما يتحدث إلينا الآن عن أن بذور التفسير الموضوعي قد ظهرت في عهد النبيﷺ، وصحابته، أو ربما قصد التفسير من الناحية التفسيرية، حيث يقول عند كلامه عن نشأة التفسير الموضوعي بين الماضي والحاضر ما يلي: «تذكر لنا المصادر القديمة أنّ بدور من التفسير الموضوعي نبتت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعهد صحابته رضي الله عنهم»[5]، وضرب لذلك أمثلة من تفسير بعض الآيات التي استشكل معناها على الصحابةﷺ، فاستدل على معناها بآيات أخر، موجودة في سور أخرى في القرآن، كعدة الآيسة، وقضية الظلم، الذي فسّره رسول اللهﷺ بالشرك.

ثم وضع علي رضي الله عنه لبنة أخرى للتفسير الموضوعي، حيث كان يجمع الآيات في الموضوع الواحد يستخلص منها جميعا حكما صادقا يفسر فيه القرآن بعضه بعضا، من ذلك قصة مراجعته لعمر بن الخطاب، في إقامة حدّ الزنا على امرأة، وضعت بعد زواجها بستة أشهر.

---

[1] – التفسير الموضوعي في كفتي الميزان، (مصدر سابق)، ص51.

[2] – المصدر السابق، ص52.

[3] – مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، (مصدر سابق)، ص29.

[4] – دراسات في التفسير الموضوعي، أحمد جمال العمري، ص44، مطبعة المدني، الطبعة الأولى، 1986م، القاهرة.

[5] – المصدر السابق، ص51-52.

ثم مرت الأزمان وألّف الناس في موضوعات القرآن بين مُقِلٍ ومُكْثِرٍ، فألّفوا في الناسخ والمنسوخ، منهم قتادة بن دعامة السدوسي (118هـ)، وأبو عبيد القاسم بن سلام (224هـ)، وأبو جعفر النحاس (338هـ)، وألفّ أبو زكرياء الفراء(207هـ)، في معاني القرآن، وأبو بكر السجستاني (330هـ)، والراغب الأصبهاني(503هـ)، في غريب القرآن، وابن قتيبة(276هـ) في مشكل القرآن، وفي مجاز القرآن ألف أبو عبيدة (206هـ)، والشريف الرضي(406)هـ، كما ألف الجاحظ (255هـ)، والرماني(386هـ)، والخطابي(388هـ)، والباقلاني(403هـ)، والجرجاني(471هـ)، في إعجاز القرآن، وابن القيم(751هـ) في أقسام القرآن، وألفّ علي بن المديني(234هـ)، وأبو الحسن الواحدي (468هـ) في أسباب النزول،وكذلك السيوطي(911هـ)، وألفّ البقاعي(885هـ)، وابن الزبير(708هـ) في تناسب السور، وغير هؤلاء كثير، وقد فسّر ابن تيمية بمنهجه بعض سور القرآن، مبتدأ بسورة النور الشبيه بمنهج التفسير الموضوعي في إجماله، وأفرد سورة الإخلاص بتفسير، والمعوذتين بتفسير وهكذا، وكذا فعل تلميذه ابن القيم الجوزية، وقبلهم الراغب الأصفهاني، ولكنّ الغالب على التفسير قديما هو المنهج التحليلي.

ويشير الشيخ برهان الدين البقاعي عند حديثه عن علم المناسبات، وأهمية معرفة مقصد السورة، خاصة عند كلامه عن الآيات وترابطها في السورة الواحدة، حيث يقول: «علم تعرف منه علل الترتيب، وموضوعه أجزاء الشيء المطلوب، علم مناسبته من حيث الترتيب، وثمرته الإطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق، الذي هو كلحمة النسب...وهو سرّ البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير، نسبة علم البيان من النحو»[1] ونستشف من قوله هذا إشارات توحي بأنّ الشيخ يقصد هذه الوحدة الموضوعية، وإن لم يطلق عليها هذا الاسم، بل سمّاها "مقصود السورة" وهو نفسه موضوع السورة، حيث يقول: "وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها"، وهو ما نسميه نحن الوحدة الموضوعية، بل يرى أنّ الإجادة في علم التناسب تتوقف على معرفة هذا المقصود.

---

[1] – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، ج1، ص5، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1995م، بيروت – لبنان.

ريزيد هذه القضية توضيحا القاضي أبو بكر بن العربي[1]، فيقول: «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة، متسعة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة»[2]، وهو يتحدث عن موضوع السورة سواء من ناحية الشكل (النظم) أو الموضوعات (المعنى).

ونقل الزركشي[3]، عن العز بن عبد السلام أنه قال: «المناسبة علم حسن، لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام، أن يقع في أمر متحد، مرتبط أوله بآخره»[4]، ففي قوله أمر متحد، مرتبط أوله بآخره، إيحاء لموضوع واحد، تصب فيه أجزاء الكلام.

وتحدث الإمام الرازي عن مقصود سورة البقرة، عند تعرضه لتفسيرها، فقال: «ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضا معجز بسبب ترتيبه، ونظم آياته»[5]، ونستشف هذا أيضا من خلال تعرضه لتفسير بعض السور، حيث يورد كلاما يتحدث فيه عن مقصد السورة وموضوعها.

ويرى البقاعي أيضا أنّه من ضيّع هذا العلم من المفسرين والناظرين في القرآن الكريم، فقد فاته الخير الكثير، فلا يمكنه الوقوف على المقاصد، والمعاني العميقة، فيقول: «...وبذلك أيضا — أي بمعرفة أسباب الترتيب والتناسب - يوقف على الحق من معاني آيات حار فيها المفسرون لتضييع هذا الباب

---

[1] – هو محمد بن عبد الله بن أحمد الإمام أبو بكر بن العربي المعارفي الأندلسي الحافظ، ولد في شعبان، سنة468هـ، ورحل مع أبيه إلى المشرق، ودخل الشام، فتفقه على يد أبي بكر الطرطوشي، ولقي بها جماعة من العلماء والمحدثين، ودخل بغداد، فسمع بها من طراد الزينبي، ونصر بن البطر، وأخذ الأصلين عن أبي بكر الشاشي، والغزالي، والأدب عن أبي زكرياء التبريزي، صنف "التفسير"، و"أحكام القرآن"، و"شرح الموطإ"، و"شرح الترمذي"، وغير ذلك، وولي القضاء ببلده، مات في ربيع الآخر، سنة543هـ. انظر: طبقات المفسرين، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ص96، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن محمد العماد الحنبلي، ج4، ص263، ونفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني، ج2، ص274، وهي ترجمة مطولة.

[2] – الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، (مصدر سابق)، ص694.

[3] – هو الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي: ولد بالقاهرة سنة745هـ، وتوفي في رجب، سنة794هـ، من مؤلفاته: "البرهان في علوم القرآن"، و"الإحاطة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة"، و"البحر المحيط" في أصول الفقه...الخ. انظر: البرهان، ج1، ص9، والأعلام، خير الدين الزركلي، (مصدر سابق)، ج6، ص237.

[4] – البرهان في علوم القرآن، الزركشي، (مصدر سابق)، ج1، ص37.

[5] – المصدر نفسه، ص694 .

من غير ارتياب»[1]، ويرى أن معرفتك مقصود السورة يطلعك على أسرار تكرار القصة الواحدة في عدة سور، فيقول: «...وينكشف لك غامض معناه، ويتبين لك أسرار القصص المكررات، وأن كل سورة أعيدت فيها قصة، فَلِمَعْنًى أُدعِيَ في تلك السورة، استدل عليه بتلك القصة، غير المعنى الذي سيقت له في السورة السابقة، ولهذا اختلفت الألفاظ، وتغيرت النظوم، بالتأخير، والتقديم، والإيجاز، والتطويل..»[2]

فورود القصة في تلك السورة إذًا، يخدم جانبا من موضوعها، الذي سيقت له، دون أن يخل بالمعنى الأصلي للقصة نفسها، وهذا من تمام إعجاز القرآن، الذي نكشف عليه بتطبيقنا لمنهج التفسير الموضوعي.

ويحدثنا عبد الله دراز عن الأئمة قديما، إذ أشاروا إلى مقصد السورة، فيقول: «قال الأئمة[3]: إن السورة مهما تعددت قضاياها، فهي كلام واحد، يتعلق أوله بآخره، وآخره بأوله، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، وإنه لا غنى لمتفهم نظم السورة، عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية»[4]، وهذا الكلام الذي قاله هنا، هو في الحقيقة مستنبط من كلام الشاطبي في الموافقات، في المسألة الثالثة عشر، وقد عرض فيها سورة المؤمنون عرضا إجماليا.

وفي العصر الحديث تقاعست الهمم، وقلت الجهود في هذا المجال، حتى جاء عصر النهضة أين تحركت العزائم، وأُوقضت الهمم، «وظهرت آثار أخرى في الاتجاه التفسيري، نشأت عن عوامل مختلفة أهمها التوسع العلمي وانتشار الثقافة واتساع الحضارة»[5] مثل التفسير العلمي، والتفسير الأدبي والاجتماعي، والتفسير الموضوعي، وتطور هذا الأخير في العصر الحديث ومع بداية القرن التاسع عشر الميلادي، وبداية القرن العشرين على يد الشيخ محمد عبده الذي سار على خطى ابن تيمية في فهم القرآن الكريم، وعرض لنا تفسيرا دقيقا للجزء الثلاثين من القرآن[6] أخلاه ونقّاه من كل شوائب العقيدة

---

[1] – نظم الدرر، البقاعي، (مصدر سابق)، ج1 ص8.

[2] – المصدر السابق، ج1، ص9.

[3] – مثل أبي بكر النيسابوري، وفخر الدين الرازي، وابن العربي، والبقاعي، والشاطبي...وغيرهم .

[4] – النبأ العظيم، عبد الله درّاز، (مصدر سابق)، ص155.

[5] – التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ج2، ص445، دار الكتب الحديثية، الطبعة الثانية، 1976م/ 1396هـ.

[6] – فسَّر جزء عم.

والإسرائيليات واستخدم فيه الفكر الحر في فهم معانيه، وقد دعمّ في تفسيره هذا فكرة وحدة السياق في السورة الواحدة، وأنّ المدار على عموم اللفظ لا على خصوص السبب[1] وسار على نفس النهج علماءُ ومُجددون أمثال: سيد قطب، والشيخ أمين الخولي، وعائشة عبد الرحمن، والدكتور شوقي ضيف، ومحمد خلف الله أحمد...، وغيرهم، فأمَّا سيد قطب فخير شاهد على ما قدَّم تفسيره الظلال، ومحمد خلف انتهج هذا المنهج في تفسير سورة الرعد، وشوقي ضيف فسر سورة الرحمن، وقصار السور، وعبد الله درَّاز عمل على سورة البقرة، وبنت الشاطئ في تفسيرها البياني.

ومن المتأخرين أيضا من يرى أن التفسير الموضوعي لا يقتصر إلا على التفسير الموضوعي للموضوع القرآني، دون أن يشير إلى ألوانه الأخرى، منهم فضيلة الشيخ أحمد السيد الكومي الذي كتب "التفسير الموضوعي للقرآن الكريم"، والأستاذ عبد الحي الفرماوي، في كتابه"البداية في التفسير الموضوعي" حيث لخصّ هذا الأخير سبع نقاط حول هذا المنهج، إلاّ أنه أشار أيضا إلى الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، ولكنه لم يضع منهجية لها، وله كتابا أيضا اسمه "المدخل في التفسير الموضوعي".

كما جاء الدكتور عبد الستار سعيد، فجعل المبحث السادس من كتابه "منهج البحث في التفسير الموضوعي" للمنهج، فذكر فيه ثمان خطوات إجمالا، ثم عاد إليها بالتفصيل، لبيان المراد بكل خطوة، إلاّ انه نحى نفس المنحى، و لم يعط للوحدة الموضوعية اهتماما، بله ينفي صراحة الألوان الأخرى للتفسير، حيث يقول: «...وكذلك يتجنب المفسر الكتابة تحت هذا العنوان فيما يسمى بـ "النظام القرآني" أو "الوحدة الموضوعية في سور القرآن" أو التفسير الموضوعي بمعناه العام كالنسخ في القرآن ونحوه، أو علم المناسبات، لأن هذه الجوانب مع جلالتها وأهميتها خارجة عن مصطلح التفسير الموضوعي بمعناه الجديد المقيد بمعناه الخاص على ما بيناه سابقا»[2]، لكنه يرى إلاّ أن تقوم للوحدة الموضوعية خطّة مضبوطة، وقواعد محكمة، فإنها تبقى من الدراسات القرآنية، وليست من التفسير الموضوعي.

وعلى الرغم من جلالة هؤلاء العلماء، وقدرهم، فإن نظرهم لهذا المنهج، لا تزال قاصرة، عما رآه كثير من علماء عصرهم، لا سيما أنهم يتحدثون عن أصول هذا العلم من الناحية النظرية، ولو أنهم طبقوا بعضا من هذه المناهج في تفسيراتهم، كما فعل بعض الذين ردوا عليهم، لوجدوا نتائج مرضية

---

[1] – دراسات في التفسير الموضوعي، أحمد العمري، (مصدر سابق)، ص57 بتصرف.

[2] – مجلة جامعة غزة، عبد السلام حمدون اللوح، (مرجع سابق)، صمج12، ص57.

وللتمسوا فيه الخير الكثير، كما يحدثنا عن ذلك الأستاذ عبد السلام حمدان اللوح، الذي كتب مقالا يتحدث فيه عن تطور هذا اللون من التفسير الموضوعي، وضعف رأي الفرماوي، والكومي، وعبد الستار سعيد فيقول: «ومما يؤكد ضعف ما ذهب إليه الفرماوي وعبد الستار سعيد من قصر التفسير الموضوعي على لون واحد فقط دون سواه، وبالذات ما يتعلق بالوحدة الموضوعية، أننا نجد إنجازات لعلماء أفاضل قاموا بالبحث التطبيقي للتفسير الموضوعي حول السورة القرآنية، مثل ما كتب الشيخ محمد الغزالي تحت عنوان "نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم" حيث أنجز الأجزاء العشرة الأولى، ويقول في مقدمته: «..والهدف الذي سعيتُ إليه أن أقدّم تفسيرا موضوعيا لكل سورة من الكتاب العزيز ... لقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع في السورة، وإن كثُرت قضاياها، وتأسّيْتُ في ذلك بالشيخ محمد عبد الله دراز عندما تناول سورة البقرة ...فجعل منها باقة واحدة ملونة نضيدة يعرف ذلك من قرأ كتابه "النبأ العظيم"»[1]

وقد كتب الدكتور عبد الله درّاز حول الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، تحت عنوان: "الكثرة، والوحدة"، أي كثرة في قضايا السورة، ووحدة في موضوعها، ومحورها، وقد كان ذلك بمثابة حجر الأساس للتفسير الموضوعي، في السورة القرآنية.

ووضع الدكتور مصطفى مسلم كتابه: "مباحث في التفسير الموضوعي" جعل لوحدة الموضوع مبحثًا خاصًا، فصّل فيه منهجية هذا اللون، وربما لا أكون مخطئا، لو قلت أنه أول من وضع منهجا متكاملا للبحث في موضوع السورة، وقد تحدث عن ثلاثة ألوان للتفسير الموضوعي[2]، ولكنه لم يضع منهجية حول اللفظة القرآنية، ولكّنه أعطى للسورة القرآنية منهجية، فوضع لها أربع خطوات أساسية موجزة، ثم عاد إليها بالتفصيل، خاصة فيما يتعلق بتحديد محور السورة، وكيف يمكن التعرف عليه، من خلال عدة أمور، ثم تحدث عن الهدف في السور القصيرة، والسور الطويلة، وكذلك الإطناب والإيجاز في قضايا عرضتها السورة[3].

أمّا الدكتور صلاح الخالدي فقد ذكر في كتابه "التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق" ثلاثة ألوان من التفسير الموضوعي وهي: المصطلح القرآني، والموضوع القرآني، والسورة القرآنية، ووضع

---

[1] – مجلة غزة، عبد السلام حمدون، (مصدر سابق)، ص68، وكتاب الغزالي نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم، المقدمة.

[2] – التفسير الموضوعي للفظة القرآنية – للموضوع القرآني – للسورة القرآنية.

[3] – مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص40، دار القلم، الطبعة الأولى، 1989م، دمشق.

وصفا كاملا لكل لون من هذه الألوان بما يوضحها ويحدد معالمها[1].

وبهذا ندرك كيف نشأت وتطورت ألوان التفسير الموضوعي، ولا سيما الوحدة الموضوعية، ومنهجية البحث فيها من حال إلى حال، ومن ضعف إلى قوة، ومن قلة إلى كثرة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] – التفسير بين النظرية والتطبيق، الخالدي، (مصدر سابق)، ص52.

الفصـــل الثاني

الدراسة الخارجية للسورة

جامعة الأميين - الغار للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: تعريفات عامة.

ويشمل تعريفات عامة، وفيه ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: تعريف القرآن.

1- تعريف القرآن لغة:

تعددت تعاريف العلماء للقرآن الكريم من حيث اللغة والاشتقاق، فمنهم من يرى أن القرآن مصدر قرأ يقرأ، كالشكران مصدر شكر، وكالغفران مصدر غفر[1]، وهو من باب فَتَحَ، يَفْتَحُ، بفتح العين في الماضي، والمضارع، و"قرأ": له مصدران مشهوران هما: (قراءة، وقرآنا)، ونقل له ابن منظور، مصدرا ثالثا، وهو (قرء)[2]، ومنهم من يرى أنّه مصدر مرادف للقراءة، استنادا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[3]، وبذلك فإن القرآن مهموز أي يقرأ بالهمز، وذهب آخرون إلى أنّه مأخوذ من القرء، بفتح القاف، وهو يعني الجمع، كقولنا قرأ الماء في الحوض، أي جمعه فيه، ومنه جاءت كلمة القرية، وهي المكان الذي يجتمع فيه السكان. وقيل أنه مشتق من الاقتران، لاقتران سوره بعضها ببعض[4]، وعليه فإن لفظة القرآن الغير مهموزة، هو إمّا من الاقتران أو القرائن، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[5]، ويبدو أن الراجح من الأقوال هو اللفظ المهموز من القرآن، وذلك استنادا للآيتين الكريمتين[6] (من سورة القيامة)، وقد بلغ عدد أقوال العلماء فيه خمسة أقوال حيث جاء في كتاب "بصائر ذوي التمييز" للفيروز آبادي[7] قوله: «...وأما القرآن فاسم لما يقرأ، كالقربان، اسم لما يتقرب به إلى الله، ويقال أيضا إنه مصدر قرأ يقرأ (قرأ وقراءة وقرآنا...).

---

[1] - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، دار القلم، (د ت)، مادة قرأ.

[2] - لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، (مصدر سابق)، ج4، ص309.

[3] - سورة القيامة، الآيتان 17/ 18.

4 - انظر: دراسات في علوم القرآن، أمير عبد العزيز، ص8 و9، الطبعة الثانية، دار الشهاب، الجزائر 1988م.
وهدى الفرقان في علوم القرآن، غازي عنالآية، ج1، ص20، دار الشهاب، باتنة، 1988م.
والبيان في علوم القرآن، محمد الصالح الصديق، ص37، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1999م.

[5] - سورة الزخرف، الآية 36.

[6] - سورة القيامة، الآيتان 17/ 18.

[7] - هو العلاّمة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: ولد بفارس سنة656هـ، في عمر سقوط بغداد، من مؤلفاته: "بصائر ذوي التمييز"، و"القاموس المحيط"، و"الدرر المنبث في الغرر المثلث"، وغيرها. توفي سنة817هـ عن عمر يناهز التسعين سنة، انظر مقدمة كتابه: "القاموس المحيط"، و الأعلام، لخير الدين الزركلي، ج7، ص146.

وفيه لغتان: الهمز وتركه، فالمهموز من القرأ بالفتح والضم بمعنى الحيض والطهر، سمي به لاجتماع الدم فيه، والقرآن سمي به لاحتماع الحروف والكلمات، ولأنّه مجتمع الأحكام، والحقائق، والمعاني، والحكم، وقيل اسْتِقَائُهُ من القري، بمعنى الضيافة لأنّ القرآن مأدبة الله للمؤمنين.

واللغة الأخرى: بغير همز مشتق من القرين، لأنّه لفظ فصيح بالمعنى البديع، وقيل أنه مرتجل موضوع غير مشتق على قياس الجلالة في الأسماء الحسنى»[1]، وإطلاق لفظ: (القرآن) على كتاب الله أمر توقيفي، لأن الله هو الذي سمّاه بذلك في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[2]، ولذلك صار علما بالغلبة[3]، ولأجل هذه العلمية انتقل لفظ (القرآن) من المصدرية إلى الاسمية[4]، كما قال الشافعي[5]، في رواية البيهقي[6]، التي نقلها السيوطي[7]، وقد ورد استعماله في المعنى المصدري في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[8]، أي قراءته[9]، وللفعل قرأ في اللغة عدة معاني[10]، وما يناسب القرآن، منها اثنان:

---

[1] – بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: محمد علي النجار، ج1، ص84، طبعة المكتبة العلمية، بيروت – لبنان.

[2] – سورة الإسراء، الآية 9.

[3] – النبأ العظيم، محمد عبد الله درّاز، (مصدر سابق)، ص12.

[4] – المصباح المنير، أحمد بن محمد الفيومي، (مصدر سابق)، لفظ: قرأ.

[5] – هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع القرشي المطلبي المتوفي سنة204هـ، انظر: طبقات الشافعية، عبد الرحيم الأسنوي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ج1، ص11، دار الكتب العلمية، 1987م، بيروت – لبنان، والأعلام للزركلي، (مصدر سابق)، ج1، ص113.

[6] – هو أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى أبو بكر البيهقي: له تصانيف كثيرة، ولد سنة384هـ، وكان أوحد أهل زمانه في الإتقان والحفظ، والفقه، كان محدثا، فقيها، أصوليا، أخذ العلم عن الحاكم أبي عبد الله النيسابوري، ألّف "السنن الكبرى"، و"نصوص الشافعي" في عشر مجلدات، و"السنن الصغير"، و"الآثار"، و"المدخل"، و"الآداب"، و"شعب الإيمان"، و"الخلافيات"، و"دلائل النبوة"، توفي بنيسابور، ونقل تابوته إلى بيهق في جمادي الأولى. انظر: البدالآيةوالنهالآية، ابن كثير، ج12، ص94.

[7] – هو أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الحضرمي السيوطي: المتوفى سنة911هـ، انظر: الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة، نجم الدين الغزي، تحقيق: جبرائيل سليمان جبور، ج1، ص230، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثانية، 1979م، بيروت.

[8] – سورة القيامة، الآيتان17/ 18

[9] – لسان العرب، (مصدر سابق) مادة: قرأ، والنبأ العظيم، (مصدر سابق)، ص12.

[10] – القاموس المحيط، الفيروز آبادي، (مصدر سابق)، مادة: قرأ

الأول: تلا ونطق[1]، ويقال قرأ القرآن إذا تلاه ونطق بما فيه، ويطلق هذا المعنى أيضا على مجرد النظر إلى القرآن دون النطق به، ولفظ القرآن بهذا المعنى يكون من قبيل المصدر الذي حل محل اسم المفعول، فقرآن بمعنى مقروء[2]

الثاني: ضم وجمع[3]، تقول قرأت الشيء قرآنا إذا ضممت وجمعت بعضه إلى بعض على وفق ترتيب معين، والقرآن، مضموم بعضه إلى بعض ومجموعة هي سوره واحدة تلو الأخرى بترتيب وتنسيق، وإلى ذلك ذهب أبو عبيدة[4] والأشعري[5]، وقد سمي القرآن بجملة من الأسماء نحو: الفرقان، الكتاب، الذكر، التنزيل، وغيرها، وكل منها له مستند من القرآن الكريم نفسه.

1- تعريف القرآن اصطلاحا:

لقد تعددت أوجه تعاريف العلماء للقرآن من ناحية الاصطلاح؛ وإن كانت قريبة بعضها من بعض، بل وتكمل بعضها بعضا، ولعلّ أشمل تعريف للقرآن ها هنا، هو: "أنّ القرآن كلام الله المعجز المنزل على النبي محمدﷺ، بواسطة جبريل عليه السلام، المكتوب في المصاحف، الذي وصل إلينا بالتواتر، والمتعبد بتلاوته[6]، وأحكامه[7]"، حيث يتسم هذا التعريف بالشمولية، والدقة، وتدخل تحته كل حقيقة لمفهوم الكتاب الحكيم، وهذا التعريف عند الأصوليين، والفقهاء، ونسب أيضا إلى اللغويين، ونقل أيضا عن المتكلمين[8].

ويقول السعدي: «أن سبب إجماع الأصوليين والفقهاء واللغويين على هذا التعريف ناتج عن إسهام كل فريق منهم في وضع ما يناسب علمه فيه»[9]، وهذا ظاهر من خلال كلام الزرقاني، ذلك أنّ

---

[1] – المصدر نفسه، مادة: قرأ

[2] – اللسان، (مصدر سابق)، مادة: ق ر ء

[3] – علم المناسبات في السور والآيات، محمد بن عمر بن سالم بازمول، (مصدر سابق)، ص29.

[4] – هو معمر بن المثنى التيمي البصري النحوي المتوفى سنة219هـ بالبصرة، وفيات الأعيان، ابن خلكان، (مصدر سابق)، ج5، ص235، وطبقات النحويين، للزبيدي (مصدر سابق)، ص175.

[5] – هو موسى بن عبد الله بن قيس الأشعري: المتوفى سنة50هـ، تهذيب التهذيب، الذهبي، (مصدر سابق)، ج5، ص362.

[6] – مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر، الطبعة الثالثة، د.ت، ج1، ص19.

[7] – دراسات في علوم القرآن، أمير عبد العزيز، (مصدر سابق)، ص10.

[8] – مناهل العرفان، عبد العظيم الزرقاني، (مصدر سابق)، ج1، ص20.

[9] – أثر الدلالة النحوية واللغوية في استنباط الأحكام من آيات القرآن، عبد القادر عبد الرحمن السعدي، ص15، دار عمار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1421هـ/ 2000م، عمّان – الأردن.

الأصوليين، والمحدثين اهتموا بجانب التواتر، والفقهاء باستنباط أحكامه، والعمل بها، وأهل اللغة نظروا إليه من زاوية إعجازه...وهكذا.

إلاّ أن هناك تعاريف أخرى ربما هي أقرب إلى التعريف الأول منها: «أن القرآن كلام الله العربي الموحى به، والمنزل على الرسولﷺ، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المعجز المتحدى به، وبأقصر سورة منه»[1].

ومنها: «هو كلام الله المعجز، المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين، بواسطة جبريل، عليه السلام المكتوب في المصاحف، المحفوظ في الصدور، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس»[2]

فيخرج بقوله: "كلام الله" كل كلام لغير الله تعالى، مثل كلام البشر، والملائكة، والجان، وجميع المخلوقات، وخرج بقوله: "المعجز" كل كلام غير معجز كالحديث القدسي؛ وإن كان معناه من الله واللفظ من الرسول، وخرج بقوله: "المنزل" الكلام الغير منزل، كالكلام الذي يخاطب الله به ملائكته وما كتب في اللوح المحفوظ، وما خاطب الله به بعض أنبيائه في السماء، ويخرج أيضا بقوله: "على سيدنا محمد" كل كلام أنزل على موسى، وعيسى، والنبيئون، كالتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، وخرج بقوله: "الموحى به" كل كلام جاء على غير طرق الوحي المعروفة، وهي المستنبطة من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّه عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[3]، فخرجت الرؤيا بذلك، ويخرج بقوله: "المكتوب في المصاحف" والمقصود العثمانية منها، كل ما لا يثبت فيها كالقرآن المنسوخ لفظا، نحو آية الرجم وآية الرضاع...، ويخرج بقوله: "المنقول إلينا بالتواتر" كل قراءة لم يتحقق فيها شرط التواتر، ولو صحت سندا، فيخرج بذلك الشاذ والمعلول والآحاد...والله أعلم.

وقد وصف الله تعالى هذا القرآن بأنه نور وهدى، ورحمة وشفاء، وكريم، ومبين، وموعظة، وبشير، ونذير...الخ.

---

[1] – هدى الفرقان، غازي عناية، (مصدر سابق) ج1، ص20.

[2] – التعبير الفني في القرآن، الدكتور بكري الشيخ أمين، ص16، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، يوليو/ 1994م، بيروت – لبنان.

[3] – سورة الشورى، الآية 51.

المطلب الثاني: تعريف السورة.

1- تعريف السورة لغة:

السورة تُهمز ولا تُهمز، فمن همزها جعلها من أسأرت، أي أفضلت من السؤر، وهو ما بقي من الشراب في الإناء، كأنها قطعة من القرآن، ومن لم يهمزها، جعلها من المعنى المتقدم، وسهل همزها.

ومنهم من يشبهها بسور البناء - أي القطعة منه - أي منزلة بعد منزلة، وقيل مر سور المدينة لإحاطتها، واجتماعها، كاجتماع البيوت، ومنه أساور لإحاطته بالساعد، وقيل لارتفاعها، لأنها كلام الله، والسورة المنزلة الرفيعة[1].

وقال الفيروزآبادي: «...وأما "سورة" بغير همز فبتغييره من سوْرَة الأسد، وسَوْرَةُ الشراب، بمعنى القوة، لأنّ قوة السورة، أكثر من قوة الآية، أو من السورة بمعنى الجماعة، ويقال لفلان سور من الإبل. يعني جماعة منها، لأن السورة مشتملة على جماعات الآيات أو من السورة المحيطة بالأبنية، لأن السورة محيطة بالآيات، والكلمات بالحروف...وإذا قلت بالهمز فيكون من سؤر الكأس، أي ما يبقى من الشراب، لأن كل سورة من القرآن بقية منه»[2]، ورجل سوار يعني معربد، لأنه يعلى بفعله ويشتط، ويعني بها الرقعة، قال النابغة الدبياني[3]:

ألم تر أنّ الله أعطاك سورة ** .....[4]

ويقال أيضا أصلها من السورة وهي الوثبة، تقول سُرت إليه وثُرت إليه، وقيل بمعنى العلو، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾[5] أي نزلوا عليه من علو، فسميت القراءة به لِتَرَكُّبِ بَعْضِهَا بَعْضًا[6].

---

[1] - الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، (مصدر سابق)، ص139-140.

[2] - بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، (مصدر سابق)، ج1، ص85، والقاموس المحيط، الفيروز آبادي، تحقيق مكتبة التراث، ص411، مؤسسة الرسالة، طبعة: 2003م، 1424هـ، بيروت.

[3] - هو زياد بن معاوية بن ضباب الغطفاني المقري بن أمامة، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، له قصيدة من المعلقات، ومطلعها:

يا دار ميَّة بالعلياء فالسند** أقْوَتْ وطال عليها سالف الأبد.

توفي سنة18ق.هـ/ 605م، انظر: الأعلام للزركلي، ج3، ص54.

[4] - صدر من بيت عجزه: ..... *** ترى كل ملك دونها يتذبذب.

والبيت من قصيدة له يمدح فيها النعمان بن المنذر.

[5] - سورة ص، الآية 21.

[6] - البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ج1، ص264، دار النشر بيروت.

وقيل أنها من أصل (صورت) السرياني، تسربت إلى العرب الحجازيين عن طريق [illegible] لسان العرب لابن منظور: السورة هي كل منزلة من البناء، ومنه سورة القرآن الكريم لأنها منزلة مقطوعة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى[2]، والسورة من القرآن يجوز أن تكون من سؤرة الماء، وتهمز لما كثر في الكلام.[3]

2- السورة إصطلاحا:

قال الجعبري[4]: «حدّ السورة قرآن يشتمل على آي ذوات فاتحة تنبيها على أن الطول ليس شرطا من شروط الإعجاز، ثم ظهرت محكمة في التعليم، وتدرج للأطفال من السور القصار إلى ما فوقها [illegible] يسيرا، تيسيرا من الله لعباده لحفظ كتابه...»[5]، فالسورة مجموعة من الآيات مُتَرَاكِبَةٌ بعضها تلو [illegible] لها فواصل معينة، تتناسق حسب كل سورة وحسب كل مقطع، يفصل بين كل سورة وأ[illegible] بالبسملة حتى تعلم بدايتها ونهايتها.

ولكل سورة من القرآن اسم خاص بها، وتسمى حسب سبب معين، وبصورة معينة:

- إما أن تسمى بأول كلمة فيها مثل: سورة طه، ويس، وص، الصافات، الفجر، الضحى، الليل،...الخ.

- وإما أن تسمى باسم شيء أو لفظ له ذكر في أثنائها بعد أوائل آياتها، نحو: سورة البقرة، والكهف ومريم، وإبراهيم....الخ.

- وإمّا تسمى بلفظ له منطوق في أوائل آياتها كسورة الإسراء، والأنفال، وغافر، وفصلت....الخ.

- وإمّا أن تسمى بمعنى خاص ملحوظ فيها من غير أن يكون له ملفوظ مذكور في آياتها مثل: الفاتحة، سميت بذلك لأنه افتتح بها الكتاب، وسورة الإخلاص لأنّ جملتها داعية إلى الإخلاص لله [illegible]

---

[1] - البيان في علوم القرآن، محمد الصديق، (مصدر سابق)، ص136.

[2] - لسان العرب، ابن منظور، (مصدر سابق)، ج4، ص393.

[3] - القاموس المحيط، الفيروز آبادي، (مصدر سابق)، ص411 .

[4] - هو الشرف يعقوب بن فارس الجعبري الشافعي، وُلد بحوران سنة653هـ، وقدم دمشق، واشتغل على الشيخ تاج [illegible] الفزاري، ولازمه وانتفع به، كان بارعا في الفقه والنحو، وكان يعتكف شهر رمضان، ولم يتزوج قط، وكان حسن الهيئة [illegible] حسن العيش والملبس، سمع المسند للإمام أحمد، توفي بالمدرسة المجاهدية، ولما كانت إقامته، ليلة الثلاثاء 21 ذي الحج، وصلي عليه بعد صلاة الظهر، ودفن بمقابر دار الصغيرة. انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، (مصدر سابق)، ج14، ص127.

[5] - انظر: البرهان، الزركشي، (مصدر سابق)، ج1، ص264، ومجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: محمد [illegible] سزكين، الجزء الأول: ص3، مكتبة الخانجي، دون طبعة، دون تاريخ، القاهرة.

- وإما أن تسمى باسماء مواضيعها، كسورة الطلاق، والتحريم...الخ.

وبلغ عدد السور في المصحف المدني: أربع مائة وعشرة سورة، كما قد عني العلماء بقضية السور، ونزولها، وترتيبها، ومكيها، ومدنيها، وما نزل في الأرض، وما نزل بين السماء والأرض ..حتى بلغت ثلاثة وعشرين وجها، فرحمهم الله، وجزاهم عن القرآن خير جزاء[1].

ثالثا: تعريف الآية:

1- تعريف الآية لغة:

أصلها أيية على فعلة عند سيبويه[2]، وآية على مثال فاعلة عند الكسائي[3]، وأيّة على وزن فعلة عند بعض، وأيّة عند الفرّاء[4]، وتعني العجب والعلامة، وبمعنى الجماعة، وسميت آية القرآن لأنها علامة دالة على ما تضمنه من الأحكام، وعلامة دالة على انقطاعه عما بعده وعما قبله، أو لأن فيها عجائب من القصص والأمثال والتفصيل، ولأن كل آية جماعة من الحروف وكلام متصل المعنى إلى أن ينقطع. وينفرد بإفادة المعنى، والعرب تقول: خرج القوم بآياهم أي بجماعتهم، وقال الشاعر:

---

[1] - راجع: الإتقان، السيوطي، الفهرست، والبيان، صالح محمد الصديق، (مرجع سابق) ص36-37.

[2] - هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، وسيبويه لقبه الذي به اشتهر، حتى طغى على اسمه وكنيته، وهي كلمة فارسية تعني رائحة التفاح، وهو إمام النحاة، صاحب كتاب العربية الأشهر، فارسي الأصل، ولد سنة140هـ/ 756م، في مدينة البيضاء ببلاد فارس، على بعد ثمانية فراسخ من شيراز، رحل إلى البصرة فأصابه المرض بها فمات في الأربعين من عمره في طريقه إلى خراسان، سنة180هـ/ 794م. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج6، ص238/ 239، ومعجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ج2، ص584، مؤسسة الرسالة، (دون طبعة)، (دون تاريخ).

[3] - هو أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الأسدي مولاهم الكوفي الملقب بالكسائي، لكساء أحرم فيه، شيخ القراءة والعربية، تلا عن أبي ليلة، وعلى حمزة...، وحدث عن جعفر الصادق، والأعمش وسليمان بن أرقم، واختار قراءة اشتهرت، وصارت إحدى السبع..، وجالس في النحو الخليل بن أحمد الفراهيدي، له عدة تصانيف منها: "معاني القرآن" و "مختصر في النحو والقراءات"، مات بالري، بقرية أرنوبة، سنة189هـ، عن عمر 70سنة. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، دار الفكر، ج6، ص118.

[4] - هو يحي بن زياد الأقطع من مشاهير اللغويين والنحويين، وهو تلميذ الكسائي، ومعلما لأبناء هارون الرشيد من بعده، وهو إيراني، وكان أبوه زياد الأقطع في وقعة فخ، مع شهيد فخ الحسين بن علي بن الحسن المثنى، فقطعت يده عقوبة له، ولذلك عرف بالأقطع، مات الفراء عام207هـ. انظر: وفيات الأعيان، ج2، ص228، والأعلام للزركلي، ج8، ص145/ 146. والشبكة الإسلامية، مشاهير اللغة العربية، www.islamweb.net، تاريخ التحديث: 28/ 02/ 2006م.

خرجنا من النقبين لا حي مثلنا	*******	بآياتنا نزجي الطير نخف[1]

وقال في معنى العلامة:

إذا طلعت شمس النهار فسلمي	*******	فآية تسليمي عليك طلوعها[2]

وتطلق الآية ويراد بها أيضا:

- المعجزة: قال تعالى: ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ﴾[3]
- العلامة: قال تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾[4]
- العبرة: قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذلك لآية...﴾[5]
- الأمر العجيب: قال تعالى: ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾[6]
- البرهان والدليل: قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاْخْتِلاَفِ أَلْسِنَتِكُمْ..﴾[7]

2- تعريف الآية إصطلاحا:

نقل الزركشي عن الجعبري قوله: «حد الآية قرآن مركب من جمل ولو تقديرا، ذو مبدأ، أو مقطع مندرج في السورة، وأصلها العلامة...وقال غيره: الآية طائفة من القرآن، منقطعة لما قبلها وما بعدها ليس بينها شبه بما سواها، وقيل: هي الواحدة من المعدودات في السور، سميت بها لأنها علامة على صدق من أتى بها، وعلى عجز المتحدى بها. وقيل لأنها علامة انقطاع ما قبلها من الكلام وانقطاعها عما بعدها»[8].

وجاء في مناهل العرفان أن الآية هي: «طائفة من ألفاظ القرآن ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة منه»[9]، والآية من القرآن هي جماعة من الكلمات، أو الحروف، مكيفة بتراتيب خاصة وصور

---

[1] - أي خرجنا بجماعتنا نسوق النوق وصغارها.

[2] - بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، (مصدر سابق)، ج1، ص86.

[3] - سورة البقرة، الآية 211.

[4] - سورة البقرة، الآية 248.

[5] - سورة الشعراء، الآيات8، 67، 103.

[6] - سورة المؤمنون، الآية 50.

[7] - سورة الروم، الآية 22.

[8] - البرهان، الزركشي، (مصدر سابق)، ج1، ص267.

[9] - مناهل العرفان، الزرقاني، (مصدر سابق)، ج1، ص339.

مستقلة تحدث البشر فأعجز تمام[1].

والمناسبة بين هذا المعنى والمعاني اللغوية السابقة واضحة تماما، فالآية القرآنية معجزة، وعلامة صدق من جاء بها، وعبرة لمن أراد أن يعتبر ويذّكر، وفيها أيضا معنى الجماعة لأنها مؤلفة من الحروف.

وعدد آيات القرآن في المصحف المدني: ستة وثلاثون ومائتان وستة آلاف آية ما عدا البسملة في أول سورة براءة، وعدد حروفه: خمسة وأربعون وثلاث مائة وخمس مائة وخمس وعشرين ألف حرف[2].

---

[1] – البيان، محمد الصديق، (مرجع سابق)، ص135.

[2] – المصدر السابق، ص137.

المبحث الثاني: بين يدي السورة.

المطلب الأول: تسميتها، ترتيبها، وعدد آياتها.

سورة الحج هي إحدى سور القرآن الكريم، لا خلاف في تسميتها[1]، وقد أطلق عليها هذا الاسم لاشتمالها على مناسك الحج، وتعظيم الشعائر، وأصل تشريعه، وتأذين إبراهيم في الناس به، ولعله كان أبرز موضوع تناولته، رغم أنّ نزولها كان قبل فرض الحج باتفاق المسلمين، وإنما فرض الحج بالآيات التي في سورة البقرة وآل عمران، وقد عدت السورة الخمس والمائة، في عداد النزول في رواية جابر بن زيد عن ابن عباس قال: «نزلت سورة الحج بعد سورة النور، وقبل سورة المنافقين»[2]، وترتيبها في المصحف الثانية والعشرون، بين سورة الأنبياء، وسورة المؤمنون، وعدت آياتها عند أهل المدينة ومكة سبع وسبعون آية، وعدّها أهل الشام أربعا وسبعين، وعدها أهل البصرة خمسا وسبعين، وعدها أهل الكوفة ثمان وسبعين، قال السيوطي: الحج سبعون وأربع، وقيل وخمس، وقيل وست، وقيل وثمان[3]، واستقر عدد آياتها اليوم في المصحف على ثمان وسبعين آية، وعدد الآيات المختلف فيها هي خمس[4]:

الأولى: الآية: 19، قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾.

الثانية: الآية: 20، قوله تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾.

الثالثة: الآية: 42، قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودُ﴾.

الرابعة: الآية: 43، قوله تعالى: ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾.

الخامسة: الآية: 78، قوله تعالى: ﴿وجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ....﴾ إلى آخر السورة.

وهي تمثل حزبا كاملا، هو الحزب الخامس والثلاثون، وتقع في الجزء الثامن عشر، فيها عشر صفحات في كل صفحة أربعة عشر سطرا، يتشكل السطر من سبع كلمات إلى عشر، بها ثمانية أثمان.

---

[1] – التحرير والتنوير، (مصدر سابق)، ج17/ 18، ص179 .

[2] – المصدر السابق، ج17، ص134.

[3] – الإتقان، السيوطي، (مصدر سابق)، ص112.

[4] – بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، (مصدر سابق)، ج1، ص323.

وأربعة أرباع، تراوحت آياتها بين الطول والتوسط، بعض آياتها سبعة أسطر، وبعضها الآخر سطرا واحدا، وأطول آية فيها الآية الخامسة، بدايتها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ....﴾ طولها سبعة أسطر ونصف السطر، وأقصر آية فيها، الآية الواحدة والعشرون، قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾.

يقول الطاهر بن عاشور في مقدمة تفسيره لسورة الحج: «سميت هذه السورة سورة الحج زمن النبيﷺ، أخرج أبو داود، والترمذي عن عقبة بن عامر، قال: قلت: يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: "نعم"[1]. وأخرج أبو داود وابن ماجة عن عمرو بن العاص، أنّ رسول اللهﷺ، أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاثة في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان»[2]

وقد اختلفت فواصل آياتها وتنوعت بين حروف الاستعلاء واللين، وحروف الغنة والقلقلة، حسب ما افتضاه المقام.

وقد تحدثت السورة على سبيل الإجمال، عن أمور منها:

الوصية بالتقوى، والطاعة، وبيان هول الساعة، وزلزلة القيامة، والحجة على إثبات الحشر، والنشر، وجدال أهل الباطل، مع أهل الحق، والشكاية من أهل النفاق، بعد الثبات، وعيب الأوثان وعبادها، وذكر نصرة الرسولﷺ، وإقامة البرهان والحجة، وخصومة المؤمن والكافر في دين التوحيد، وتأذين إبراهيم بالحج بين الناس، وتعظيم الحرمات والشعائر، وتفضيل القرآن، والمنة على العباد بدفع فساد أهل الأرض، وحديث البئر المعطلة، وذكر نسيان رسول الله وسهوه حال تلاوة القرآن، وأنواع الحجة على إثبات القيامة، وعجز الأصنام وعبادها، واختيار الرسول من الملائكة والإنس، وأمر المؤمنين بأنواع العبادات والإحسان، والمنة عليهم باسم المسلمين، والاعتصام بحفظ الله، وحياطته في قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[3].

---

[1] – أخرجه أحمد عن عقبة بن عامر، ج34، ص234/ 281، والحاكم في المستدرك، ج8، ص120، وأبي نعيم في الحلية، ج15، ص258، وأبو داود في سننه، ج4، ص176/ 177، والترميدي باب: ما جاء في السجدة في القرآن، ج2، ص443، وج10، ص193/ 445، من طريق عمرو بن العاص به.

[2] – التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (مصدر سابق)، ج17/ 18، ص179.

[3] – سورة الحج، الآية 78.

المطلب الثاني: مكيها، ومدنيها من الآيات

وقد اختلف العلماء في مكيّها، ومدنيّها من الآيات، فمنهم من اعتبرها مكية، إلا بعض الآيات منها فمدني، وهذا ما ذكره ابن عباس ومجاهد وعطاء، حيث قالا: إنها مكية إلاّ ثلاث آيات، من قوله عز وجل: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ حتى قوله عز وجل: ﴿..وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[1] وقال ابن عطية الأندلسي[2] نقلا عن النقاش أنه قال: «ما نزل منها بالمدينة إلاّ عشر آيات»[3]

ومنهم من رأى أنها مدنية إلاّ بعض الآيات منها فنزلت بمكة، ولا سيما الآيات التي تتحدث عن العقيدة، وعن الأنبياء، وهذا مروي عن قتادة، والضحاك، والحسن، وفي قول آخر لابن عباس، حيث قالوا جميعهم: أن سورة الحج مدنية إلا قوله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيءٍ﴾، إلى قوله ﷻ: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾[4].

وغير هؤلاء جميعا يجزم بأنها مدنية كلها، مثل ما روى مجاهد عن ابن الزبير، أنها مدنية، كما قلنا سابقا.

وأمّا الجمهور من العلماء فيرى أنّ بعض آيات هذه السورة مكي، والبعض الآخر مدني، وقد اختلفوا بعد ذلك في تحديده بعينه، كما قال ابن عطية، وهو الأصح، وهو كما يبدو من دلالة آياتها، وعلى الأخص آيات الإذن بالقتال، وآيات العقاب بالمثل، فهي مدنية قطعا، فالمسلمون لم يؤذن لهم في القتال والقصاص إلاّ بعد الهجرة، وبعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة، أمّا قبل ذلك فقد قال رسول الله ﷺ حين بايعه أهل يثرب وعرضوا عليه أن يميلوا على أهل منى من الكفار فيقتلوهم: "إني لم أُومر بهذا"[5]، حتى إذا صارت المدينة دار إسلام، شرع الله القتال، لردّ أذى المشركين عن المسلمين، والدفاع عن حرية العقيدة، وحرية العبادة، والذي يغلب على السورة، هو موضوعات السور المكية وجوها، فموضوعات التوحيد، والتخويف من الساعة، وإثبات البعث، وإنكار الشرك، ومشاهد القيامة، وآيات

---

[1] – سورة الحج، الآيات 19، 20، 21.

[2] – هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية الأندلسي، المحاربي الغرناطي: كان فقيها نبيها مفسرا، أديبا شاعرا، ذكره صاحب الصلة، وقال: «كان مولده سنة 481هـ، وتوفي في 25 رمضان، سنة 541هـ، بمدينة ميورقة، من أشهر مصنفاته "المحرر الوجيز في الكتاب العزيز". انظر: – المرقبة العليا، للمراكشي، (مصدر سابق)، ص109، وأعلام النبلاء: ج3، ص282.

[3] – المحرر الوجيز، ابن عطية، ج5، ص312.

[4] – وهي الآيات: 51، 52، 53، 54، 55، فهي مكيات.

[5] – أخرجه ابن كثير، في تفسيره، ج5، ص431.

الله المبثوثة في صفحات الكون... بارزة في السورة، وإلى جوارها الموضوعات المدنية من الإذن في القتال، وحماية الشعائر، والوعد بالنصر لمن وقع عليه البغي، وهو يرد العدوان، والأمر بالجهاد.[1]

ويقول الطاهر بن عاشور: أن قول الجمهور بأنها مختلطة، يعني أن كثيرا منها مكي، وأن مثله أو يقاربه مدني، وأنّه لا يتعين ما هو مكي منها وما هو مدني[2].

قال ابن عطية: «روي عن أنس بن مالك أنه قال: نزل أول السورة في السفر[3] [بعد الهجرة] فنادى رسول الله ﷺ بها فاجتمع إليه الناس، وساق حديثا طويلا»[4].

ويشبه أن يكون أولها نزل بمكة، ذلك أن الخطاب بـ "يأيها الناس" جار على سنن فواتح السور المكية، ولا يكون هذا دليلا قاطعا على أنها نزلت بمكة، إلاّ باعتبار قول ابن عباس أساسا لذلك، وهو قوله: أن خطابه "يأيها الناس"يقصد به المشركين، ويجوز أيضا أن يوجه الخطاب إلى المشركين في المدينة أول مدة حلول النبي ﷺ بها، لأن قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[5] يناسب أنه أنزل بمكة، وكذلك إذنه بالقتال في قوله ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[6] فإنه صريح في أنه نزل في شأن الهجرة.

ويقول الطاهر بن عاشور: «وأحسب أنه لم تتعين طائفة منها متوالية نزلت بمكة ونزل ما بعدها بالمدينة، بل نزلت آياتها متفرقة، ولعل ترتيبها كان بتوقيف من النبي ﷺ، ومثل ذلك كثير»[7].

المطلب الثالث: فضلها وأقوال العلماء فيها:

لا شك أن فضل القرآن على كلام الناس، كفضل الخالق على سائر المخلوقات، ويتبين ذلك من خلال البحث والتقصي عن معنى هذا الكلام، وعن ميزاته، ومدى عجز الناس عن الإتيان بمثله، فهو الكلام الموزون المنسجم الحكيم في ألفاظه ومعانيه، حيث يتضح ذلك عبر سوره وآياته، فلكل سورة منه ولكل آية فضلها، وميزتها.

---

[1] – في ظلال القرآن، السيد قطب، (مصدر سابق)، ج2، ص2406.

[2] – التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج16/ 17، ص180.

[3] – في غزوة بني المصطلق من أرض قبيلة خزاعة، سنة أربع أو خمس.

[4] – المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، (مصدر سابق)، ج4، ص481.

[5] – سورة الحج، الآية 25.

[6] – سورة الحج، الآية 39 .

[7] – التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (المصدر السابق)، ج17/ 18، ص181.

وبما أن سورة الحج كباقي سور القرآن، يصدق عليها ما يصدق على سائر القرآن، لها فضلها ومكانتها، فلقد قال فيها العلامة الآلوسي ما يلي: «أخرج أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن عقبة بن عامرﷺ : قال قلت يا رسول الله: أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: نعم، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما»[1].

«وأخرج ابن أبي شيبة من طريق العريان الجاشعي عن ابن عباس، قال: في الحج سجدة واحدة وهي الأولى»[2]، والمقصود بها قولهﷻ: ﴿...وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَالَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[3].

وذكر ابن كثير أن أبا داود قد أخرج في مراسيله، والبيهقي في سننه عن خالد بن معدان، أن رسول اللهﷺ، قال: "فضلت سورة الحج على القرآن بسجدتين"، وفي رواية أخرى: "أنه سجد لها سجدتين"[4]، والسجدة الثانية في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[5].

وذكر البيضاوي في خاتمة تفسير سورة الحج حديثا في فضلها، ونَصُّهُ: "من قرأ سورة الحج أعطي من الأجر كحجة حجها، وعمرة اعتمرها، بعدد من حج، واعتمر فيما مضى وفيما بقي" وزاد عليه محمد بن يعقوب: "ويكتب له بعدد كل واحد منهم حجة وعمرة وله بكل آية قرأها مثل ثواب من حج عن أبويه".

وقد علقَّ على هذا الحديث القاضي شهاب الدين بن عمر الخفاجي في "حاشية الشهاب" المسماة: "عناية القاضي وكفاية الراضي" فقال: «وقوله أي – البيضاوي – عن النبيﷺ، الحديث السابق: هو حديث موضوع كما ذكر العراقي رحمه الله تعالى، وركاكة لفظه شاهدة لوضعه، وتخصيص أجره بأجر الحج، لذكره في هذه السورة، وقوله كحجة تقديره أجورا بعدد الحج، كل أجر منها كأجر

---

[1] – روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، شهاب الدين محمود الآلوسي، تحقيق: محمد أحمد الأمد، وعمر السلامي، ج17 18، ص144، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1420هـ/ 1999م، لبنان – بيروت.

[2] – تفسير البيضاوي، دار الفكر، دون طبعة، دون تاريخ، 1972م، ص451.

[3] – سورة الحج، الآية 18.

[4] – تفسير القرآن العظيم، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير، ج4، ص667، الطبعة الرابعة، دار الأندلس، 1983م، بيروت – لبنان.

[5] – سورة الحج، الآية 77.

حجة ففيه تقديم، وتأخير، وتقدير»[1].

وإن يكن فإنه صح عن النبيﷺ أنه من قرأ القرآن كان له بكل حرف يقرأه حسنة، فمن قرأ سورة الحج كان له من الأجر خمسة آلاف وخمس وسبعون حسنة، وإن ضاعفنا كل حسنة بعشر أمثالها فانظر كم حسنة ستكون؟ والله يضاعف لمن يشاء.

وقد روى الحاكم في المستدرك حديثا نصه: عن أبي إسحاق عن الأسود عن عبد الله قال: "أول سورة نزلت فيها سجدة سورة الحج، قرأها رسول اللهﷺ، فسجد وسجد الناس، إلاّ رجلا أخذ التراب بيده فسجد عليه"[2].

هذا أهم ما جاء في فضل سورة الحج، من روايات وأحاديث نقلها المفسرون في كتبهم، فمنها الصحيح الصريح ومنها الضعيف الركيك، وقد أشرنا إلى ذلك ليُأخذ بالصحيح ويترك السقيم.

والناظر في فضل القرآن يرى فضل هذه السورة أيضا، لأن القرآن كله من عند الله وكل متعبد بتلاوته، وكل يأجر لقراءته، وهذا مما يزيد في تقوى الله تعالى، خاصة عندما يعلم أن أول سجدة نزلت كانت في سورة الحج، ولا يخفى على أحد أن السجود بين يدي الله هو من أرقى العبادات وأسمى المعاني التي تقدمها الطاعات، لما فيه من تذلل، وخشوع وخضوع وخنوع لله العلي الكبير، حيث يستشعر العبد في سجوده أنه بين يدي الجبار الواحد القهار، فيزيد خشوعا لله ويحصل بذلك تقوى الله تعالى.

---

[1] – حاشية الشهاب، شهاب الدين أحمد بن عمر الخفاجي، تحقيق: الشيخ عبد الرزاق المهدي، ج6، ص453، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1997م، بيروت – لبنان.

[2] – رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم 803، ص215.

المبحث الثالث: أجواء نزول سورة الحج.

المطلب الأول: أسباب نزول بعض آياتها.

لا يوجد هناك سبب نزول لسورة الحج كاملة، بل هناك أسباب نزول لبعض آياتها، ذلك أن هذه السورة لم تنزل دفعة واحدة، بل احتوت على الآي المكي، والمدني، وكان بين نزولهما بون زمني كبير.

وممّا جاء في أسباب نزول بعض آياتها في كتاب "لباب النقول في أسباب النزول"، للعلّامة جلال الدين السيوطي ما يلي:

1 – أسباب نزول الآية الثالثة، وهو قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾[1]، أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله تعالى: الآية، قال نزلت في النضر بن الحارث، الذي كان يجادل المؤمنين في وجود الله.

2 – أسباب نزول الآية الحادية عشر، قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ....﴾[2] أخرج البخاري عن ابن عباس قال: "كان الرجل يقدم المدينة فيسلم، فإن ولدت امرأته غلاما، ونتجت خيله، قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ذكرا، و لم تنتج خيله، قال: هذا دين سوء فأنزل الله ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ...﴾"، وأخرج ابن مردويه من طريق عطية عن ابن مسعود قال: "أسلم رجل من اليهود فذهب بصره، وولده، فتشاءم بالإسلام، فقال: "لم أصب من ديني هذا خيرا! ذهب بصري ومالي، ومات ولدي"، فنزلت: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ...﴾.....الآية."""[3]

وزاد الإمام النيسابوري في هاته القصة أنه قيل له: "يا يهودي إن الإسلام يسبك الرجال كما تسبك النار خبث الحديد والفضة والذهب"[4].

3 – وجاء في قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوْا فِي رَبِّهِمْ...﴾[5] أنها نزلت في حمزة، وعبيدة

---

[1] – سورة الحج، الآية 03.

[2] – سورة الحج، الآية 11.

[3] – لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، ص187، الدار التونسية للنشر، الطبعة الثالثة، ماي/ 1984م.

[4] – أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، ص175، دار الضياء، قسنطينة.

[5] – سورة الحج، الأيات: 19، 20، 21، 22.

بن الجراح، وعلي، وعتبة، وشيبة، والوليد بن عتبة.[1]

وقال الواحدي في قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اِخْتَصَمُوْا فِي رَبِّهِمْ..﴾[2] أخبرنا عبد الله محمد بن إبراهيم المركي، قال أخبرنا عبد الملك بن الحسن بن يوسف، قال أخبرنا يوسف عن قيس بن عبادة قال: سمعت أبا ذرﷺ يقول: "أقسم بالله لنزلت في هؤلاء الستة". وروى أيضا بسنده إلى عليﷺ قال: "فينا نزلت هذه الآية في مبارزتنا يوم بدر"، وقال عبد الله بن عباسﷺ: "هم أهل الكتاب، قالوا للمؤمنين: نحن أولى بالله منكم، وأقدم كتابا منكم، ونبينا قبل نبيكم، وقال المؤمنون: نحن أحق بالله، آمنّا بمحمد ﷺ، وآمنّا بنبيكم، وبما أُنزل من كتاب، فأنتم تعرفون نبينا فتركتموه وكفرتم به حسدا"، وكانت هذه خصومتهم، فأنزل الله الآية، وهذا قول قتادة[3].

4 – جاء في سبب نزول قولهﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوْا..﴾[4]، أن المشركون كانوا يؤذون أصحاب رسول اللهﷺ، فلا يزالون يجيئون مضروب ومشجوج إلى رسول الله ، فأنزل الله هذه الآية، وقال ابن عباس لما أخرج رسول اللهﷺ من مكة قال أبو بكرﷺ: "إنا لله لنهلكن"، فأنزل الله تعالى الآية[5].

5 – وقال السيوطي في سبب نزول قولهﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ..﴾[6]: «أخرج ابن أبي حاتم، وابن جرير، ابن المنذر بسند صحيح عن سعيد بن جبير، قال: "قرأ النبيﷺ بمكة النجم فلما بلغ؛ – أفرأيتم اللاّت والعزّى، ومناة الثالثة الأخرى – ألقى الشيطان على لسانه، تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لتُرتجى، فقال المشركون، ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم، فسجد وسجدوا، فنزلت»[7]، هكذا رواها السيوطي، لكن المسألة قد تكلم فيها كثير من الناس، وردوا هذه الرواية من أوجه، وقالوا أنّ الحديث لا يصح؛ بل موضوع، كما حققه الأستاذ الشنقيطي في أضواء البيان، والألباني في كتابه: "نصب المنجنيق للرد على قصة الغرانيق".

---

[1] – لباب النقول، السيوطي، (مصدر سابق)، ص188 .

[2] – سورة الحج، الآيات: 19،21،20،22.

[3] – أسباب النزول، الواحدي، (مصدر سابق)، ص176 .

[4] – سورة الحج، الآية 39.

[5] – أسباب النزول، الواحدي، (مصدر سابق)، ص176 .

[6] – سورة الحج، الآية 52.

[7] – لباب النقول، السيوطي، (مصدر سابق)، ص189 .

6 – وقال السيوطي في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ...﴾[1]، أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنها نزلت في سرية بعثها النبيﷺ، فلقوا المشركين لليلتين بقيتا من محرم، فقال المشركون بعضهم لبعض"قاتلوا أصحاب محمد فإنهم يحرمون القتال في الشهر الحرام، فناشدهم الصحابة، وذكّروهم باللهﷻ، ألاّ تعرضوا لنا لنقاتلكم، فأبى المشركون ذلك وقاتلوهم، وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون ونُصروا عليهم، فنزلت الآية[2].

7 – وقال السيوطي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿....وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3]: «أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباسﷺ أنه قال: "بعث النبي عبد الله بن أنيس مع رجلين: أحدهما مهاجر، والآخر من الأنصار، فافتخرا في الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس، فقتل الأنصاري ثم ارتد عن الإسلام، وهرب إلى مكة فنزلت فيه"»[4].

8 – وأخرج السيوطي أيضا عن ابن جرير ومجاهد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[5]، قال: "كانوا لا يركبون فأنزل الله الآية فأمرهم بالزاد، ورخص لهم في الركوب والمتجر"[6].

9 – وقال في سبب نزول الآية السابعة والثلاثين، قولهﷻ: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا..﴾[7] أن أهل الجاهلية يضمخون البيت بلحوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب النبيﷺ، فنحن أحق أن نضمخ، فأنزل الله تعالى "لن ينال الله لحومها.."[8].

هذا ما جاء في أسباب نزول بعض آيات سورة الحج ذكرناه لأهميته في الكشف عن المعنى الحقيقي للسورة، كما سنرى لاحقا.

---

[1] – سورة الحج، الآية 60 .

[2] – اللباب، السيوطي، (مصدر سابق)، ص190 .

[3] – سورة الحج، الآية 25 .

[4] – اللباب، السيوطي، (مصدر سابق)، ص188

[5] – سورة الحج، الآية 27 .

[6] – المصدر السابق، ص189.

[7] – سورة الحج، الآية 37 .

[8] – المصدر السابق، ص190 .

المطلب الثاني: مكان وزمان النزول.

إذا كان لأسباب النزول، دور هام في فهم وتحديد معاني آيات وسور القرآن الكريم، فإنه لا يخفى أن مكان النزول أيضا له أهميته في فهم هدي الكتاب، ومعرفة مواطن النزول، والأجواء التي سادت تلك المنطقة، وهي أيضا مهمة في مساعدة قارئ القرآن على تدبر المعنى، وترجيح بعض المسائل على أخرى، فنزول القرآن في بيئة معينة، له خلفياته في فهم المعنى الذي سيقت له تلك الآيات، وله ذلك الأثر النفسي على المتلقي، إذ أنّ للقرآن النازل علاقة بالمكان الذي نزل فيه، تجعل القارئ والمتدبر لِآيات القرآن يتصور حدودا معينة، ويرسم خطة معينة تجعله يمعن النظر في المعنى، ويعيش تلك الأجواء، إن كانت في حالة حرب أو سلم، قحط أو ري، أو غير ذلك، من الظروف المحيطة بواقع التنزيل.

وإذا اعتبرنا أن معرفة القرآن المكي والمدني، والذي له صلة مباشرة بفهم القرآن، وتحديد مفهومه، ومدلول آياته، صُنِّفَ على أساس نزوله حسب المنطقة الجغرافية، فهو بهذا الاعتبار يخضع في تقسيمه هذا إلى أن كل ما نزل بمكة، فهو مكي ولو كان في العهد المدني، وما نزل بالمدينة فهو مدني ولو كان بعد الهجرة.

ولأهمية هذا الموضوع فقد أفرده العلماء بكتب خاصة أو مباحث معينة، كما فعل السيوطي والزركشي...وغيرهما.

كما أن هذا الموضوع له علاقة بالتفسير الموضوعي، من حيث إن القرآن المكي يعالج موضوعات معينة، كالعقيدة، والقصص، وغيرها، وإن القرآن المدني يعالج مواضيع مختلفة عمّا يعالجه القرآن المكي، كالتشريع والأحكام، وغيرها، وفي امتزاجهما يظهر ذلك الإعجاز الرائع، وهو تناسب مواضيعهما، وصبها في موضوع آخر مختلف، تذوب فيه تلك الفوارق ويتقلص فيه ذلك الزمان، فيخرج من صلبهما جوهرا مسبوكا، ومحورا تدور حوله تلك المواضيع والأفكار.

ولقد اختلف العلماء والمفسرون في تحديد مكان نزول سورة الحج، ولكن الراجح ما ذهب إليه الألوسي وابن عطية الأندلسي كما سنرى لاحقا، لأن معرفة مكان النزول تساعد المفسر على ترجيح معنى على آخر، خاصة إذا كان الموضوع مُشكلا من مجموع تلك الآيات المختلف فيها. ولقد أشرنا سابقا إلى هذا الاختلاف، فعن ابن عباس، ومجاهد، وعطاء: "أنها مكيّة، إلاّ ثلاث آيات"[1]، وقال ابن

---

[1] – التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مصدر سابق)، ج16/ 17 ص180.

عطية: "وعدَّ النقاش ما نزل منها بالمدينة عشر آيات"[1]، فمنهم من يرى أنها نزلت بمكة، ومنهم من يرى أنها نزلت بالمدينة، ومنهم من يرى أنها نزلت في الطريق بين مكة والمدينة.

يقول الطاهر بن عاشور: «ليس هذا القول مثل ما يكثر أن يقولوه في بعض آيات من عدة سور: إنها نزلت في غير البلد الذي نزل فيه أكثر السورة المستثنى منها، بل أرادوا أن كثيرا منها مكي، وأن مثله أو يقاربه مدني، وأنه لا يتعين ما هو مكي وما هو مدني، ولذلك عبّروا بقولهم: هي مختلطة»[2]

وقال ابن عطية: روى عن أنس بن مالك أنه قال: «نزل أول السورة في السفر فنادى رسول اللهﷺ بها فاجتمع الناس إليه، فقال: "أتدرون أي يوم هذا؟"، فبهتوا!! فقال: "يوم يقول الله يا آدم أخرج بعث النار، فيخرج من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون"، قال: فاغتم الناس، فقال رسول الله: "أبشروا فمنكم رجل ومن يأجوج ومأجوج ألف رجل"»[3]، وإنما أراد ابن عطية بقوله في السفر يعني بعد الهجرة.

وقال القرطبي: «وهي من أعاجيب السور، نزلت ليلا ونهارا، سفرا وحضرا، مكيا ومدنيا، سلميا وحربيا، ناسخا ومنسوخا، محكما ومتشابها، مختلف العدد»[4].

وجاء عند الألوسي أنها نزلت في طريقهم إلى غزوة بني المصطلق، وهذا يوافق قول من قال أنها نزلت في السفر، أو بعد الهجرة.

وقد روى الإمام أحمد في المسند عن هشام قال رسول حدثنا قتادة عن الحسن بن عمران بن حصين: "أن رسول اللهﷺ قال: "- وهو في بعض أسفاره - وقد تفاوت بين أصحابه السير رفع بهتين الآيتين صوته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ...﴾، حتى بلغ آخر الآيتين، قال فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطي، وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما تأشبوا حوله، قال: أتدرون أيّ يوم ذاك؟ قال ذلك يوم يُنادَى آدم فيناديه ربه تبارك وتعالى: يا آدم ابعث بعثا إلى النار، فيقول: يا رب: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مائة وتسع وتسعون في النار، وواحد في الجنة، قال: فأبلس أصحابه، حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: اعملوا وابشروا فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء إلّا كثرتاه، يأجوج ومأجوج، تسع مائة وتسع وتسعين

---

[1] - المحرر الوجيز، ابن عطيّة، (مصدر سابق)، ج4، ص105.

[2] - التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مصدر سابق)، ج16/ 17، ص180 .

[3] - المحرر الوجيز، ابن عطيّة الأندلسي، (مصدر سابق)، ج4، ص105 .

[4] - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مج12، ص1.

في النار، وواحد في الجنة، ومن هلك من بني آدم، وبني إبليس، قال فأسرى عنهم، ثم قال: اعملوا وابشروا، والذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلّا كالشامة في جنب البعير، أو الرقمة[1] في ذراع الدابة"[2].

وقد يسأل سائل عن سبب جمع النبيﷺ الناس حوله، وتأذينه فيهم بسورة الحج، وهم في حالة من سفر على الأرجح، ومعروف ما يلاقيه المسافر من وعثاء وتعب وإرهاق خلال السفر، فماذا أراد بهم نبيهمﷺ، وهو كما وصفه ربه تبارك وتعالى بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم؟ خاصة أن الحديث كان عن القيامة وأهوالها، والساعة وقيامها، والناس وأحوالهم فيها، وفيها كل ما يحرك عواطفهم، ويهيج مشاعرهم، ويخوفهم من ذلك اليوم ؟!. والجواب عن هذا التساؤل، هو أن النبيﷺ لم يبعث ليشدد على الناس، بل بعثه الله رحمة للعالمين، وكيف يفعل بهم ذلك، وهو الذي يقول "يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا"، بل أراد لهم الخير كل الخير، يظهر لنا ذلك من خلال عدة أحاديث رويت، ففي عمله هذا عدة لطائف نذكرها بإيجاز:

– أراد رسول اللهﷺ أن يصور لهم حالة من أحوال القيامة وأهلها، هي أشبه بما هم فيه من جهد، ومشقة، وتعب، من قسوة ما يلاقونه في هذا السفر من أشعة الشمس، التي تلفح وجوههم، ومن الرياح المحملة بالحصى التي تملأ أجفانهم وآذانهم، وشدة ما يجدونه فيه، من قلة مشرب ومطعم، وما يساورهم من كلل وملل.

– إن مصاحبة تذكيرهم بهذه المواقف حال السفر، مما يثبت القول في نفوسهم ووجدانهم، ويرسخ الفهم والعلم في عقولهم، ويحول دون نسيان مثل هذه المواقف عند توليهم إلى ديارهم وأوطانهم، مما يجعلهم دائموا التذكر والتفكر، في ما سمعوا وشاهدوا، وما حصل لهم من فزع وخوف، عند ذكر النبيﷺ لتلك الأهوال، ومشاهدها.

– أراد الرسولﷺ أن ينشطهم ويحرك هممهم، ربما لما لاحظ عليهم من عياء، وتخاذل في المشي والحركة، ذلك أن الفرد قد يحتاج أحيانا لمنبه قوي يحرك فيه العزيمة، ويوقظ فيه الحماس والهمة، للعمل، والجد، والاجتهاد.

– أراد النبيﷺ أن يسلي أصحابه، ويبشرهم بأن لهم أجرا عظيما، وأن المتقين منهم لا خوف عليهم

---

[1] – يعني العلامة.

[2] – رواه أحمد في أول مسند البصريين من مسنده، تحت رقم: 19055.

ولا هم يحزنون، وأن الله قصد بأن معظم أهل النار، هم يأجوج ومأجوج، يظهر ذلك من خلال حديث خلق آدم، وأمر الله له بأن يخرج من صلبه أهل النار، أو خرج النار فقالوا: وما خرج النار فقال: "من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعون في النار وواحد في الجنة..."[1].

– وقد يكون أن النبيﷺ قد رأى منهم بعض التقصير في الواجبات، أو بعض التهاون في الشعائر، أو بعض التخاصم، فأراد أن يذكرهم بتقوى الله تعالى، ويحثهم على امتثالها، وينادي فيهم بما يمنع عنهم هول زلزلة الساعة، وشدتها.

– كما أن فيه التبشير بالنصر المبين، وأن الله يدافع عن الذين آمنوا، ولا سيما أنهم يريدون حربا مع المشركين، وفي هذا التذكير، وهذه البشرى بالنصر، دافع قوي، ومحفز لهم على الإقبال على هذه الحرب غير آبهين غير خائفين.

– يمكن استخلاص من هذه القضية منهج تربوي نفسي، في طريقة وكيفية، واستغلال الفرصة المناسبة لإعطاء القائد الدفع القوي لأتباعه للإقبال على الأعمال العظيمة، بتحريك نفسي قوي، في أوقات معينة، حيث تصاحب صورته حال المتلقي، أو السامع، آخذة بعين الاعتبار خلفية هذا المتلقي.

وكل هذا نتيجة واحدة في تقوى الله تعالى، وهو الموضوع الرئيس لسورة الحج، والله أعلم

المطلب الثالث: ناسخها ومنسوخها.

يُعرف النسخ بأنه رفع حكم شرعي بحكم شرعي آخر متأخر عنه في الزمان، أو على الأقل هذا ما تعلمناه وما يفهم من كلمة نسخ، وقيل النسخ لغة: الإزالة، يقال: نسخت الشمس الظّل، أي: أزالته. ويأتي بمعنى التبديل والتحويل، يشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴾[2]

واصطلاحاً: رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر كما قلنا، فالحكم المرفوع يسمى: المنسوخ، والدليل الرافع يسمى: الناسخ، ويسمى الرفع: النسخ.

فعملية النسخ على هذا تقتضي منسوخاً وهو الحكم الذي كان مقرراً سابقاً، وتقتضي ناسخاً، وهو الدليل اللاحق، فالنسخ معناه الإلغاء، ونسخ الشيء أي أزاله، ويقال نسخ الله الآية: أي أزال حكمها. وفي التنزيل العزيز: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ ويقال نسخ الحاكم الحكم أو القانون: أي أبطله.

---

[1] – رواه أحمد في المسند، وسيأتي تخريجه بتمامه.

[2] – سورة النحل، الآية 101.

وكما قلنا سابقا أن سورة الحج عُدت السورة الخمس ومائة في عداد النزول، وذلك من خلال رواية جابر عن ابن عباس، حيث قال: «نزلت بعد سورة النور وقبل سورة المنافقين»[1]، وعُدت آياتها عند أهل المدينة ومكة سبعًا وسبعين، وعدَّها أهل الشام أربعا وسبعين، وعدَّها أهل البصرة خمسا وسبعين، وعدَّها أهل الكوفة ثمان وسبعين، فاختلفوا في خمس آيات منها، وأما عدد الآيات الناسخات والمنسوخات فآيتان اثنتان:

الأولى: قوله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[2]

قال القاضي محمد بن العربي[3]: «هذه الآية ناسخة لكل آية في القرآن تقتضي التوقف عن القتال من ترك، أو إعراض، أو صفح ونحوه، ويروى عن الصديق، أنه قال: "لما سمعت هذه الآية علمت أنه سيكون هناك قتال"»[4]، وروى بعضهم عن ابن زيد[5] أنّه قال: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[6]، ثم عقب بقوله: بل الآية بإذنها في القتال نسخت هذه الآية، لأنها نسخت أمثالها بإجماع من الأمة، ويستحيل أن يبقى الترك مع الأمر بالقتال، فكل ما في القرآن من نظائره فإن جميعه منسوخ به، حتى قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾[7]، وقوله: ﴿ثُمَّ يَذَرُهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[8]، كله منسوخ بالإذن في القتال، والأمر به»[9].

---

[1] – سبق تخريجه، ص46.

[2] – سورة الحج، الآية 39.

[3] – هو محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي الاشبيلي المالكي الملقب بالقاضي ابن العربي، ولد بالأندلس، ورحل إلى المشرق، وعاد إلى وطنه سنة491هـ، وتولى القضاء، وذكره ابن بشكوال في كتاب "الصلة"، له مصنفات عديدة، منها: "عارضة الأحوذي"، و"أحكام القرآن"، و"العواصم"، و"شرح موطا مالك"، و"قانون التأويل"، توفي سنة543هـ بفاس. انظر: تاريخ قضاة الأندلس. (مصدر سابق)، ص105، ونفح الطيب، ج2، ص199، والأعلام، ج6، ص230.

[4] – روى الطبري في تفسيره بسنده إلى ابن عباس، قال: لمّا خرجالنبيﷺ من مكة، قال أبو بكر: "أخرجوا نبيهم، ﴿إنّا لله وإنّ إليه راجعون﴾"، قال ابن عباس: "فأنزل الله ﴿أذن للذين يقاتلون...﴾الآية23، قال أبو بكر: "فعرفت أنه سيكون قتال". انظر: جامع البيان، ج17، ص123.

[5] – هو محمد بن زيد بن المهاجر المدني التابعي الحافظ.

[6] – سورة الأعراف، الآية 180.

[7] – سورة الحجر، الآية 3.

[8] – سورة الأنعام، الآية 91.

[9] – الناسخ والمنسوخ، القاضي محمد ابن العربي المعارفي، تحقيق: عبد الكبير العلوي، ج1، ص304، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، 1992م.

الأخرى: قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1]

قال القاضي ابن العربي: هذه مسالمة نسختها آية القتال[2]، وقال أبو جعفر النحاس في كتابه: "الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم": «وجدنا في هذه السورة - يعني سورة الحج - أربعة مواضع تصح في هذا الكتاب- أي كتابه -:

منها قوله ﷻ: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾[3]، وقوله ﷻ: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ..﴾[4]، فمن العلماء من قال أن ذبح الضحايا ناسخ لكل ذبح كان قبله»[5]، حتى قال محمد بن الحسن في إملائه: "كانت العقيقة تفعل في الجاهلية، ثم فعلت في أول الإسلام، ثم نسخت بذبح الأضحية، فمن شاء فعلها ومن شاء تركها"[6]، ثم يواصل أبو جعفر كلامه فيقول: «وقال بعض العلماء: "فكلوا منها ناسخ لفعلهم، لأنهم كانوا يحرّمون لحوم الأضحية على أنفسهم، ولا يأكلون منها شيئا، فنسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾، ويقول النبي ﷺ: "من ضحّى فليأكل من أضحيته"[7]. إلاّ أن العلماء على أن هذا الأمر ندب لا إيجاب، مثل عطاء[8]، ومجاهد[9]، وإبراهيم النخعي[10]، وإن كانوا

---

[1] - سورة الحج، الآية 68 .

[2] - الناسخ والمنسوخ، ابن العربي، (مصدر سابق)، ص306.

[3] - سورة الحج، الآية 28.

[4] - سورة الحج، الآية 36.

[5] - الناسخ والمنسوخ، أبو جعفر النحاس، تحقيق: سليمان بن إبراهيم اللاحم، مج3، ص512، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، 1991م.

[6] - فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ج9، ص588.

[7] - رواه أحمد في المسند، ج2، ص391.

[8] - هو عطاء ابن يسار، مولى ميمونة، ثقة فاضل صاحب عبادة ومواعظ، توفي سنة103هـ. انظر: - الأعلام، للذهبي: ج1، ص62.

[9] - هو الإمام أبو الحج،اج مجاهد، المخزومي المقرئ، المفسر الحافظ، ولي السائب بن أبي السائب، سمع سعدا، وعائشة، وأبا هريرة، وأم هاني، ولزم ابن عباس مدة وأخذ عنه، وروى عن قتادة، والحكم ابن عتيبة، وعمر بن دينار، ومنصور الأعمش، توفي سنة103هـ، عن عمر يناهز 83 سنة. انظر: طبقات الحفاظ، للسيوطي، ج1، ص5.

[10] - هو أبو عمران إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعي، الإمام الحافظ، فقيه العراق، توفي سنة95هـ، انظر: الأعلام: ج1، ص57.

يستحبون الأكل منها كما قال: مالك[1]، والليث بن سعد[2]...»[3]

ثم ذكر باب نسخ آية الإذن بالقتال، وقد سبقت معنا، ثم ذكر باب نسخ الآية: الثانية والخمسون قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ...﴾[4]، حيث قال أبو جعفر عن ابن عباس، فينسخ الله ما يلقي الشيطان، قال: يبطل ما ألقاه الشيطان، ثم يحكم الله آياته...، وهذا من قول العرب: نسخت الشمس الظل، إذا أزالته.

وروي في هذا الذي نسخه الله تعالى مما ألقاه الشيطان أحاديث، منها ما رويناه في باب أسباب النزول[5]، حيث ذكر أبو جعفر أحاديث في ذلك، ثم عقّب عليها بأنها أحاديث منقطعة منكرة، وأضاف أن الدين والعقل يمنعان هذا.

والذي يطلع على تلك الروايات، يلحظ ركاكة ألفاظها، وضعف معانيها، فيعلم أنها موضوعة منكرة.

ثم ذكر قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ..﴾[6]، وقال أنّ من جعلها منسوخة هي مثل قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[7]، فإنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[8]، حيث بيّن النحّاس أنه لا نسخ فيها، والله أعلم.

ولا بأس أن ألخص ما سبق في سطرين أو ثلاثة حتى يسهل أخذها وحفظها، فأقول:

ذكر الآية الأولى:

---

[1] – هو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي من ذي أصبح من حمير المدني أحد أعلام الإسلام، وإمام دار الهجرة، سمع نافعا، والزهري، وهشام بن عروة، وغير واحد من التابعين، وعنه من شيوخه الزهري، ويحي الأنصاري، له ألف حديث، وله كتاب الموطأ، وهو أول مولف في الإسلام، ولد سنة93هـ، وتوفي سنة179هـ. انظر وفيات الأعيان، شمس الدين ابن خلكان، ج4، ص135.

[2] – هو أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي، الإمام الحافظ، حدث عنه مالك، من علماء مصر، توفي سنة175هـ. انظر الأعلام للذهبي، ج2، ص111، والبداية والنهاية لابن كثير، ج10، ص171.

[3] – الناسخ والمنسوخ في القرآن، أبو جعفر النحاس، (مصدر سابق)، مج3، ص513

[4] – سورة الحج، الآية 52

[5] – الناسخ والمنسوخ، النحّاس، (مصدر سابق)، ص528.

[6] – سورة الحج، الآية 78 .

[7] – سورة آل عمران، الآية 102.

[8] – سورة التغابن، الآية 16 .

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، إختلفوا في هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنها [نـــزلت] قبل الأمر بالقتال ثم نسخت بآية السيف.

والثاني: أنها نـــزلت [في حق المنافقين] كانت تظهر منهم "فلتات" ثم يجادلون عليها فأمر أن يكل أمورهم إلى الله تعالى، فالآية على هذا محكمة.

ذكر الآية الثانية:

قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾، وفيها قولان:

أحدهما: أنها منسوخة، لأن فعل ما فيه وفاء لحق الله لا يتصور من أحد، واختلف هؤلاء "في ناسخها على قولين":

أحدهما: أنه قوله: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا﴾.

والثاني: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ .

والقول الثاني: (أنها محكمة، لأن حق الجهاد الجد في المجاهدة) وبذل الإمكان مع صحة القصد "فعلى هذا هي محكمة ويوضحه أن الله تعالى لم يأمر" بما لا يتصور، فبان أن قوله:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ تفسير لحق الجهاد فلا يصح نسخ، كما بينا في قولـــه تعـــالى في آل عمران: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾

وأردت في هذا المقام أن أذكر بالمراحل التدريجية لتشريع الجهاد، حيث كان ممنوعا ثم مأذونا فيه ثم مأمورا به، ولكني ذكرته في مطلب آخر وأفضت الحديث عنه بما لا يمكن أن أضيف إليه شيئا جديـــدا هنا، والعبرة بالنسخ كما رأينا في هذا المطلب هو التخفيف عن المؤمنين، ورفع الحرج عنهم، حيـــث **ماهي الحكمة من التدريج التشريعي للأحكام والعبادات تخفيفا منه على النـــاس**، وأخـــذا بالأيـــسر والأسهل، حتى يتمكنوا بالأخذ بهذه التشريعات بأحسن ما يكون، فيحققون بها التقوى علـــى أعلـــى مراتب، وأسمى رتب، وهذا أيضا من نعم الله وفضله على الناس، والعلاقة تبدو واضحة تماما بين نسخ هذه الآيات وموضوع السورة الرئيس.

المطلب الرابع: متشابهات سورة الحج.

يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُـــودُ الَّـــذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَـــشَاءُ

وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[1]، وهذا نص صريح في تشابه كلام الله عز وجل، وجاء في قوله تعالى: ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[2]، وهذا نص في أن آيات القرآن كلها محكمات، والمحكم هو الذي لا يحتاج لغيره، ثم تأتي آيات سورة آل عمران كي تجمع بين المتشابه والمحكم، فيقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[3]، وهذه الآية فيها تصريح من الله بأن هناك آيات من القرآن جاءت محكمة وآيات منه جاءت متشابهة، ودون الخوض في أقوال العلماء في التفريق بين المحكم والمتشابه، فإننا نذكر النتيجة من هذا العرض، وهو أن جميع آيات القرآن محكمات، وهي متشابهة كلها في إحكامها، فلا ينكر من عرف القرآن وتدبر في معاني آياته وألفاظه، ودقق في نظمه وشكله، وتناسب سوره ومقاطعه، أن كل آية منه معجزة في ذاتها، محكمة في ألفاظها، ولا يخفى عن الناظر في كتاب الله، والمتمعن في ألفاظه، ومعانيه، ذلك الرابط المتين بين آياته وسوره، وذلك التناسق البديع بين ألفاظه، وجمله، بل وحتى بين حروفه، فلذلك جاء القرآن الكريم محكم الآيات والسور، وكل آية شبه أختها في ذلك الإحكام، ومن الآيات المتشابهات في سورة الحج، وبين آيات الكتاب ما يلي:

1 – قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ....﴾[4]، وبعده قوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ...﴾[5]، محمول على أيها المخاطب، وهم الناس.

2 – قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[6]، وفي سورة لقمان: ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[7]، لأن ما في سورة الحج وافق ما قبلها من الآيات وهي نذير، والقبور، وفي لقمان، وافقت ما قبلها وما بعدها، وهي الحمير، والسعير، والأمور.

3 – قوله تعالى: ﴿مِنَ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾[8]، بزيادة "من" لقوله: ﴿مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾الآية

---

[1] – سورة الزمر، الآية 23.

[2] – سورة هود، الآية 01.

[3] – سورة آل عمران، الآية 07.

[4] – سورة الحج، الآية 2.

[5] – سورة الحج، الآية 2 .

[6] – سورة الحج، الآية 8.

[7] – سورة لقمان، الآية 20.

[8] – سورة الحج، الآية 05.

نفسها، وقد سبق نظيره في سورة النمل.

4 – قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾[1]، وفي غيرها: ﴿أَيْدِيكُمْ﴾[2]، لأن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث، وقيل في غيره، وفي غيرها نزلت في الجماعة الذين تقدم ذكرهم، وفي آل عمران بالضبط نزلت في بني إسرائيل.

5 – قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى... ﴾[3]، قدم الصابئين لتقدم زمانهم، وقد تقدم في سورة البقرة.

6 – قوله تعالى: ﴿يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ..﴾[4]، وقد سبق نظيره في الرعد.

7 – قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍ أُعِيدُوا فِيهَا...﴾[5]، وفي السجدة: ﴿أُعِيدُوا فِيهَا..﴾آية20، لأن المراد بالغم: الكرب، والأخذ بالنفس، حتى لا يجد صاحبها متنفسا، وما قبله من الآيات، يقتضي ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَّارٍ ....وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾[6]، فمن كان في ثياب من نار، فوق رأسه جهنم يذوب من حرِّه أقتاب بطنه، حتى يذوب ظاهر جلده، وعليه موكلون، يضربونه بمقامع من حديد، كيف يجد سرورا، ومتنفسا من تلك الكرب التي عليه، وليس في سورة السجدة من هذا ذكر، وإنما قبلها: ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُ وُا فِيهَا﴾[7]

8 – وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ﴾[8]، وفي السجدة: ﴿وقيل لهم ذوقوا عذاب النار﴾السجدة: آية20، القول هنا مضمر، وخص بالإضمار، لطول الكلام بوصف العذاب، وخصت

---

[1] – سورة الحج، الآية 10

[2] – سورة آل عمران، الآية 182

[3] – سورة الحج، الآية 17

[4] – سورة الحج، الآية 18

[5] – سورة الحج، الآية 22

[6] – سورة الحج، الآية 21.

[7] – سورة السجدة، الآية 20.

[8] – سورة الحج، الآية 22.

سورة السجدة بالإظهار، موافقة للقول قبله، في مواضع منها: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾[1]، ومثله[2]، وليس في الحج منه شيء.[3]

وقد سبق مثل هذا في آل عمران، قوله: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾الآية181

9 - قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ...﴾[4]، وهي مكررة في السورة، وموجب التكرار هو قوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾آية19، لأنه لما ذكر أحد الخصمين، وهو في قوله: ﴿..فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ...﴾آية19، لم يكن بدا من ذكر الخصم الآخر، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾آية23.

10 - قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ..﴾[5]، وفي سورة البقرة قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ..﴾[6]، وحقه أن يذكر هناك، لأن ذكر العاكف ها هنا، سبق في قوله: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي﴾آية25، ومعنى القائمين والركع السجود: المصلون، وقيل القائمين بمعنى المقيمين، وهم العاكفون، لكن لما تقدم ذكرهم، عبر عنهم بعبارة أخرى.

11 - قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾آية36، كرر[7]، لأن الأول متصل بكلام إبراهيم عليه السلام، وهو اعتراض، ثم أعاده مع قوله: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ﴾آية36.

12 - قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾[8]، وما بعدها، إلى قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾آية38، خص الأول بذكر الإهلاك، لاتصاله بقوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ..﴾آية44، أي أهلكتهم، والثاني بالإملاء، لأن قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾آية47، دلّ على أنه لم يأتهم في الوقت، فحسن ذكر الإملاء.

---

[1] - سورة الأحقاف، الآية 8.

[2] - ﴿وقالوا أإذا أضللنا﴾، و﴿وقل يتوفاكم﴾، و﴿وحق القول﴾ .

[3] - بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، (مصدر سابق)، ج1، ص326 .

[4] - سورة الحج، الآية 23.

[5] - سورة الحج، الآية 26.

[6] - سورة البقرة، الآية 125.

[7] - كذا في الباب، وربما قصد قوله تعالى: ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾الحج، الآية 28 .

[8] - سورة الحج، الآية 35.

13 - قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ.. ﴾[1]، هنا وفي لقمان: ﴿مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ آية30، لأن هنا وقع بين عشر آيات كل آية مؤكدة مرة أو مرتين، ولهذا أيضا في هذه السورة اللام في قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾آية62، وفي لقمان: ﴿إن الله هو الغني الحميد﴾، إذ لم تكن سورة لقمان بهذه الصفة.

وفيه وجه آخر، وهو أنه لما تقدم في هذه السورة ذكر الله سبحانه وتعالى، وذكر الشيطان كذلك، بخبر وقع بين خبرين، ولم يتقدم في لقمان ذكر الشيطان، فأكد ذكر الله، وأهمل ذكر الشيطان.[2]

وإن دل هذا التشابه بين آيات سورة الحج، والآيات التي تفرقت في القرآن كله، إنما يدل على تنوع إعجاز هذا القرآن، وتنوع معانيه وأساليب مواضيعه، وطرق تناولها في كل سورة وفي كل موضع.

كما يزيدنا هذا التماثل وهذا التشابه مع تلك الإختلافات البسيطة في حرف أو ضمير أو تقديم أو تأخير يقينا في دقة القرآن في إختيار ألفاظه وحروفه، وأن كل لفظ وكل حرف لا يقبل التغيير أو التبديل، فيزيدنا إيمانا وتصديقا بأنه كلام الله تعالى، وأنه لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فتزيد إدعانا وإيمانا وتقوى.

ولا يختلف الحديث عن فضل هذه السورة وأقوال العلماء فيها عن الحديث عن التشابه أو عن الناسخ والمنسوخ أو أي شيء من علوم القرآن الكريم، وعن سورة الحج بالخصوص، لتعلق كل ذلك بموضوعها الرئيس الذي هو مدار السورة كلها.

---

[1] - سورة الحج، الآية 62.

[2] - بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، (مصدر سابق)، ج1، ص129.

الفصل الثالث

الدراسة الموضوعية لسورة الحج

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: الموضوع الرئيس لسورة الحج.

المطلب الأول: آراء العلماء في الموضوع الرئيس لسورة الحج.

إن كان لكل كلام مفيد مقصدا معينا، ومعنى محددا، فإنه لا يوجد كلام أتّم للمعنى، وأفيد لمتلقيه ككلام رب العالمين، يتضح ذلك من خلال أسلوب القرآن الكريم، في تناوله موضوعات مختلفة، ومتنوعة في أوجز العبارات، وأسمى البلاغات، وأدق البيانات، ولقد تكلمنا سابقا عن الوحدة الموضوعية، وقلنا أن لكل سورة لا شك مقصدا، وموضوعا واحدا تتمحور حوله قضايا السورة، وتدور حوله هداياها، وقد يكون هذا الموضوع سهل المنال، فيمكن لكل قارئ أن يلحظه من خلال تصفحه السورة أول مرة، وقد يخفى حتى لا يكاد يكشف عنه أحد، إلاّ المدققين والمحققين، والجهابذة من المفسرين، وأسلفنا الذكر أيضا عن أن هذا العلم صعب المراس، ووعر المنال، لا يتأتى إلاّ للحذاق، والمحققين من العلماء والمفسرين، ولهذا أعرض عنه كثير من الأولين، فلم يجدوا له طريقا، أو ربما تحدثوا عنه بقصد أو بغير قصد، دون أن يفردوه بمؤلفات خاصة، كما فعل الشيخ برهان الدين البقاعي، وأبو حامد الغزالي، كما ذكرنا في النشأة.

وسورة الحج كباقي سور القرآن العظيم، يتمحور الحديث فيها حول موضوع رئيس، سنتكلم عنه في هذا المبحث.

إن المتتبع لسورة الحج، يلاحظ أول وهلة تعدد موضوعاتها، واختلاف أفكارها، وتنوع قضاياها، فتارة تحدثنا عن القيامة وأهوالها، ومصير المكذبين الذين كذبوا بالبعث، وكفروا بالله ﷻ، وتارة تتحدث عن الحج وأحكامه، وهديه، وأبعاده التاريخية والروحية، ثم تكلمنا عن الجهاد في سبيل الله والإذن فيه، ثم تعود لتذكر بعد ذلك مسألة النبوات، ومصير الأمم الذين كذبوا بالأنبياء، وجزاء المصدقين في الدنيا والآخرة، وتذكر أيضا أدلة الخلق والقدرة والعلم والحلم..وغيرها.

ولكن المدقق في تلك الموضوعات، والمتتبع لألفاظ الآيات، وأجزاء السورة، يلاحظ ذلك الخيط الرفيع، الذي عبر عنه سيد قطب رحمه الله تعالى: بالخيط الدقيق المتين، الذي نظم كلمات الآيات، وآيات المقطع، ومقاطع الدرس، ودروس السورة[1]، ذلك أن المتمعن في سورة الحج يجعله يعيش جوا خاصا من جراء انتقاله من غرض إلى غرض، ومن موضوع فرعي لآخر، إذ يهيئ الأول للذي بعده، ثم

---

[1] – المنهج الحركي في ظلال القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص156، دار الشهاب، الطبعة الأولى، 1986م، الجزائر.

إن تكرار بعض الألفاظ مثل "التقوى"، وكلمة "كذلك" في كل منعطف، وكثرة تردد القلقلة في فواصل الآي، يوحي بأنك تدور في فلك واحد وإن تعددت زواياه.

وأول من يحدثنا عن الموضوع الرئيس لسورة الحج، رئيس هذا المنهج وإمامه، الشيخ برهان الدين البقاعي، حيث يقول: «...ومقصودها – سورة الحج – الحث على التقوى المعلية عن دركة الاستحقاق للحكم بالعدل، إلى درجة إستئهال الإنعام بالفضل في يوم الجمع للفصل...»[1]

يعني ذلك أن الله سبحانه وتعالى يعامل الناس بمستويين بالعدل وبالفضل، وحيث كانت التقوى سببا في رفع الإنسان من درجة معاملة الله له بالعدل، إلى درجة معاملته له بالفضل، فقد حث الله جل جلاله عباده والناس أجمعين ليرتقوا إلى تلكم الدرجة، وهذا من تمام فضله، وإنعامه على خلقه، ليعاملهم بفضله.

ويقول سيد قطب بعد أن ساق مواضيع سورة الحج، من مشهد البعث والعذاب إلى مَثَلِ من يشرك بالله، وحركة من ييأس من نصر الله، ووراء هذا وذاك الدعوى إلى التقوى والوجل، واستجاشة مشاعر الرهبة، والاستسلام تبدأ بها السورة، وتتناثر في ثناياها: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ... ﴾ ، و﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ﴾[3]، وقوله: ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾[4]، وقوله أيضا: ﴿الذّينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ..﴾[5]، وقوله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ...﴾[6]، ذلك إلى استعراض مشاهد الكون، ومشاهد القيامة، ومصارع الغابرين، والأمثلة، والعبر، والصور، والتأملات لإستجاشة الإيمان، والتقوى، والإخبات، والاستسلام...وهذا هو الظل الشائع في جو السورة كلها، والذي يطبعها ويميزها[7]، إذ أن هذه الأمور كلها، إنما تحرك إيمان العبد، بل وهي دليل على إيمانه، فالتذكير بالآخرة، ومشاهد القيامة، ومصير الغابرين، يحرك مشاعر الخوف والوجل والحزن، فيرق قلب العبد عطفا

---

[1] – نظم الدرر، البقاعي، (مصدر سابق)، ج5، ص121.

[2] – سورة الحج، الآية 01.

[3] – سورة الحج، الآية 32.

[4] – سورة الحج، الآية 34.

[5] – سورة الحج، الآية 35.

[6] – سورة الحج، الآية 37.

[7] – في ظلال القرآن، سيد قطب، (مصدر سابق)، ج16/ 17، ص2406 .

وحنانا، على صاحبه فيتواضع لله سبحانه وتعالى، فيحقق بذلك ما أمر به من تقوى، وإنّ التذلّل بالعبادات، كالحج، والجهاد، يحرك الوجدان، ويضاعف قوة القلب، لما لتلك العبادات من تقوية للإيمان، ومضاعفة الأجور...وإن الحديث عن الخلق، واستعراض أدلة القدرة الإلهية، وقوة العلم والحلم، وسلطان الله تعالى على الأشياء، يجعل القلب يتواضع لهذه القدرة، ولجبروتها، فيخضع، ويخنع، ويستسلم، ويسلّم أمره لله تعالى، ويرضى بما قضاه الله تعالى، وفي علمه بقدرة الله تعالى يزداد حلما، وعفوا، فيصفى قلبه، ويسلم من جميع الأمراض، ذلك أن القلب محل التقوى، والإيمان، وبها يفوز صاحبه بالرضى والجنان.

ويحدثنا الشيخ سعيد حوى عن محور سورة الحج في الأساس فيقول: «سورة الحج تفصّلُ قول الله تعالى: ﴿يآيها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الذِّي خَلَقَكُمْ وَالذّينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]، فهي مثل سورة النساء[2]، ومثل سورة هود[3]، إلاّ أن سورة النساء حددت معالم التقوى، وسورة هود حددت معالم العبادة، وسورة الحج تهيج على التقوى، وتبعث عليها...وكما أنها كذلك فإنها أيضا تدل على منعرجات الطريق ومزالقه، وعن الصوارف، وأمثال ذلك»[4]، إذ أنّ السورة ذكرت مصير من يتبع سبيل الشيطان، ومزالق هوى النفس، ومن أعظمها الجدال في الله بغير علم، وهو سبب صرف القلب عن الإيمان، كما أن هذه المنعرجات تحول دون تمكن التقوى من قلوب الناس، كالكبر، وتكذيب الرسل، وعدم الطاعة والاعتراف بقدرة الله تعالى.

ويرى الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في أضواء البيان، أن ما ذكره الله تعالى هنا من الأمر بالتقوى، ذكره في مواضع كثيرة من كتابه[5].

وعلى أساس أن القرآن كله هداية للبشر، فإنه لا تخلو سورة منه من الحث على هذا الأمر العظيم، وهو اتقاء المحارم، وإتيان الحلال، وهو أيضا الأمر الذي يدور عليه القرآن كله، ويتجلى ذلك خاصة في بعض السور التي تبدأ بالتصريح بهذه الكلمة — التقوى – كما في بداية سورة النساء، وفي سورة

---

[1] – سورة البقرة، الآية 21 .

[2] – إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يآيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ النساء، الآية10.

[3] – إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ألّا تعبدوا إلا الله﴾ هود، الآية 02.

[4] – الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام، ط5، 1999م، ج7، ص3520.

[5] – أضواء البيان في تفسير القرآن، محمد الأمين الشنقيطي، طبعة الرئاسة العامة لإدارة البحوث، 1983، الرياض، المملكة العربية السعودية.

الحج، والتي سنراها تتكرر معنا كثيرا في أثناء هذه السورة، وهذا نوع من التناسب يعرف بتناسب بداية السورة مع موضوعها العام، كما ذكر غير واحد من العلماء.

ولا يختلف الدكتور رفعت عبد المطلب عن سابقيه في تحديد الغرض العام الذي سيقت له سورة الحج، فيقول في كتابه: "الوحدة الموضوعية" ما يلي: «سورة الحج تعالج موضوع الطاعة لله تعالى، الذي أنعم وتفضل، طاعة تصل إلى درجة التقوى، والمراقبة، كي ينجى الناس من عذاب ربهم»[1].

ويساعدنا أيضا في تحديد الموضوع الرئيس للسورة الحج بعض الأمور التي لها علاقة مباشرة بالموضوع العام، مثل دور مطلع السورة، وخاتمتها، وعلاقة تلك المقاطع بعضها ببعض، وكذا علاقة السورة بالتي قبلها والسورة التي بعدها كما سنرى في المطالب الآتية.

المطلب الثاني: وجه تسمية السورة، ودوره في تحديد الموضوع الأساسي لها.

لقد رأينا سابقا أن هذه السورة قد سميت سورة الحج على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ناسب هذا الاسم موضوع السورة باعتبار أن السورة قد سُميت بأحد مواضيعها الرئيسية – الحج – فإن موضوع الحج في السورة جاء لخدمة الموضوع العام لها، بدليل أنه لم يذكر كثيرا من التفاصيل عن مناسك الحج، إلا ما كان له تعلق بالجانب العقائدي في هذه العبادة، مثل تطهير البيت من الشرك وعبادة الأوثان، والأمر بحج بيت الله الحرام لإقامة الشعائر وتعظيم الحرمات، مع بيان المغزى الحقيقي والمقصد المطلوب من تقديم الهدي والذبائح، وهذا وإن دل إنما يدل على أن الموضوع العام للسورة هو تقوى الله تعالى، لأن اختيار الله لهذه العبادة التي تعتبر زبدة العبادات، وهي خاتمة المسك بالنسبة للأركان الأخرى، لاحتوائها على جميع أشكال العبادات الأخرى مثل الركوع والسجود، والصدقات للفقراء، والصوم، والهدي، فضلا عن التهليل والتكبير والحمد والشكر وغيرها، ومعلوم أن الله قد أراد منا بهذه العبادات والأركان تحقيق العبودية له من غير إشراك، وهذا هو عين الإيمان الحقيقي الذي أمر به عباده في قوله في بداية السورة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[2]، إذ تُعتبر التقوى هي قمة الإيمان، وهي الموضوع الرئيس للسورة، والله أعلم.

---

[1] – الوحدة الموضوعية للسور القرآنية، رفعت فوزي عبد المطلب، الطبعة الأولى، ص59، دار السلام للطبع، 1986م.

[2] – سورة الحج، الآية 01.

المطلب الثالث: دور المطلع في تحديد الموضوع الرئيس لسورة الحج.

إن لمطلع السورة دورا كبيرا في تحديد الموضوع الرئيس لها؛ ذلك أن كل كتاب أو خطبة توحي مقدمتها بما فيها، وهي دليل على ما تحتويه من معاني، حيث تأتي المقدمة مجملة، يفصلها ما يُعرض في صلب الموضوع، كما هو الشأن في القرآن الكريم، وأوضح مثال على ذلك فاتحة الكتاب حيث جاء فيها علم الكتاب كله مجملا عاما لتأتي بعد ذلك بقية السور تفصل ما أُجمل هناك، وتخصص ما عُمم في المقدمة.

ولقد تحدثت سورة الحج في مطلعها عن التقوى بفتتاحها بنداء الناس جميعهم لامتثال أوامر الله، والأخذ بالتقوى التي تنجيهم من عذاب الله، وهو الموضوع الذي تناولته سورة الحج، حيث أمر الله عز وجل بها في بداية السورة، وخوفهم لأجل تحصيلها بالزلزلة وأهوالها، ثم أردف أدلة على وقوعها موجهة للذين شكوا وارتابوا في قيام الساعة، وذكر أصنافا من الناس قد فعلوا ذلك فنالوا الخزي في الحياة الدنيا، والعذاب والخسران في الآخرة، لأنهم لم يتقوا و لم يتبعوا الرسل الكرام، بل اتبعوا أهوائهم وشياطينهم، فضلوا طريق الهداية، كما بين الله تعالى طرق الهداية الحقيقية متمثلة في إتباع الرسل والأنبياء، الذين ورَّثوا العلم الصحيح، وبينوا الأحكام والعبادات وعلموا الناس الدين الصحيح، الذي أمر الله به عباده المؤمنين بعد أن بيّن لهم أدلة قدرته وقوته، وأوضح ضعف المخلوق وقلته، فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ وهو قلب العجز على الصدر الذي مطلعه: ﴿يأَيهُّاَ النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾.

وكذلك افتتاح السورة بالنداء دليل على أن الكلام الذي يأتي بعده موجها ومهما للمنادى، فقوله: (يأيها الناس) نداء عام لجميع العقلاء المكلفين من عرب وعجم سواء بسواء، ذلك باعتبار أن جميع الناس مكلفين بفروع الشريعة، ولما كان الكلام موجها لهذا الجم الغفير من البشر، كان لا بد أن يخاطبهم بأمر عظيم أيضا، وهو هنا تحصيل المستوى الأكبر من التقوى، التي تعتبر من أعظم الأسباب التي تدخل الجنة وتباعد عن النار، وتبدو تلك الصلة بين النداء بالتقوى والحث عليها، وموضوع السورة واضحة جلية، حيث قررنا سابقا أن المحور الأساسي لسورة الحج هو التقوى، وذلك واضح من خلال مطلع السورة .

المطلب الرابع: الآيات المدنية والمكية وعلاقتها بالموضوع الأساسي لسورة الحج.

رأينا سابقا أن آيات سورة الحج قد امتزجت بين المكي والمدني، وهذا التنوع في آياتها بين مدني ومكي جاء مناسبا تماما لموضوع السورة التي تأمر بالتقوى، حيث ساعد في تحديد موضوعها، ذلك أن الأمر بالتقوى يقتضي منا أولا الإيمان بالله واليوم الآخر البعث ومصير العباد بعد الموت وبالجنة والنار، وغيرها من أمور الغيب، وهذا ما جرى عليه القرآن المكي من الحديث عن العقيدة والدعوة إلى التوحيد وترك الشرك بالله، وإفراده تعالى بالعبادة..وغيرها.

ويقتضي ثانيا تحقيق العبودية لله وحده، فبين لهم ما يتقون وكيف يتقون، وذلك بتشريع العبادات وتفاصيلها، وكيفيتها، وكل ما يتعلق بها، وهذا ديدن القرآن المدني الذي جرت عليه العادة بذكر التشريعات عموما وتفاصيل العبادات والأحكام.

وهذا ما نجده في سورة الحج حيث كما قلنا تنوعت آياتها بين مكي ومدني، وبذلك تتضح لنا مناسبة إزدواجية نوع الآيات واختلافها في مثل هذا المقام الذي يخدم موضوع السورة، والله أعلم.

المطلب الخامس: جو ومناسبات النزول، ودوره في الكشف عن موضوع السورة الرئيس.

رأينا سابقا أسباب نزول بعض آيات سورة الحج، والسؤال المطروح هنا هل معرفة تلك الأسباب تعين المفسر على كشف الموضوع الأساسي للسورة؟ هذا ما سنجيب عليه في هذا المطلب.

عند التدقيق في هذه الآيات وفي أسباب نزولها يتبين لنا أن تلك المعاني التي تحملها هذه الآيات تخدم موضوع التقوى الذي هو عمود السورة الرئيس، فبيان تلك الأصناف من الناس في قوله: (ومن الناس من يجادل)، وذكر الشخص الذي نزلت فيه، سواء كان النضر بن الحارث، أو أي إنسان آخر من الذين جادلوا في الله بغير علم، أو أحدا قد سلك هذا المسلك أو انتهج هذا النهج في الجدال في الله. فالعبرة بالمقاصد والمعاني، وهو هنا كل إنسان تشبه بهذا الذي نزلت فيه الآية، فهو إمام الناس في ذلك، وهو قدوتهم وأسوتهم، ففائدة معرفة من نزلت فيه الآية هو أن يتجنب المسلم ما وقع فيه الأولون، ويبتعد عن كل خلق قبيح كانوا يفعلونه، حتى لا يشبه حالُهم حالَهم، فلا يصيبه ما أصابهم، أو ما جاء في قوله تعالى:(ومن الناس من يعبد) الذي قيل أنها نزل في يهودي، أو بيان مصير المتخاصمين في الله في قوله: (هذان خصمان)، وهم الستة الذين تقابلوا يوم بدر بسيوفهم، ففريق منهم يمثلون التقوى والإيمان فهم يوم القيامة من الفائزين باعتبار أنهم يمثلون أنموذجا أو مثالا عن المتقين، وفريق منهم يمثلون الكفر وأهله، فهم يوم القيامة من الخاسرين باعتبار أنهم يمثلون أئمة الكفر والفجور، أو إيذان الله في القتال

للمتقين عندما أُخرجوا من مكة بغير حق، في قوله: (أُذن للذين يقاتلون)، وتسلية رسول الله في تذكيره بسنة الله في الغابرين، بهلاك الكفار ونصر المتقين ودفاع الله عن دينه وحفظ أنبيائه من كيد الشيطان في قوله: (وما أرسلنا من قبلك)، وحديث الله عن العفو وقرنه بالنصر، وحديثه عن سنة دفاعه عن البيت الحرام، ومصير من يلحد فيه بإلحاد، متمثلا في أحد من الهاجرين.حيث قتل فيه رجلا من الأنصار، وتعد حدود الله، أو ترخيص الله للذين كانوا لا يحجون البيت إلا على أرجلهم في اقتناء المركب للحج، وبيان حقيقة القربات وحقيقة الذبح، وكيفية الهدي والحكمة منه، كل ذلك من أجل تثبيت مفهوم التقوى، وتصحيح طريق تحصيلها، وكل هذه المعاني ومناسبات نزولها تؤكد هذا المعنى وتزيده قوة ووضوحا.

وإن نزول بعض هذه الآيات في بعض الناس خاصة، لا يعني أن غيرهم ليسوا معنيين بها؛ بل هي موجهة لكل من وقف موقفهم من دين الله عز وجل، أو اتصف بوصفهم، ولهذا على قارء القرآن أن يتصور حال قراءته لهذه الآيات أنه هو المخاطب بها، وكأنها نزلت عليه، حتى يمكنه تدبرها والتمعن فيها فيفهمها فهما صحيحا ومن ثم يطبق ما جاء فيها وما أمر به، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذه الآيات تصب في موضوع عام واحد هو أمر الله بالتقوى، ولا يزال الكلام يتواصل عن بعض المؤشرات التي تعين على كشف الموضوع الأساسي للسورة، مثل مكان وزمان النزول..وغيرها.

المطلب السادس: علاقة موضوع السورة بالقرآن الكريم:

إن من أهم المواضيع في القرآن الكريم كله، هو موضوع التقوى، وهو في الحقيقة محور القرآن كله، لأن التقوى هي الفيصل بين المسلم والكافر، فمن حققها من الناس فقد حقق الغاية من وجوده، وتمكن من إعطاء حق الله الذي فرضه عليه، وأتمر بأمره، فهو في الآخرة ممن وعدهم الله بالفوز والنجاة، ومن كابر وعصا، ولم يحقق ما أمر به، وكلف به، فقد خسر الدنيا والآخرة، وسيصلى نار جهنم وبئس المصير.

يقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فأمر الناس بعبادته عز وجل، وبين لهم الغاية من خلقهم فقال في سورة الذاريات: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)، وربط في الآية السابقة مسألة العبودية بتحقيق الغاية منها وهي التقوى التي أمر الله بها عباده في سورة الحج في الآية الأولى منها حيث قال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا

رَبَّكُمُ﴾، وقال في سورة النساء: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾، ليعيد ذكر وبيان أن أفضل شيء عرفه العبد في الدنيا هو معرفة الله تعالى، وذلك بتحقيق التقوى وتحصيل الإيمان، حيث بين الله هذه الحقيقة في قوله تعال من سورة الأعراف: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[1]، حيث جعل الخير كله في ذلك، وأمر الله بالتعاون على تحقيقها فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ﴾، بل وإن الله لا ينفعه شيء من عبادتنا، ولا تضره معصيتنا، إنما هي أعمالنا يحصيها لنا، قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾، وبين الله تعالى من أحق الناس بالتقوى، فقال عن الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا أنهم هم أحق الناس بها، وإن الذين استكبروا في الأرض سيفوتهم خيرا كثيرا، فلا يمكنهم أن يحققوا هذه النعمة، وهذه التقوى التي بها نجاتهم يوم القيامة، فقال: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[2]، وهؤلاء المؤمنون الذين لا يتناجوا بالإثم والعدوان؛ بل لا يتناجون إلا بالبر والتقوى، كما قال تعالى في سورة المجادلة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[3]، وقد بين الله تعالى أن هذه التقوى فضل من الله تعالى، بل هو صاحب التقوى، يعطيها من يشاء ويمنع منها من يشاء، والقلوب بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾[4]، وليس فقط تحقيق التقوى بل الدعوة إلى تحصيلها هي زيادة في الإيمان وعلو في الدرجة عند الله، كما أن الصد عن تحصيلها يعتبر بعدا عن الإيمان، قال تعالى في سورة العلق، وهو يربط بين الخلق والعلم، وقيمة تحصيل هذا الأمر، ويميز بين فريقين فريق قرأ وتعلم

---

[1] – سورة الأعراف، الآية 26.

[2] – سورة الفتح، الآية 26.

[3] – سورة المجادلة، الآية 09

[4] – سورة المدثر، الآية 56.

فعرف، فهو يدعو للإيمان وتحصيله، قد حقق الإيمان والهدى، وفريق لم يقرأ و لم يتعلم، وضل سواء السبيل، وصد عن الهدى، فهو في النار يتلجلج، ثم ختمت الآية بسجدة فيها عبودية من جهة وشكرا لله تعالى من جهة أخرى، كما كانت سجدة الحج فضلا من الله، وتذكير بنعم الله تعالى، كما قلنا سابقا.

وفي هذا المطلب التفاتة رائعة لعلاقة سورة الحج مع السياق العام للقرآن، وكذا علاقة مطلعها بخاتمتها، ودوره في تحديد الموضوع العام للسورة، تثبت براعة التناسب في القرآن، ومدى دقة علاقات محاوره ومواضيعه، وأنه كل لا تنفصم عراه، ولا تختلف بناه، كالبنيان يشد بعضه بعضا، إذ تظهر هذه الصلة مع السياق العام للقرآن، المتمثل في المحور الهدائي في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يأيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الذِّي خَلَقَكُمْ وَالذِّينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَقُونَ﴾[1]، وفي قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿إياكَ نَعْبُدَ﴾[2]، إذ الأصل من وجود الإنساني على الأرض: تحقيق العبودية الحقيقية الصحيحة لله وحده لا شريك له، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونَ﴾[3]، وإن الأمر بالعبادة، يعني اتقاء المحارم، كما جاء عن أبي هريرةﷺ، قال: قال رسول اللهﷺ: "اتق المحارم تكن أعبد الناس"، فقرر هذا الحديث أن العبادة هي التقوى، ونُجمل الكلام في خطوات فنقول:

الأول: كما جاء في سورة البقرة الحديث أيضا عن تفصيل هذه العبادات، إذ تحدثت عن أربعة وعشرين حكما، والتي حث عليها المولى تبارك وتعالى في أواخر سورة الحج، وحث عن التقوى في بدايتها، وهذه أول صلة واضحة، بين السورتين.

الثاني: كما أن التذكير في سورة الحج بفضل أمة محمدﷺ، في قوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿...هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْل...وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ..﴾[4]، وأن الله قد اختارها لهذه الرسالة الكبيرة، والأمانة العظيمة، هو تذكير بما جاء في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[5].

---

[1] – سورة البقرة، الآية 21.

[2] – سورة الفاتحة، الآية 4.

[3] – سورة الذاريات، الآية 56.

[4] – سورة الحج، الآية 78.

[5] – سورة البقرة، الآية 143.

الثالث: جاء التذكير في سورة الحج بفريضة الحج، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ..﴾[1]، وهو تفصيل لجانب من الشعائر التي أجملت في سورة البقرة، كما في قوله: ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ...﴾﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ...﴾[2] وهو إجمال يبحث عن تفصيل، كما في الحج إجمال فيما فُصل في البقرة، كالذي سبق، من إجمال العبادات في أواخر الحج، للتفصيل الموجود في البقرة، وفي بعض أعمال الحج، كما في قوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾[3]، حيث فصلت هذه الأعمال في البقرة، نحو الحديث عن العمرة، والصفا والمروة، والطواف، والصيام.. الخ.

الرابع: وعن ذكر الخليل إبراهيم في السورة، باعتبار علاقته ببناء البيت، وعلاقته بأصل تشريع هذه الفريضة، فقد جاء أيضا في سورة البقرة تفصيل هذا البناء، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ...﴾[4]، وقوله: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[5]، إذ أمره في البقرة بالبناء وبالتطهير المادي للبيت، وجاء في الحج قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[6]، حيث أمره ربه بإخلاص التوحيد، وإقامة الشعائر.

---

[1] – سورة الحج، الآيات: [26،27،28،...37].

[2] – سورة البقرة، الآيتان 198/ 199.

[3] – سورة الحج، الآية 27.

[4] – سورة البقرة، الآية 127.

[5] – سورة البقرة، الآية 125.

[6] – سورة الحج، الآية 26.

المبحث الثاني: الدراسة الأسلوبية للسورة

مقدمة: أسلوب سورة الحج

إمتزج أسلوب سورة الحج بين الخبر والإنشاء، حيث ناسب هذا التمازج في الأسلوب موضوع السورة التي تدعو الناس لتقوى الله تعالى، وتخبرهم بحالهم يوم القيامة وحال من أعرض عن ذلك، وقد إفتتحت سورة الحج بأول آية منها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، وذُيلت هذه الآية بالكلام عن زلزلة الساعة، وما يحدث فيها، وأنها شيء عظيم.

ثم تتابع وصف الناس في تلك اللحظات من ذهول المرضعات عن أولادهن، ووضع الحوامل حملهن، وكون الناس في ذلك الوقت حالهم يشبه حال السكارى، وما هم بسكرانين ولكنه العذاب الشديد.

ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن قسم من الناس في الآية الثالثة، مفتتحة بتقسيم للناس على ما هو في هذا المحل وعلى ما يأتي فيما بعد، فبيّنت هنا أن من الناس من يجادل في الله بغير علم.

ثم يتكرر هذا الأسلوب وبنفس العبارات في الآية الثامنة، وهو قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾.

كما يتكرر أسلوب "ومن الناس" مرة ثالثة، ليشير إلى نوع آخر من الناس جديد، هو قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾، وقد قصد بهم المنافقين كما قال المفسرون.

والمقصود بهذا التكرار إنما هو لبيان حقيقة أنواع الناس الذين كذبوا، وأحوالهم في ذلك، فهم بين ضال عن جهل وإتباع هوى، وبين مضل قد أضله الله على علم، ومنافق ومشرك، وقد تفرق التعريف بهم والحديث عنهم، وعن مصير كل واحد منهم في السورة كلها، كل هذا من أجل أخذ الحذر والحيطة من الوقوع في مثل ما وقعوا فيه من التكذيب والانحراف والزيغ، لكي لا تكون الخاتمة كخاتمتهم ولا الجزاء كجزائهم.

ويساعد هذا التكرار أيضا في إبراز موضوع من مواضيع السورة الجزئية، وهو الحديث عن أصناف من الناس المكذبين بالبعث، والذين لم يستجيبوا لنداء التقوى، لأن خطاب الله في سورة الحج موجها للناس كلهم، وهذا القسم هو نوع من أنواع الناس الداخلين تحت الخطاب الأول الذين لم يستجيبوا لربهم، وجادلوا في الله بغير علم، و لم يتقوا الله حق تقاته فحق عليهم العذاب، والله أعلم.

ثم يأتي الاستدلال على البعث بضرب الأمثلة على ذلك من خلال خلق الناس والنبات. لكي يتسنى الناسُ المخاطبون على حقيقة ما هم فيه وما يؤولون إليه، من قيام الناس بعد الموت للحساب، فمن آمن فمصيره الجنة، ومن كفر فمصيره النار.

ثم يقر الله حقيقة وهي أن جميع المخلوقات قد أودع الله فيهم فطرة الإيمان به، وهذا ما نستشفه من الآية التي فيها سجدة، حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[1]، والمقصود ألم تعلم يا محمد، أن كل مخلوق هو معترف بالله، قد خلقه بالفطرة مسبحا ساجدا راكعا، لكن بعض الناس قد كابر وعاند، و لم يقر بلسانه بهذه الحقيقة، ويأبى أن يركع لله ويسجد، رغم أن جوارحه لو نطقت لسبحت بحمد ربها، وما عصيانه هذا إلا أنني خلقته حرا عاقلا مفكرا، ولو تفكر في نفسه لعلم أن هذه الحرية وهذا الإختيار إنما هو نعمة من الله ومنه، ولكنه صير كل هذا إلى هلاك وفساد، رجع عليه بالخزي والمهانة في الدنيا والآخرة، وهذا المعنى قد جاء في سورة الأعراف في آية العهد كما يسميها العلماء، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـذَا غَافِلِينَ*أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ* وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2]، حيث أخذ الله العهد على الناس وهم في مرحلة الذر، وألزمهم بذلك الحجة.

ويرى سيد قطب في هذا المقطع أو الشوط أنه: «يبدأ بالنداء العام، نداء الناس جميعا إلى تقوى الله، وتخويفهم من زلزلة الساعة، ووصف الهول المصاحب لها، وهو هول عنيف مرهوب، ويعقب في ظل هذا الهول، باستنكار الجدل في الله بغير علم، وإتباع كل شيطان، محتوم على من يتبعه الضلال، ثم يعرض دلائل البعث من أطوار الحياة، في جنين الإنسان، وحياة النبات..ويربط بينها وبين أن الله هو الحق...وكلها سنن مطردة، وحقائق ثابتة، متصلة بناموس الوجود...، ثم يعود إلى استنكار الجدل في

---

[1] – سورة الحج، الآية 18.

[2] – سورة الأعراف، الآيات: 172، 173، 174.

الله، بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير، بعد هذه الدلائل المستقرة في صلب الكون، وفي نظام الوجود،... وينتهي هذا الشوط بتقرير أنّ الهدى والضلال بيد الله، وأنه سيحكم بين أصحاب العقائد المختلفة يوم الحساب...وهنا يعرض ذلك المشهد العنيف من مشاهد العذاب للكافرين، وإلى جواره مشهد النعيم للمؤمنين»[1].

ثم يأتي الحديث عن الحج، وعن بيت الله الحرام، حيث أمر الله تعالى إبراهيم الخليل بتهييء هذه الديار لتصلح للعبادة، وبتطهير هذا البيت من الشرك والكفر، فكانت سنته النداء في الناس بزيارة هذا البلد الآمن، لإقامة الشعائر، وتعظيم الحرمات، بتقديم القُربات، وذبح الهدي لله، وغيرها من المناسك التي أرادها الله ليطهر بها قلوب المؤمنين، ليحصلوا بها التقوى.

ويربط سيد قطب بداية هذا الشوط بالشوط السابق فيقول: «ويتصل الشوط الثاني بنهاية الشوط الأول، بالحديث عن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله، والمسجد الحرام، ويستنكر هذا الصد عن المسجد الحرام، الذي جعله الله للناس جميعا،...وبهذه المناسبة يذكر طرفا من قصة بناء البيت، وتكليف إبراهيم عليه السلام أن يقيمه على التوحيد، وأن يطهِّره من رجس الشرك، ويستطرد إلى بعض شعائر الحج، وما وراء ذلك من استجاشة مشاعر التقوى في القلوب، وهي الهدف المقصود، وينتهي هذا الشوط بالإذن للمؤمنين بالقتال، لحماية الشعائر والعبادات من العدوان الذي يقع على المؤمنين، ولا جريرة لهم إلا أن يقولوا: ربنا الله»[2].

ثم يشرع الله للمؤمنين القتال في سبيله لصد العدوان من جهة، ولحماية المقدسات من جهة أخرى، وليس إعطاء الله الإذن بالجهاد حبا في القتل والدم؛ بل غايته الدفاع عن الحقوق المسلوبة، وطلبا لحرية الاعتقاد والتدين، ويقول الشيخ علي الصابوني في هذا المعنى: «ثم تناولت السورة مشروعية القتال في الإسلام..لا حبا في سفك الدماء بل دفاعا عن النفس، ضد الظلم والطغيان»[3].

ثم يأتي الكلام على الأمم الذين كذبوا من قبل، وكيف كان مصيرهم، وقص حكايتهم مع أنبيائهم، بين سنته فيهم وفي الذين آمنوا، وفيها تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم، وتطمين للمؤمنين على أن الله ناصرهم ومؤيدهم، ولن يخلف الله وعده، كما ذكرت الآية الشريفة فضل الله على أنبيائه

---

[1] – الظلال، سيد قطب، (مصدر سابق)، ج4، ص2409 بتصرف قليل.

[2] – الظلال، سيد قطب، (المصدر نفسه)، ج4، ص2410.

[3] – إيجاز البيان في علوم القرآن، محمد علي الصابوني، ص96، دار الصابوني، الطبعة الثانية، 1986م.

يحفظه لهم من وساوس الشياطين المضنية، وأنفاثهم السامة، وهو زيادة في التسلية، والاطمئنان، وسار في هذا الشأن العلامة سيد قطب: «وأمّا الشوط الثالث فيتضمن عرض نماذج من تكذيب المكذبين من قبل، ومن مصارع المكذبين، ومشاهد القرى المدمرة على الظالمين، وذلك لبيان سنة الله في الدعوات، وتسلية الرسولﷺ، عما يلقاه من صد وإعراض، وتطمين المسلمين، بالعاقبة التي لا بد أن تكون. كذلك يتضمن عرض طرف من كيد الشيطان للرسل والنبيئين في دعوتهم، وتثبيت الله لدعوته، وإحكامه لآياته، حتى يستيقن بها المؤمنون، ويفتن بها الضعاف والمستكبرون»[1].

ثم يأتي الحديث بعد كل هذا عن ضرب بعض الأمثال وعن التأكيد مرة أخرى على ضعف الآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله، وتذكر بما نبهت إليه في بداية السورة، وهو النداء الخاص للمؤمنين بأن يتقوا الله تعالى، يقول الطاهر بن عاشور: «وختمت السورة بتذكير الناس بنعم الله عليهم، وأن الله اصطفى خلقا من الملائكة ومن الناس، فأقبل على المؤمنين بالإرشاد إلى ما يقربهم من الله..»[2]، ونلاحظ تناسبا كبيرا بين مفتتح سورة الحج ومختتمها، الذي نتحدث عنه في مبحث خاص.

وبعد هذا الإجمال الذي ذكرناه هنا نأتي لنفصل في أساليب هذه السورة، من ناحية التكرار لبعض الألفاظ المشتركة في الحروف، وبعض الصيغ والتراكيب اللغوية، وكذا دلالة بعض الاستعمالات البيانية، كصيغ المبالغة، واستعمال اسم الإشارة، وغيرها.

المطلب الأول: فواصل آي سورة الحج

إن من بلاغة القرآن وعلامات إعجازه سواء من ناحية النظم والشكل، أو من ناحية المعنى والمقصد، تلك الحروف التي يختم بها القرآن أواخر آياته، من كلمات وأحرف هي معجزة في ذاتها، فكيف إذا ما قُرنت بجمل وتراكيب لغوية بديعة، وعبارات بيانية رائعة، حتما سيزيدها ذلك رونقا في الشكل، وقوة في المعنى، من جراء ذلك الترابط الذي يزيدها متانة وجزالة، ويفرغ عليها حلة الإعجاز، فيصدق فيه قول الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[3]، ومن أهم علامات

---

[1] – الظلال، سيد قطب، (مصدر سابق)، ج4، ص2410.

[2] – التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مصدر سابق)، ج16/ 17، ص183-184.

[3] – سورة هود، الآية 01.

إعجازه، الفواصل التي عرفّها السيوطي في الإتقان فقال عنها: «الفاصلة كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع»[1].

وقال أيضا: قال الداني: هي: «كلمة آخر الجملة»[2]، والفواصل – في نظر الرماني – حروف متشاكلة في المقاطع، توجب حسن إفهام المعنى[3].

قال الرماني[4] في كتابه: النكت في إعجاز القرآن: «والفواصل: هي تتبع المعاني، ولا تكون مقصودة في نفسها».

ولا يراد بالفاصلة القرآنية مراعاة الحروف فحسب، وإنما يراد المعنى قبل ذلك، ويلتقي الحرف بالمشاهة اللفظية مع المعنى، وأحياناً لا يراعي القرآن الكريم الفاصلة؛ بل قد تأتي مغايرة عن غيرها، وهذا دليل على أن المقصود بالدرجة الأولى هو المعنى.

فالقرآن يُعنى بالانسجام الموسيقي للفاصلة القرآنية لحد بعيد، مثل قوله تعالى: ﴿لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[5]، وقوله أيضا: ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾[6]، بل ويمد فيما يُرى أنه لا مد فيه، كقوله: ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ﴾، وقوله تعالى: ﴿قَوَارِيرَا﴾[7]، وليس التقدم والتأخير، أو الخروج عن بعض ما لا ترومه اللغة، هو لأجل مراعاة الفاصلة؛ بل هو مراعاة للمعنى، ومنه تناسب الفاصلة مع الكلمات والموضوع، فالقاعدة الأساسية في فواصل الآيات أن فاصلة الآية متوافقة مع كلماتها ومتناسبة مع موضوعها، فآيات البشارة تختم بالرحمة، وآيات التهديد تختم بالترهيب، وآيات التخويف تختم بالرجاء...وهكذا.

---

[1] – الإتقان في علوم القرآن، (مصدر سابق)، ج1، ص213.

[2] – المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

[3] – أبو الحسن الرماني، ومفهومه للإعجاز القرآني، للدكتور: أحمد جمال الدين العمري، ص07.

[4] – هو علي بن عبد الله أبو الحسن الرماني الإخشيدي الوراق، ولد الرماني سنةست وتسعين ومائتين للهجرة ببغداد أو سامراء، وشغل بطلب العلم وتحلق في حلقات شيوخ عصره مثل أبي بكر ابن دريد، وأبي بكر السراج. والزجاج. وغيرهم من أساتذة اللغة والنحو، صنف الرماني مجموعة ضخمة من المصنفات والمؤلفات، قدرها بعض المصادر بما يقرب من مائة كتاب، معظمها في علم النحو، مثل: "النكت في إعجاز القرآن"، و"ألفات القرآن"، و"شرح معاني القرآن للزجاجي"، و"شرح كتاب سيبويه"، وهي أكثر من 100 مؤلف. انظر: طبقات النحويين، (مصدر سابق)، ج1، ص211.

[5] – سورة الفرقان، الآية 01.

[6] – سورة الفرقان، الآية 02.

[7] – سورة الإنسان، الآية 15.

ويبدو من خلال تتبعي للفواصل في سورة الحج أنه قد اختلفت فواصل آياتها وتنوعت بين حروف اللين والاستعلاء وحروف الغنة والقلقلة، حسب ما اقتضاه المقام، «ومجموع فواصل آياتهـــا: (انـــتظم زبرجد قط) على الهمزة منها في قوله: ﴿إنّ الله يفعل ما يشاء﴾[1] »[2].

وتفصيل ذلك كما سيأتي:

لقد حاولت بقدر طاقتي أن أكتب في موضوع الفواصل في سورة الحج، ولست أزعم أنني وفيت ما فيها من معاني، ومن لطائف تخدم موضوعات سورة الحج، ولعلي فتحت بابا للبحث عن الفاصلة في سورة معينة، حتى يأتي من يواصل هذا الجهد من طلبة العلم، ولهذا حاولت أن أتتبع فواصـــل ســـورة الحج، فلاحظت أن حروف القلقلة قد تكررت في السورة خمسة وعشرين مرة، وهي: الدال والقاف والجيم والباء والطاء، كلها في نصف السورة الأول، من الآية الأولى إلى الآية الخامسة والأربعين، نحـــو شديد، مريد، الحريق، العبيد الجلود، ثمود، لوط...الخ، وقد ناسب هذا الترتيبُ الحديثَ في بداية المقطع الأول عن الأهوال والزلزال الذي توعد الله به الناس الذين لم يؤمنوا بالبعث، ولم يحققوا التقوى الـــتي أمرهم الله بها في أول السورة في قولـــه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَـــةَ انـــسَّاعَةِ شَـــيْءٌ عَظِيمٌ﴾[3]، ولاتصاف هذه الحروف بصفات الشدة والقوة، فقد ناسب تذييل الآيات بهـــا، وذلـــك لتخويف الناس وحثهم على التقوى التي هي مدار حديث السورة كلها، لما في هـــذه الحـــروف مـــن صفات توحي بالتقريع والزجر والتخويف والتهويل، كما سنؤكده بعد قليل.

وتكررت حروف الهمس أيضا بنفس العدد، وهي: حرفا النون والميم، وقد جاءت، كلها تقريبـــا في الجزء الثاني من السورة، أي من الآية السادسة والأربعين إلى الآية الثامنة والسبعين، يعني إلى آخر سورة الحج، وإذ تقتضي تلك الحروف الخفة واللين والرخاوة والاستفال، فهي أنسب أن تـــأتي في موضـــع الحديث عن تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم، وإرجاء مصير الكفار إلى يوم القيامة، وإمهال الذين لم يُؤمنوا حتى تتضح لهم الآيات، وحتى يتوبوا إلى الله عز وجل، ولهذا الإرجاء والإمهال تلميح في قوله تعالى في الآية الثامنة والأربعـــين: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وقوله في الآية التي بعدها: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِـــيَ

---

[1] - سورة الحج، الآية 18.

[2] - بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، (مصدر سابق)، ج1، ص323.

[3] - سورة الحج، الآية 01.

ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ ثم يقول في التي بعدها: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.... وهكذا، كل الآيات بعدها بنفس الأسلوب، طبعاً هذا يخدم الدعوة إلى الله، وإلى تحصيل وتثبيت الإيمان والتقوى ويهدي إلى الطريق المستقيم، وذلك بإمهال العصاة والكفار، وإعطائهم فرصة من الوقت الكافي لمراجعة العقل والنفس، كما قال تعالى في الآية الرابعة والخمسين: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقوله تعالى في الآية السادسة والخمسين: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، وكل هذا يستدعي أن يكون أسلوب القرآن أسلوب لين وبيان في مثل هذه المواقف، لا سيما المواقف التي يتعلق بها مصير الناس يوم القيامة، ليتمكن القاصرون والجاهلون من اللحاق بركب المؤمنين الذين أمرهم ربهم بالاستقامة والمشي على صراطه المستقيم، ومن ثم إقامة العبودية والطاعة، وهذا من تمام رحمة الله عز وجل بعباده.

ثم أن تكرار حرفا النون والميم يحدثان غنة في مخارجهما، فترى فيهما أنّةٌ من نذم وموسيقى من حزن، وحسرة على الكافرين، في الفواصل مثل: الجحيم، وعقيم، ومهين.....الخ.

وفيهما أيضا بالمقابل بشرى وأمل وسعادة ونعيم بالنسبة للمؤمنين، في مثل قوله: ﴿رزق كريم﴾، و﴿هو خير الرازقين﴾ و﴿وإن الله لرؤوف رحيم﴾ و﴿لعلكم تفلحون﴾...الخ.

ومما زاد هذا المعنى وضوحا تكرار فاصلة الراء التي أعيد ذكرها هي الأخرى خمسة وعشرين مرة، نفس عدد ذكر الفواصل الأخرى، فذُكرت إحدى عشرة مرة في المقطع الأول، وأربعة عشرة مرة في المقطع الثاني، حيث تخللت آيات العذاب والوعيد مرات قليلة، وتخللت آيات النعيم والإرجاء والمصير والعفو مرات كثيرة، وذلك والله أعلم لخلق توازن بين آيات السورة كلها؛ آيات العذاب وآيات النعيم بطريقة لطيفة رائعة قل من ينتبه لها أو يحس بها، ذلك أن حرف الراء وهو من الحروف المستفلة؛ إلا أن العلماء شبهوه بحروف الاستعلاء التي تقتضي التصعد والقوة، وهو ليس بحرف استعلاء ولكنه قريب منها، قال ابن بري[1]:

ورقق الأولى لـــه في بشرر ولا ترققها لـــدى أولي الضرر

---

[1] – درة المتون في قراءة الإمام نافع، ابن بري، شرح: أحمد رحماني، دار الامام مالك،1420هـ، 1999م، طبعة، الجزائر، ص125.

إذ غلب الموجب بعد النقل حرفان مستعـــلٍ وكالمستعلي

والمقصود بالمستعلي: حرف الضاد، وكالمستعلي: حرف الراء من قوله "أولي الضرر".

فتخلُلُ هذه الفاصلة الفواصل الأخرى يخدم المعنى جيدا، وهو يحافظ من جهة أخرى علـــى ذلـــك التوازن والانسجام في موسيقى السورة إن صح التعبير، وفي بناء نظم السورة من أولهـــا إلى آخرهـــا، فأحيانا تستعمل هذه الفاصلة في الوعد والوعيد كما في قوله في الآية الرابعة: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَـــن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، وكما في قوله في الآية السابعة: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَـــثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ وقوله معنفا الذين يشهدون الزور في الآية الثلاثين: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾، وأحيانا أخرى بل وفي أكثر الأحيان في الإرجاء والإمهال والدعوة إلى التثبت وإعمال العقل للرجوع إليه عز وجل: وذلك في مثل قوله في الآية التاسعة والخمسين: ﴿وإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، وقوله أيضا في الآية الثانية والستين: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾...وهكذا.

بالإضافة إلى أربعة فواصل وهي حرف الظاء في الآية الخامسة عشرة، والهمزة في الآية الثامنة عشرة، والزاي في الآية الأربعين، والآية الثالثة والسبعين، وقد تفرقت في السورة كلها، محدثة زيادة في التوازن والتشاكل، ومبينة أن المعنى هو الفيصل وليس شيئا آخر.

وأما تعليل بعض اختلاف فواصل الآيات في سورة الحج، فلموافقة المعنى، حيث يقول الله تعـــالى في الآيات الثامنة والخمسون، والتاسعة والخمسون والتي بعدها:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(58) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ هذان الاسمان يناســـبان الآيـــة: (عليم﴾ قال تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾، فعندما قال (يرضونه) إذن ينبغي أن يعلـــم مـــا يرضيهم، ثم هؤلاء الذين هاجروا في سبيل الله ينبغي أن يعلم بأحوالهم وأحوال أعدائهم.

وأما ﴿حليم﴾ فلا يعاجل أعداءهم بعقوبة، لأن الله تعالى حليم، فحلمه هو ذاك الحِلـــم الـــذي لا يعجّل بالعقوبة ويُمهل.

وفي الآية الستين في قولـــه: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، هو عاقب بما عوقب به، ثم بغي عليه، لكنه لم يعاقب الآن، ولكنه فقط بُغـــيَ عليه، لم ينصره أحد فقال: (إن الله لعفو غفور)، ولما قال تعالى: (إن الله لعفو غفور) إشارة إلى أنـــه إذا

عفا وغفر نصره الله، لأن الله تعالى يقول له ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[1] ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[2]، فعندما قال بُغي عليه و لم يأخذ بحقه، معناه أنه عفا وغفر، ففي الأولى قال عوقب فعاقب، ثم لما بغي عليه لم يأخذ حقه، وبما أنه عفا وغفر فقد نصره الله، ثم قال: (لعفو غفور) يعني تخلّقوا بصفات الله تعالى، فالله عفو غفور فأنت اعف واغفر، وهذا تلميح لنا لأن نعفو ونغفر، وأن لا نعجّل بالعقوبة، فهذا توجيه للمؤمنين أن يتصفوا بصفات الله عز وجل، وخلاصته أن المؤمن لم يعاقِب و لم يأخذ بحقه، وإنما عفا وغفر، والله عفو غفور، فقال: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

وفي قوله تعالى في الآية الواحدة والستين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ فالليل آلته السمع لا الإبصار، وأما النهار فالسمع والإبصار، والله سبحانه وتعالى في الليل والنهار سميع بصير، فالآية مرتبطة بقوله تعالى: (يولج الليل في النهار) ومرتبطة بما قبلها أيضا في قوله: (ومن عاقب بمثل ما عوقب به) يسمع ويرى من عاقب ومن عوقب، ثم قال: (لينصرنه الله) والناصر ينبغي أن يسمع ويرى وإلا كيف ينصر؟ ومرتبطة بالليل والنهار وآيتهما السمع والبصر.

وفي الآية الثانية والستون في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ الناصِر لمن بُغيَ عليه والذي يولج الليل والنهار والسميع البصير أليس هو العلي الكبير؟ بلى.

ونحن نقف أمام هذا الترابط بين هاته الفواصل ومعاني الآيات وأخذها بأعناق بعض، فليس لنا إلا أن نسلم وأن نتقي صاحب هذا الكلام، ونخافه ونرجوه، سبحانه وتعالى عما يشركون، ونواصل مع الآية الثالثة والستين، حيث يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، لطيف أي متفضّل على العباد، يلطف بهم بإيصال منافعهم، وأن تصبح الأرض مخضرة فهذا من لطفه سبحانه بالخلق أيضا، وخبير أي عليم بدقائق الأمور، وبمصالحهم، فيلطف عن خبرة بالمقادير التي يفعلها وعن حكمة، فعندما أنزل من السماء ماء لتصبح الأرض مخضرة فهذا لطف منه بالعباد كلهم، وعليم بالمقادير التي قدرها لهم فهو خبير لطيف، والله أعلم.

---

[1] - سورة الشورى، الآية 40.

[2] - سورة البقرة، الآية 237.

وهذه لمسة بيانية أخرى تبين علاقة الفاصلة بالمعنى، حيث يقول الله عز وجل في الآية الرابعة والستين: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، الذي له ما في السموات والأرض من أغنى منه؟! لا أحد، وقطعاً هو سبحانه الغني الحميد، فالحميد هو المحمود في غِناه، لأنه قد يكون الشخص أحياناً محموداً في فقره ولا يُحمَد في غناه، لأنه قد يتغير، وكثير من الناس تغيروا لما صاروا أصحاب أموال، أما الله سبحانه وتعالى فهو المحمود في غناه وفي كل شيء، ولذلك كثيراً ما يجمع الغني والحميد في القرآن، مثل قوله في سورة لقمان: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[1] وقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)[2].

ونكتفي بعد ذكر هذا المثال في الآية الخامسة والستين من السورة حيث يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ يقول الدكتور فاضل السامرائي: «فلو لم يرأف بهم ما أمسك السماء، وما سخر لهم ما في الأرض والبحر، فإمساكه للسماء، وتسخيره الفلك وما في الأرض كلها رأفة ورحمة بالعباد، فناسب أن تكون الفاصلة موافقة للمعنى وهي: ﴿لرؤوف رحيم﴾»[3].

وأخيرا نلاحظ كيف أن الفاصلة تخدم الموضوعات الرئيسية للسورة، وتساعد على معرفة المعنى الحقيقي لها، وتوضح المناسبة بين مقاطع السورة، وكذا بين مواضيع السورة في سياق واحد وانسجام عجيب، لا يدل إلا على أن هذا القرآن من حكيم حميد، كما تزيد الأمر وضوحا والمعنى تجلية، غنى اللغة العربية التي اختارها الله لكلامه، لأن تناسب البناء اللغوي في الجمل، ومعنى الألفاظ والكلمات أمر موجود في لغة العرب بكثافة، فكان بذلك كلاما متجانسا محكما من حيث الشكل و المضمون.

فالموضوع الرئيسي لسورة الحج هو تقوى الله تعالى، وإن تقوى الله تعالى تقتضي حمل الناس عليها بشيء من التخويف والتقريع، وذلك بذكر آيات العذاب والهلاك، كما تقتضي تبشير المؤمنين وتسليتهم بالنصر في الدنيا والآخرة، وتفتح في الوقت نفسه بابا من أبواب الأمل والتوبة للذين أسرفوا على أنفسهم، فبينت لهم السورة حججا وبراهين ساطعة على أن البعث حق، وأن أهوال القيامة شيء

---

[1] – سورة لقمان، الآية 12.

[2] – سورة لقمان، الآية 26.

[3] – لمسات بيانية، فاضل السامرائي، (مصدر سابق)، ص63.

عظيم، وأنه لا ينفعهم يومئذ إلا التقوى التي حصلوها في الدنيا من خلال إقامة الشعائر والعبادات والطاعات، كالصلاة والزكاة والسجود والركوع لله تعالى، وهذا باستعمال الفاصلة المناسبة لكل معنى، ففي التقريع نغلب حروف الشدة والقوة والقلقلة، وفي التنعيم والملاطفة تصلح حروف اللين والاستفال وهكذا، وهو الأمر الذي التمسناه في سورة الحج من بدايتها إلى نهايتها، حيث وافقت فواصل السورة معاني وموضوعات السورة المختلفة، مما يزيد يقينا في نسبة هذا القرآن لله عز وجل، وفهما لمعاني هذه السورة الكريمة التي تحدثت عن مواضيع كثيرة ومعاني متنوعة.

وقريب من موضوع الفواصل موضوع تذييل آيات سورة الحج كما سنبين في المطلب الموالي.

المطلب الثاني: تذييل آيات سورة الحج:

التذييل هو كلام يأتي في آخر الآية له معنى مستقلا عن الكلام الأول، لكن لولاه لما تم المعنى المراد، يقول الإمام الزركشي في البرهان: «أن مصدر ذيل هو: للمبالغة، وهي لغة جعل الشيء ذيلا للآخر، واصطلاحا أن يؤتى بعد تمام الكلام بكلام مستقل في معنى الأول تحقيقا لدلالة منطوق الأول أو مفهومه، ليكون معه كالدليل ليظهر المعنى عند من لا يفهم، ويكمل عند من فهمه»[1].

ولقد سبق وقلنا أن أواخر الآي تكون موافقة لبدايتها، فأنسب ما تختم به أول آية في سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، وهو كلام مفصول عن الأول في المعنى، فالأول أسلوب إنشائي جاء في شكل نداء للناس جميعا أن يتقوه، وأما المعنى الثاني، فهو أسلوب خبري أخبر عن حقيقة هذا الشيء، ولكن أثره فيه واضح جلي، إذ يحمل المعنى الثاني الناس على الاستجابة للمعنى الأول الذي خوطبوا به، وهو نداء الناس لتحقيق التقوى، وذلك بذكر الزلزلة ووصفها بالشيء العظيم، وتنكير هذا الشيء أيضا هو زيادة في التخويف والتهويل، لأن الإنسان مفطور على الخوف من المجهول، كما أن القرآن يتوقع منه سؤالا عن هذا الشيء المبهم، فتأتي الإجابات بعد ذلك في الآيات اللاحقة في قوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾، ثم يأتي ذيل هذه الآية أيضا مناسبا تماما لهذا الوصف والتفصيل، حيث يجمل تلك المعاني في معنى واحدا هو أن كل من

---

[1] - البرهان في علوم القرآن، الزركشي، (مصدر سابق)، ج3، ص68.

الذهول، والوضع بغير ميعاد، والترنح في المشي، هو لون من ألوان العذاب الشديد الذي خوف الله به عباده، فقال: ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾، فسبحان الذي ألف بين معاني هذه الآيات

ثم انظر لقوله تعالى في الآيات التي جاءت بعد ذلك كيف وافقت ذيولها بداياتها في تناسق دقيق، وسرد متوافق متين، ففي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، فمن كان على مثل هذا الوصف من الناس، فهو على خطى الشيطان، الذي كان أول مجادل في الله بغير علم، عندما طلب الله منه السجود لآدم، ولهذا ذيلت الآية بقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾، الذي كتب الله عليه وعلى من تولاه، وسار سيره، وانتهج نهجه، عذابا يوم القيامة، ولهذا جاء ذيل الآية التي بعدها يؤكد ذلك فقال تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

وألطف من ذلك ما نراه في الآية الخامسة من السورة التي تحدثت عن البعث، وعن أدلته،حيث بدأت باستفهام قصده التنبيه على ما سيأتي من تفصيل لمراحل الخلق، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾، حيث يبدؤه الله من التراب إلى أن يصير إنسانا متكاملا من ناحية الخلق، وهي دعوة لإعمال العقول والأبصار والأسماع، فقال: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾، ثم ذيلت الآية بالحديث عن إحياء الأرض بعد موتها، وكيف أن الله يترل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة، حيث تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، في قوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، فناسب هذا التذييل بداية الآية، لأن المقصود من ذكر هذه المراحل من الخلق، إنما هي للوصول إلى نتيجة مشتركة بين النبات والإنسان، وهي الإحياء بعد الإماتة، وقد انصرفت الآية من دليل عقلي إلى دليل آخر أوضح منه، وهو الدليل المرئي المبني على الرؤية والبصر، إذ لا يتسنى لكل واحد من البشر الإطلاع على مراحل تشكل الخلق في الأرحام، إنما المتسنى لكل إنسان النظر في تقلب الأيام واختلاف الفصول، وما يحدث للنبات فيها من اصفرار بعد اخضرار، ومن حياة بعد موت، وهو دليل معهود مشاهد، فهو برهان أقوى من بقية الأدلة، حيث يقيم به الله الحجج على جميع الخلق، مؤمنهم وكافرهم، عالمهم وجاهلهم، ليؤمنوا ويتقوا.

وليس المعنى الذي يكون في باقي الآيات التي تأتي بعد ذلك ببعيد عن هذه المعاني، فقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾، تفصيل لقوله تعالى في ذيل الآية: ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فبقدرته سبحانه وتعالى قد أحيا الموتى، وأحيا الأرض بعد موتها، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾، يعني ذلك أن الله سيبعث الموتى من قبورهم للحساب والعقاب، ولهذا ذيل بقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾، ويتكرر في الآية الثامنة الجدال في الله بغير علم في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى﴾، ومعلوم أن الكتاب هو مصدر العلم والهدى، ولهذا قال في ذيل الآية: ﴿وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾، ثم يصف الله تعالى هذا المجادل بأنه مضل عن سبيل الله، حيث قال: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ولهذا بين في ذيل الآية أنه سيذيقه في الدنيا خزي، ويوم القيامة عذاب الحريق، فقال: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، ثم تواصل الآيات ذكر مصير هؤلاء الصنف من الناس، الذين سيصيبهم العذاب يوم القيامة، بما قدموه في هذه الدنيا من تكذيب بالبعث، وإضلال للناس، وصد عن سبيل الله، وجدال في الله بغير علم، وكل هذا مما كسبت أيديهم، فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، وقد أفرد هنا المخاطب لأنه يبعث يوم القيامة فردا، وذيلت الآية بقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، فالله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون، فناسب هذا التذييل بداية الآية، كما أن الخطاب جاء بالجمع، لأن الكلام موجه للناس جميعا، وفيه إقرار وتصريح وإخبار بأن الله لا يظلم أحدا من الناس، فما أصابك فإنما هو نتيجة ما قدمت يداك.

ثم تأتي الآيات بعد ذلك لتصف نوعا آخر من الناس المكذبين، وهم المنافقون الذين يعبدون الله على حرف، وهؤلاء هم أشد الناس خسران، ذلك أنه قد يخدعونك من حيث أنك تأمن جانبهم، لما يظهر لك من عبادتهم الظاهرة، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾، وقد اطلع الله على أسرارهم، وقد تعرفهم في لحن القول، وربما اثاقلوا عن صلاة الصبح والعشاء، كما أخبر بذلك الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم، فكانوا بحق هم الخاسرون الذين خسروا الدنيا والآخرة معا، حيث جاء ذيل الآية مؤكدا هذه الحقيقة فقال: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾، ثم وصفهم الله بأنهم قد ضلوا الطريق كإخوانهم من المجادلين في الله بغير علم والكفار الذين كذبوا بالبعث، والمشركين الذين يدعون من دون

الله أربابا لا ينفعونهم ولا يضرون، حيث يجمعهم الله جميعا في نار جهنم، ولاتحاد أعمالهم فقد كان مصيرهم واحد.

ثم تنتقل الآيات لتذكر مصير المؤمنين يوم القيامة فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، ثم يذيلها الله تعالى بمعنى دقيق ولطيف حيث يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، وقد رأينا سابقا أن الإرادة في مثل هذا المقام غير ملزمة للطرف الآخر، وإنما جازاهم الله بهذا الجزاء بما قدمت أيديهم من عمل صالح، وإيمان صحيح، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]، وهي أيضا تأكيد لقوله تعال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، والدليل على ذلك ما ستأتي به الآيات بعد ذلك، حيث تتحدث عن من ظن أن الله لا ينصر محمدا، ولا دين محمد، ولا الكتاب الذي أنزل على محمد، وأنه حجة، ومن يكفر به إلا معاند متكبر، فليفعل ما يريد، ولينظر هل سيزول عنه ذلك الغيظ وهذا الحسد من قلبه أم لا؟ وبطريق حكمية أراد الله أن يسخر من هؤلاء الكفرة، فنبههم إلى طريقة لعلها تنفعهم وهي الشنق، لأنهم تركوا الآيات البينات الواضحات الدلالة، وكفروا بما أنزل الله من كتاب، فليس بعد هذه الحجج والبراهين كلاما يفيدهم، أو يقنعهم، كما قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[3]، فذيَّل في الآية السادسة عشر بقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾، ليوضح أن الله تعالى لا يجازي الناس إلا بما قدمت أيديهم فلا يظلم أحدا شيئا، وأن كل من فعل مثقال ذرة فسوف يره يوم القيامة، سواء كان خيرا أم شرا.

ثم تواصل الآيات لتذكر أنواعا من الناس قد اختلفوا في ربهم، وأن الله جامعهم يوم القيامة، لأجل الفصل بينهم، وهم المسلمون، واليهود والنصارى من أهل الكتاب، والمجوس والمشركون والصابئة من غير أهل الكتاب، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، وهنا لمسة بيانية ولطيفة نحوية ينبغي التنبيه لها

---

[1] – سورة الأعراف، الآية 43.

[2] – سورة الزخرف، الآية 72.

[3] – سورة الأعراف، الآية 185.

أولا وهي: لماذا قال: (الصابئين) منصوبة، وقدمهم على النصارى؟ مع كون أهل الكتاب أفضل من عباد الكواكب؟

لقد جاء السياق في سورة الحج موقف قضاء، والله تعالى لا يجوز أن يفصل بين المتخاصمين: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾[1]، ولا يمكن له سبحانه أن يُفرّق بينهم ما داموا في طور الفصل، لذا جاءت الأسماء كلها منصوبة بإنّ، فالمتخاصمين إذن يجب أن يكونوا سواء أمام القاضي.

والعجيب في هذا قوله تعالى (إن الله يفصل بينهم) وفي آية أخرى في سورة السجدة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[2] لأنه هنا ربنا سبحانه وتعالى جعل الذين آمنوا من جملة المتخاصمين، فلم يقل (ربك) حتى لا ينحاز للمؤمنين، وإنما جاء بالاسم الأعمّ وهو (الله)، وفي آية سورة السجدة ليس فيما قبلها جماعة من جماعة المؤمنين.

والاختيار هنا ليس للقضاء فقط، وإنما هناك أمر آخر وهو السِمة اللفظية، فكلمة (ربك) وردت في سورة الحج ثلاث مرات، ووردت في السجدة عشر مرات، وكلمة (الله) وردت ست وسبعين مرة في سورة الحج، ومرة واحدة في سورة السجدة، لذا اقتضى أن يأتي بكلمة (ربك) في سورة السجدة وكلمة (الله) في سورة الحج.

وأنه في آية سورة الحج لم يأت بـ (هو)، في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾، وجاء بها في آية سورة السجدة، في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾، لأن خاتمة آية سورة السجدة، في قوله: ﴿فيما كانوا فيه يختلفون﴾، وخاتمة آية سورة الحج في قوله: ﴿إن الله على كل سيء شهيد﴾، والاختلاف هو مظنّة الفصل، لذا جاء بـ (هو) في آية سورة السجدة، ولا يوجد اختلاف في آية سورة الحج[3].

وما أجمل ما ذيلت به هذه الآية، وهو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، فالله كان شهيدا عليهم في الدنيا، ولا يزال شاهدا عليهم يوم القيامة، حيث علم حالهم ومآلهم، فالفصل يقتضي اختلاف

---

[1] – سورة النساء، الآية 58.

[2] – سورة السجدة، الآية 25.

[3] – لمسات بيانية، فاضل السامرائي، ص51.

المصير كما رأينا سابقا، ولا يكون هذا المصير إلا من عند الواحد الأحد الذي شهد على عباده، وكفى بالله شهيدا.

ثم تأتي آية السجدة من سورة الحج بعد ذلك، وهي الآية الثامنة عشر من قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾، حيث أن هذه المخلوقات جميعا تشترك في أنها كلها تسبح وتسجد لله عز وجل، بقوة الفطرة التي أودعها الله فيها، فهي لا تعصي الله شيئا، ولكن الذي يعصي هو ابن آدم، وهم الذين كفروا وأبوا أن يسجدوا لله، برغم أنهم هم العقلاء من المخلوقات، ولهذا حق عليهم القول، فأهانهم الله بعد أن أكرمهم بنعمة العقل فعطلوها، فهم بذلك أهون من الشجر والدواب.

وأشير هنا إلى ضرورة استعمال (من) بدل (ما) فأقول: تستعمل (من) لذوات العقلاء وأولي العلم فقط، أما (ما) فتستعمل لصفات العقلاء، قال تعالى: (ونفس وما سوّاها)، وقال أيضا: (فانكحوا ما طاب لكم من النساء)، وقوله: (وما خلق الذكر والأنثى)، فالله هو الخالق، وفي قوله: (ونفس وما سوّاها)، فالله هو المسوي.

لكن لماذا الاختلاف في الاستعمال في القرآن الكريم فمرة تأتي (من) ومرة تأتي (ما)؟

ونستعرض الآيات التي وردت فيها (من) مع السجود : قال تعالى في سورة الرعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾[1]، والطوع والكره من صفات العقلاء، فاستعمل (من).

أما في سورة النحل في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (48) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[2] فالدابة أغلب ما تستعمل في اللغة لغير العاقل، وهي عامة وشاملة، فاستعمل (ما) كما أنه في الآية جاءت كلمة (شيء) وهي أعمّ، وعليه فإنه من ناحية العموم

---

[1] – سورة الرعد، الآية 51.

[2] – سورة النحل، الآية 49.

ناسب استعمال (ما) ومن ناحية استعمالها لغير العاقل ناسب استعمال (ما)، لأن الدابة كما أسلفنا تستعمل في الغالب لغير العاقل.

ونلاحظ في القرآن أنه تعالى عندما يستعمل (من) يعطف عليها ما لا يعقل، كما في قوله تعالى في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، أما عندما يستعمل (ما) فإنه يعطف عليها ما يعقل (والله يسجد .. دابة والملائكة) وهو خط بياني لم يتخلف في القرآن أبدا، والحكمة البيانية منه الجمع[1].

وكذلك استعمال "من" مع فعل يسبّح، كما في قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[2] وفي سورة النور في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[3]، واستعمال (ما) كما في قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[4] وفي بداية سورة الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، وفي قوله في بداية سورة التغابن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وفي بداية سورة الحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، والحكمة البيانية من ذلك جمع كل شيء، وفي تذييل آية الحج بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، دليل على أن المشيئة نافذة على هؤلاء وأولئك جميعا، من الذين يعقلون والذين لا

---

[1] – لمسات بيانية، فاضل السامرائي، إصدار دار عمار، للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2007م، ص251

[2] – سورة الإسراء، الآية 44.

[3] – الآية 41.

[4] – الآية 24.

يعقلون، قال تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾[1].

ثم ذكرت الآيات التي بعدها مصير المتخاصمين في ربهم، وهم الكفار والمؤمنون، يوم القيامة، وقد تكررت هذه الثنائية عدة مرات، كلما ذكر عذاب الكافرين ذيلت الآيات بمثل قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾، وقوله: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾، وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، وكلما تحدث عن نعيم المؤمنين، ذيل الآيات بما يناسبها مثل قوله تعال: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، وقوله أيضا: ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾، وهكذا.

وتأتي الآيات بعد ذلك لتذكّر الناس بالحج بعد أن أمر الله تعالى سيدنا إبراهيم بتطهير البيت الحرام، إبتداء من الآية الخامسة والعشرين إلى الآية الثامنة والثلاثين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، وقوله: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾، كما جاء التذييل مناسبا تماما لمعاني هذه الآيات، فالذي يصد عن البيت الحرام، فسيذيقه الله من عذاب الحريق، حيث قال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وذيل الآية التي بعدها بالركوع والسجود، لأن سيدنا إبراهيم قد هيأها لذلك، وذيل آية الأذان بقوله: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾، لأن أذان سيدنا إبراهيم قد سمعه من في الأرض جميعا، بل حتى الناس في أصلاب آبائهم، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا استعمل العمق وبالغ في استعماله، وقال فج عميق و لم يقل فج بعيد، فالاختيار لكلمة فج وكلمة عميق، هو أنسب للضمور، الذي هو الهُزال الذي في قوله: ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾، وهذه الضمائر تأتي من كل فج عميق، هذه الحيوانات الضامرة تأتي من كل فج عميق، لأن أصل الفج في اللغة: الطريق في الجبل، ولا شك أن السير في الطريق الجبلي أدعى للضمور، وعميق نقيض العلو والارتفاع، فالسير في طريق مستوي أيسر من السير

[1] - سورة فصلت، الآية 38.

في طريق فيه علو وارتفاع، لأن السير في طريق مرتفع يؤدي إلى الضمور، فعميق أدعى إلى الهزال، والفج أدعى إليه أيضاً.

ومن أسرار التقديم والتأخير في القرآن الكريم بلاغة تدل على حسن النظم وإعجاز اللفظ في كتاب الله الكريم, وتركيب آياته سبحانه وتعالى، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾، حيث قدم الفاضل على المفضول، يقول ابن القيم في بدائع الفوائد:

«ومن المقدم بالرتبة قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾، لأن الذي يأتي راجلاً يأتي من المكان القريب، والذي يأتي على الضامر يأتي من المكان البعيد، على أنه قد روى عن ابن عباس أنه قال: "وددت أني حججت راجلاً، لأن الله قدم الرجالة على الركبان في القرآن" فجعله ابن عباس من باب تقدم الفاضل على المفضول، والمعنيان موجودان»[1].

وعن الفائدة الموجودة في هذه الآية، التي تقدمت فيها بعض الألفاظ على أخرى يقول ابن الجوزية: «وأما تقديم الرجال على الركبان، ففيه فائدة جليلة، وهي أن الله شرط في الحج الاستطاعة، ولا بد من السفر إليه لغالب الناس، فذكر نوعي الحجاج، لقطع توهم من يظن أنه لا يجب إلا على راكب، وقدَّم الرجال اهتماماً بهذا المعنى وتأكيداً له، ومن الناس من يقول: قدمهم جبراً لهم، لأن نفوس الركبان تزدريهم، وتوبخهم، وتقول: إن الله لم يكتبه عليكم ولم يرده منكم، وربما توهموا أنه غير نافع لهم، فبدأ بهم جبراً لهم ورحمة»[2].

وليس هذا فقط، وإنما الحج هو رفعة وعلو عند الله، لأنه مدعاة إلى مغفرة الذنوب، ومعناها أن السائر إلى طريق الحج يرتفع عند الله منزلة، وكلمة فج وعميق أنسب من بعيد، وبينهما مناسبة، لأن كونه يأتي من فج عميق فضامر، وعميق أنسب مع الحج، لأنها ارتفاع، والحج ارتفاع عند الله، وكلمة بعيد لا تعطي هذا المعنى قطعاً.

ثم تحدثت الآيات عن بعض التفاصيل في مناسك الحج، وكلما ذكرت معنى معين أردفته بتذييل رائع، يناسب المقام، ويخدم المعنى، فقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾،

---

[1] – بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي للنشر، الطبعة الأولى، سنة2002م،، تحقيق: عدنان درويش، الجزء1، ص50.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص55.

يناسبه التذييل بقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ من نفس الآية، لأن اجتناب الرجس من الأوثان، وكذا اجتناب قول الزور هو من تعظيم الحرمات.

وفي قوله تعالى في بداية الآية الواحد والثلاثين: ﴿حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾، وذيلت بقوله: ﴿تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾، فمن أشرك بالله فقد هوى في قعر جهنم والعياذ بالله، وجاء في ذيل الآية الرابعة والثلاثين الحديث عن تبشير المخبتين، الذين يذكرون الله تعالى على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾، بيانا لحال الأمم التي سارت في طريق الله، وحققت الإيمان والتقوى، التي جعل الله لها طريقا واضحا، ومنسكا معينا، فمن الناس من نسك الطريق القويم الذي أوضحه الله في كتابه، ومنهم من خالف، وكان هذا هو حال المؤمنين، فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، ثم تواصل الآية ذكر صفات المخبتين وتبين حقيقة إيمانهم، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، ثم يسرد نعمه على عباده لعلهم يحققون الشكر، الذي يعتبر زبدة التقوى، ولا زال الحديث يتواصل لتعريف الناس بحقيقة هذه القربات، وأن الله ما أراد بها إلا شيئا واحدا، هو تحقيق التقوى، فقال: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾، وعلم الله أن المتقين يزدادون شكرا لله على تسخيره هذه الأنعام لهم، فيرتفوا إلى درجة المحسنين فقال في ذيل الآية: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾، ثم انتقلت الآيات لتخبر بحقيقة دفاع الله عن المؤمنين الذين حققوا التقوى، ووصلوا إلى درجة الإحسان، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وذيلها بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾، خوان لعدم شكره لنعم الله، وكفور بربه، وبيوم الدين، وناسب بعد ذلك ذكر الآيات بعدها الإذن بالقتال، والدفاع عن مقدسات الله، وعن حقوق المسلمين، وأموالهم وأعراضهم، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴿39﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾، ثم ذيل هذه الأخيرة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، قوي قادر على نصر عباده المؤمنين

على أعدائهم، وعزيز لا ينفعه إيمان المؤمنين، ولا يضره كفر الكافرين، فهو لا يحتاج لأحد، وكل الناس محتاج إليه.

ثم يجيء الكلام عن الذين خلوا من قبل، من الأمم البائدة الذين كذبوا رسلهم، وكيف كانت سنة الله فيهم، وقد وصف حالهم، بأنهم يشبهون حال كفار قريش الذين كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم، ذلك أن الله قد جعل لهم أبصارا وأسماعا وعقولا، فأقام بها حجته عليهم، فلم يتفكروا و لم يؤمنوا، فحق عليهم العذاب فدمرهم الله، وجعلهم عبرة لمن يأتي بعدهم، وفعل كما فعلوا، وتلك سنة الله في الأمم الذين مضوا من قبلهم، مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب مدين، ومن كان على شاكلتهم، حيث قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾، ثم عطف عليهم آخرين فقال: ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾، وقال أيضا في الآية بعدها: ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾، وقوله عن القرى الظالمة: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾، وقد جاءت ذيول هذه الآيات، توحي بذلك التدمير، وبذلك الغضب الذي أصابهم، فناسبت تلك المقدمات، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، وقوله أيضا: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾، وقوله تعالى في ذيل الآية التي بعدها: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾، ثم هنا التفاتة لسيد الخلق، حيث أمره ربه عز وجل بأن ينذر الناس، بأن يتقوا الله، ويؤمنوا به، وإلا أصابهم ما أصاب الذين سبقوا من الأمم البائدة، فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، لأن اتحاد المقدمات يؤدي إلى مصير مشترك واحد، هو الدمار والهلاك، أو الرحمة والمغفرة، بحسب ما يكون من كفر أو إيمان، وهذا ما تحدده الآيات التي تأتي، حيث تحدثنا عن مصير المؤمنين، بأن لهم من ربهم مغفرة ورزقا كريما، كما قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، والذين سعوا في الأرض معاجزين مأواهم النار، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، وقد ذيلت الآية الأولى، بالرزق الكريم، وهو عكس التدمير والهلاك، وقد ناسب مطلع الآية، لأنه وافق ما يستحقه المؤمنون في الدنيا، فقد نجاهم الله من الهلاك، ورزقهم من الطيبات، فكما نجاهم في الدنيا من ذلك، فهو سينجيهم في الآخرة أيضا، ويرزقهم رزقا كريما كما رزقهم من قبل، وكذلك بالنسبة للذين كفروا فلقد قال تعالى فيهم، في ذيل الآية: ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، وقد ناسب هذا التذييل أيضا

مطلع الآية، فإن الله قد أهلك الأقوام الذين لم يؤمنوا و لم يحققوا التقوى بشتى أنواع العذاب، ولأن الجحيم أيضا فيها ألوانا شتى من العذاب، فوافق هذا ذاك، والله أعلم.

ثم يأتي الحديث عن شيء آخر وهو قصة الغرانيق، حيث يخبرنا المولى تبارك وتعالى عن سنته في الأنبياء والمرسلين، وقصتهم مع الشياطين، وكيف أن الشيطان يريد دائما أن ينفخ وسوسته في نفوس أتباعهم ليصدهم عن سبيل الله، لكن الله قد عصم الأنبياء، وحفظ المؤمنين من ذلك، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾، وذيلها بقوله: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، والإحكام هو ضد النسخ، والتشابه، ومن يفعل ذلك ينبغي أن يكون عليما بما يُلقي الشيطان، حكيما في اختيار ما ينسخ، وما يُحكم، وكل ذلك لأجل فتنة للذين في قلوبهم مرض، ولأجل إعلام الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربهم، فيؤمنوا به، والدليل على ذلك، لام التعليل في بداية الآيتين من قوله: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾، ومن قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾، ثم يذيل الأولى بقوله: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾، لأن أصحاب القلوب المريضة هم الذين يشاقون الله ورسوله، وذيل الثانية بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فمن علم الحق، إستنار به، فآمن بربه، فاهتدى إلى صراط الله المستقيم، وهذا تناسب وتسلسل منطقي يوصل إلى نتيجة منطقية هي تقوى الله تعالى.

ورغم كل هذه الآيات والنذر، وكل هذه البراهين والحجج التي أقامها الله على عباده، ورغم كل تلك الفضائل والنعم التي أنعمها الله على الناس، من تفضيل ونصر وغيره، إلا أن الكفار ما زالوا في مرية، وفي شك وريب وظن وغي، فقال: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾، وقد علم الله أنهم لا يؤمنون أبدا حتى يأتيهم الموت، أو تقوم عليهم الساعة، ولهذا كان ذيل هذه الآية مناسب تماما، حيث قال تعالى: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾، ثم تتابع الآية الحديث عن سنة الله في الخلق، وعن تنعيم المؤمنين، وتعذيب الكافرين، وأن الملك يوم القيامة بيده سبحانه وتعالى، فقال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، ثم جاءت جميع الآيات بعد ذلك على نفس المنوال، فيقول عن المؤمنين في الآيات السادسة والخمسون، والثامنة والخمسون، والتاسعة والخمسون: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، هذا حكم على الذين آمنوا، ثم يتبعه

بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، وذيْلُ الآية يؤكد أن ما عند الله خير وأبقى، وحيث أن من عادات الناس أن يهاجروا لكسب أقواتهم، ولكن الذي هاجر في سبيل الله، فسوف يرزقه الله رزقا حسنا يوم القيامة، لأنه ابتغى بهجرته هذه وجه الله، فناسب أن تختم الآية بذكر الرزق، وفي الآية التي بعدها قال: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾، وإن اختيار الله تعالى للمدخل الذي يدخلون منه إلى الجنة يوم القيامة، لمن تمام علم الله وحلمه عز وجل، فهو أعلم بما يحبون، وهو أحلم بهم من أنفسهم، ولهذا ذيل به الآية، ثم تأتي الآية الأخرى في نفس سياق تنعيم المؤمنين، فيقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾، ثم يذيلها بقوله في الآية نفسها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، لأن العفو والغفران من صفات عباد الله الصالحين، حيث وعد الله بالعفو والغفران يوم القيامة، وقال في الآية السابعة والخمسون: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، فلما قال الله عن الذين آمنوا أنهم سيكرمهم بإعطائهم الرزق الحسن، وأنه يزيدهم في ذلك الإكرام، بأن يدخلهم مدخلا يرضونه ذيل هنا بما يناقض هذا الإكرام للذين كفروا وهو المهانة والإذلال، فذيل بقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، والله أعلم.

ثم تعود الآيات من جديد لتذكّر ببعض الأدلة في الآفاق، بعد أن ذكرت الآيات في الأنفس، فبدأ هذه المجموعة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾، ولما وافق النهار البصر لأن آية النهار البصر، ووافق الليل السمع، ذيل بذلك الآية، فقال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، ولا تزال الآيات تذكر هذه الأدلة وتثبت الألوهية، والربوبية، وتزيد في إيضاح الأدلة والبراهين على أن الله حق، وأن الساعة حق، وأن البعث حق، لكن دون جدوى، حتى الآية الثانية والسبعون، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾، وكأنهم ضاقوا ذرعا بالذين ينذروهم ويحذروهم تلك العواقب ويخوفوهم بالعذاب الذي ينتظرهم، ويدعوهم للإيمان، ولتحصيل التقوى التي بها نجاتهم، ولكنهم كابروا وأبوا ولم يستجيبوا لهم؛ بل أرادوا أن يسطون عليهم ويفتلوهم ويخرصونهم عن ذلك، فحق عليهم القول، ولهذا ختم الله بقوله: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، فكان مصيرا محتوما، فيه إقرار وإصرار من الله بأن موعدهم النار وبئس المصير، والله أعلم.

ونأتي الآن إلى المقطع الأخير من سورة الحج، حيث يضرب الله فيه المثل، ولله المثل الأعلى، ببعض مخلوقاته الحقيرة، ويتحدى هؤلاء الكفار، وكأنه يعطيهم فرصة أخرى، أو شهادة على أنفسهم يأخذونها معهم كي تكون لهم حسرة وندما، وزيادة في العذاب، وهو آخر دليل يمكن أن يفيقهم من غيهم، ويحرك فيهم ضمائرهم وعقولهم، فناداهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾، فنبَّه بالنداء لعظمة ما يكون، لأنها الفرصة الأخيرة إن صح التعبير، للذين لم يؤمنوا، لأنه بعدها لا يكون الكلام موجها لهم؛ بل للذين آمنوا فقط، فبدأ بتفصيل هذا المثل، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾، هذه واحدة، ثم قال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾، وهذه الثانية، فالنتيجة إذن: ضعفت الآلهة، وضعف الذباب، أو ضعفت الآلهة، وضعفتم أنتم أيضا، فضعيف يدعوا ضعيفا مثله أو أكثر منه، لا يكاد أن يكون إلا مجنونا لا عقل له، أو مكابرا مجادلا في الحق بعد أن تبين له، بل لم يقدر الله حق قدره، إذ كيف يكون الشيء ربا وهو لا يخلق شيئا، ويكون إلهاً ولا يستطيع أن يفعل شيئا لذبابة فضلا عن شيء آخر، وأمثال هؤلاء لا ينفع معهم بعد ذلك شيئا إلا شيئا واحدا، هو ما توعد الله به الذين كفروا من عذاب يوم القيامة، ولهذا جاء في آخر الآية قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، فأكد الله قوته وعزته، وأنهما لا ينقصهما كفر هؤلاء، ولا يزيدهما إيمانهم، إن هم آمنوا فقد آمنوا لأنفسهم، وإن كفروا فعليها، ويبقى الله قويا عزيزا، ثم بين الله أنه أقام حجته على جميع الخلق، إذ بعث الله فيهم رسلا من أنفسهم، ورسلا من الملائكة، توصل الوحي للأنبياء، ليخبروا الناس بعظمة الله وبحقيقته، وبأنهم سيعودون إلى الله، فيحاسبهم، وأن جميع الأمور مصيرها، ومآلها إلى الله الذي يعلم السر وما بين أيدهم وما خلفهم، فقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، ولهذا ذيلها بقوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾، ثم يوجه الله تعالى الخطاب للذين آمنوا بعد أن تكون الآيات قد انتهت من ذكر الكفرة، وأدلة الخلق والحياة والعلم والقدرة، حيث استنفذ القرآن كل وسيلة، وكل دعوة ما من شأنها تقرع أسماع الذين كفروا، وتدغدغ عواطفهم، وتحرك عقولهم، وتلاطف قلوبهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فأمرهم بما يعينهم، ويساعدهم على التقوى، وعلى

الإيمان، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وفعل الخيرات، والجهاد في سبيله، والاعتصام بالله عز وجل، فقال: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾، ثم ذيلها بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وهذا دليل على أن الفلاح الحقيقي هو في طاعة الله تعالى، وأن المفلحون هم الذين أقاموا هذه العبادات، وخصهم الله بالنداء الأخير لأن العاقبة سوف تكون لهم، وأنهم ما داموا على ذلك، فهم على هدي أبيهم إبراهيم الخليل، الذي سماهم المسلمين من قبل: حيث قال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾، حيث ذكّرهم بنعمة الإسلام، ونعمة الإيمان، ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، وتزداد ثقتهم بربهم، ويستمسكوا بالعروة الوثقى، وبحبل الله المتين، وعطف العام بعد الخاص، في ذكره لأجزاء الصلاة، من سجود، وركوع، ثم ذكر الصلاة والزكاة، وهو للتأكيد على هذين الركنين المتينين، وأنه لا تستقيم عبادة عبد إلا بالقيام بهتين العبادتين، لأنهما من أركان الدين، والصلاة هي الصلة بين العبد وربه، كما أن الزكاة هي صلة بين العبد والعبد، فمن أداهما فقد اعتصم بالله، واتخذ الله مولاه، وعصم دمه وماله وعرضه، وتمكن من الإعتصام بالله، ومن الإيمان الحقيقي، وحصل التقوى التي أمر الله بها في أول السورة، ومن فعل ذلك، فقد نصره الله، ومن ينصر الله ينصره في الدنيا والآخرة، ولهذا ذيل الآية، بقوله: ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾، وقد قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1]، والله أعلى وأعلم.

المطلب الثالث: الأثر الدلالي لبعض اللمسات البيانية الواردة في سورة الحج.

1 – إعادة بعض الألفاظ المشتركة في الحروف:

يُلاحظ في سورة الحج تكرار بعض الألفاظ في رؤوس الآيات من السورة مثل المصير، والنصير، والبصير، وهي أمثال الطباق بين الكلمات، ذلك لما لها من تذكير للسامع أو القارئ بين الفينة والأخرى بقدرة الله تعالى على نصرة الذين آمنوا في الحياة الدنيا والآخرة، وعلى أن كل ما يدور في الدنيا وكل ما يفعله هو تحت بصر الله تعالى، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، بل

[1] – الآية 120.

إن الله يبصر ويرى ويعلم ما يظهر وما يخفى، مما كسبت أيدي الناس، لا تخفى عليه خافية، وسوف يكون هو الناصر وهو المعين في الآخرة، كما كان هو الناصر وهو المؤزر في الدنيا، وقد نصر الله عباده المتقين في الدنيا، ووعدهم بالنصر تارة أخرى يوم يلقونه ولن يخلف الله وعده.

وفيه دعوة للناس بأن يُعملوا قلوبهم وأبصارهم وينظروا كيف فعل الله بالمكذبين من قبل، وكيف كان عاقبتهم، ويعرفوا سنة الله في الذين لم يحصّلوا التقوى التي أُمروا بها، وكذبوا الرسل، واتبعوا أهواءهم وشهواتهم.

ونلاحظ أيضا ذلك الانسياب في حروف هذه الألفاظ، وذاك المد الذي فيه انتقال من صفة الاستفال إلى الاستعلاء، عن طريق مد الغنة والتطويل فيا، وذلك بالانتقال من حرف النون إلى حرف الصاد، والوقوف على حرف الراء الذي له صفة القوة، وهو آية في التقريع مثل قوله: (وبيس المصير) وقوله: (وما له من نكير)، وقد توزع تكرار هذه الألفاظ في أواخر السورة من الآية الثامنة والأربعون في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾، وقوله عز وجل في الآية الواحدة والستون: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، والآية الثانية والسبعون: ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، وفي آخر السورة في قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾، كل هذا فيه مقصدا واضحا جليا وهو الدعوة لتحصيل الإيمان المطلوب والتقوى المرجوة، وكما يختار العبد أجود الكلام وأوضحه للتعبير عما يريده ولإيصال ما يشاء من معاني ومفاهيم في أدق العبارات وأقوى الألفاظ وأنسب الكلمات، فقد كان ديدن القرآن الكريم أوضح من غيره من الكلام في استعمال أفضل ما يكون من ألفاظ للتعبير عن أعمق ما يكون من المفاهيم، وأجود ما يكون من المعاني التي يزخر بها القرآن الكريم، والتي من خلالها أراد الله أن يكون هذا الكلام متمثلا في آياته وسوره، هو طريق هداية وسببا في تحصيل التقوى، وسلك الطريق الموصل إلى رضوان الله تعالى ونصره في الدنيا والآخرة، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر، ومن أنكره ولم يهتد بهديه ويتنور بنوره فما له من ولي ولا نصير.

ويلاحظ أيضا أن حرف الراء يدخل في الألفاظ التي لها زجر وتقريع مثل قوله: كفور، نكير، الزور السعير، الزفير...، وبعض الصفات العظيمة التي لا تكون إلا لمن كمُل سؤدده، وعلا قدره، وجمع كل الصفات العليا والأسماء الحسنى، كلفظ: الرؤوف، البر، الرحيم...الخ.

وهذا التكامل بين استعمال هذه الفاصلة في هذا الموضع وذاك، لأجل خدمة المعنى الذي يقتضي يقرّع الله به الذين لم يؤمنوا بالبعث واتبعوا أنوائهم، وكذبوا بالحق لما جاءهم من ربهم، وصدوا عن البيت الحرام، وتعدوا على حرمات الله، ولم يعظموا شعائره، ولم يتقوا الله عز وجل، ولم يستمعوا لنداء الله في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، وأن يثني الله على عباده المؤمنين الذين صدقوا بالبعث وبيوم الدين والذين اتبعوا الطريق المستقيم واتقوا الله.

يبقى شيء آخر، أن صفة تكرار حرف الراء يُراد بها الاستمرار والتواصل، فقوله مثلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، فهو بصيرا ولا يزال بصيرا وسيبقى بصيرا، وكذلك النصير؛ فسنّة الله في الأرض لن تجد لها تحويلا ولن تجد لها تبديلا، فالله ينصر كل من أخذ بالسنن التي وضعها الله في الكون، ولا يزال نصره يوافي عباده المؤمنين وأنبياءه المرسلين وأتباعهم في الدنيا والآخرة ما داموا آخذين بأسباب النصر، وأعظم سبب للنصر هو نصرة الله ونصرة دينه، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1]، ومن تمام نصرة الله تعالى أن يحقق الناس التقوى المطلوبة منهم، والإيمان المرجو تحصيله.

2 – صيغة التوكيد والتكرار:

من خلال تتبع سورة الحج يُلاحظ أنّه قد تكررت صيغ التوكيد والتكرار في كثير من المواضع في السورة، ففي أول آية منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، وفي قوله تعالى في الآية الرابعة عشر، وفي الآية الثالثة والعشرين: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وقوله تعالى في الآية السابعة عشر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، وقوله في الآية الخامسة والعشرون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وقوله في الآية الثامنة والثلاثون قوه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾، تأكيد حقيقة حاصلة أو ستحصل من غير ريب ولا شك، وفي

---

[1] – سورة محمد، الآية 07.

استعمال "إنّ" كأداة للتوكيد في كل مرة تصريح بقطع اليقين على حصولها، سواء في الدنيا أو الآخرة، وتتفق هذه الحقائق مع مبدأ الدعوة إلى تحصيل التقوى والهداية المطلوبة من الناس، ذلك أن بعض الناس لا ينفع معهم إلا إعادة الكلام والتأكيد عليه، خاصة وأن التوكيد سواء كان لفظي أو معنوي؛ فهو أسلوب يزول به الشك لمن كان في قلبه ريب عما أُخبر به، حيث تُقام الحجة بعد ذلك على السامع بقدر ما تكررت له الآيات وأكدت بأدوات التوكيد، وبقدر وضوح الأدلة والبراهين، وهذا الأسلوب يخدم هذا الموضوع من عدة جوانب ويتفق معه في أكثر محاور السورة.

وهي حرف توكيد، ولها فوائد منها: أنها تربط الجملة الثانية بالأولى، وبسببها يحصل التأليف بين الجملتين، حتى كأنهما قد أفرغتا في قالب واحد، فإن أسقطتها اختل الكلام، وهذا الضربُ كثيرٌ في التَّنزيلِ جدًّا من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

ومن أوضح ذلك قولُه تعالى: ﴿ولا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾.

وقد يتكرَّرُ في الآيةِ الواحدةِ كقوله عزَ اسمُه : ﴿وما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النفسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوء إلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ ربَّي غَفورٌ رَحيمٌ﴾.

ولضمير الشأن في الجملة الشرطية وغيرها مع (إنّ) من الحسن ما لا تراه إذا هي لم تدخل عليه.

كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فإنّها لا تَعمَى الأبصَار﴾، فلا يقال: هو من يتق ويصبر، هي لا تعمى الأبصار.

فليس إعلامُك الشيء بَغتةً مثلَ إعلامِك له بعدَ التَّنبيهِ عليه والتَّقدمةِ له، لأنَّ ذلك يَجري مجرى تكريرِ الإعلام في التأكيد والإحكام، ومن هاهُنا قالوا : إنَّ الشيءَ إذا أُضمر ثمَّ فُسر كان ذلك أفخمَ له من أن يُذكرَ من غيرِ تقدم إضمار ويَدل عليه أنّا نعلم ضرورة في قوله تعالى : ﴿فَإِنها لاَ تعمى الأَبصارُ﴾ فخامة وشرفا وروعة لا نجد منها شيئاً في قولنا: "فإنَّ الأبصارَ لا تَعمى"[1].

ويتفق هذا الأسلوب مع أكثر موضوعات السورة:

فالنسبة للموضوع الرئيس للسورة فإن التقوى أمر مهم بل هي رأس الأمر كله، لأن مصير الناس مرتبط بها يوم القيامة، فمن آمن واتقى فمصيره الجنة، ومن خالف و لم يتق الله كان مصيره النار وبأس

[1] – دلائل الإعجاز، ص112.

المصير، ولأهمية هذا الأمر وعظمته كان لا بد ولازما أن يستعمل فيه صيغة القطع والتوكيد، فقال تعالى: ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم إنّ زلزلة الساعة شيء عظيم﴾، ثم بين هذه العظمة زيادة في التخويف والتهويل، وكأنه يكرر بلا تكرار فيقول: ﴿يوم تروها تذهل كل مرضعة عما أرضعت...) رحمة ورهبة بالناس جميعا.

أما بالنسبة لعلاقة التوكيد بموضوع البعث واثبات وقوعه فإنه قد عرف منذ بداية التاريخ أن مشكلة الناس هي اختلافهم في هذه المسألة، فمنهم من يؤمن بأن هناك حياة بعد الموت، وهم أهل الكتاب وبعض الفلاسفة والحكماء، ومنهم من ينكر ذلك كأصحاب بعض الديانات الوضعية وبعض الملاحدة والدهريين والصابئة، ومن ثم كان حقيقا أن يفصل القرآن في أمر كهذا، فقال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾[1]، ثم لا زال يسرد أدلة مادية ومعنوية ويؤكد بمؤكدات لفظية ومعنوية هذه الحقيقة، فانتقل من دليل خلق الناس، إلى دليل خلق النبات، ليبين للناس أنه هو المعبود الحق، وأنه القادر على ذلك، ويستعمل لفظة: "ذلك" في قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، زيادة في العطف والتوكيد على نفس المعاني السابقة، ولا تزال السورة تذكر هذا اللفظ، في عدة مواضع لتؤكد الحقائق التي أقرتها سابقا، حيث قال تعالى أيضا في الآية العاشرة بعد ما ذكر مصير من يجادل في الله بغير علم: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[3]، ليقطع الشك والريب من قلوب الناس حتى يتمكنوا من الإيمان، ويحققوا التقوى التي بها نجاتهم يوم القيامة، وكلما أراد الله أن يبين حقيقة للناس بعد سرد أدلة حدوثها، وأراد أن يبين ثمرة تلك الأدلة اكتفى بذكر لفظة: "ذلك" فيفهم أن هذا المعنى الأخير لصيق بالمعنى الذي سبق، ومن ثم يستحضره القارئ في ذهنه فيتضح له مدلول تكرار ذلك اللفظ، الذي أراد الله أن يؤكد به تلك الحقائق العظيمة، والتي تحدد مصير الناس يوم القيامة، كما جاء في الآية الستين والواحدة والستين والتي بعدها، وهو يتحدث عن مصير المكذبين وجزاء المؤمنين، وعند حديثه عن العقاب بالمثل فقال: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[4] فأكد هذا النصر

---

[1] - سورة الحج، الآية 05.

[2] - سورة الحج، الآية 06.

[3] - سورة الحج، الآية 10.

[4] - سورة الحج، الآية 20.

باللام وبالنون، ثم أضاف مؤكدا آخر ليوضح بعض صفاته عز وجل، وهي العفو والغفران، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، ولعظمة هذين الخلقين أراد الله من الناس أن يتصفوا بهما، وهما من تمام تقوى الله تعالى الذي يولج الليل في النهار، كما قال بعد ذلك: ﴿ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ...وأن الله سميع بصير﴾، ثم عطف على ذلك الآية التي بعدها فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[1].

وأما علاقة التوكيد بمصير الفريقين يوم القيامة: فإن عذاب الله شديد وإن نعيم الله مقيم، وإن الحسرة يومئذ لعظيمة لمن لم يتق الله، حيث تكررت هذه الثنائية بين مصير المؤمنين والكافرين منذ البداية إلى نهاية السورة بنفس المنوال، كلما تحدثت السورة عن موضوع معين، خلصت إلى نتيجة واحدة، وهي مدح المتقين وذم الجاحدين، وتبين مصيرهم في الدنيا والآخرة، وتؤكد هذا الجزاء وتكرره في كل مرة بصورة تختلف عن الصورة السابقة فلا يمل القارئ أو السامع ما يُتلى عليه أو ما يقرأه، فيقول تعالى مثلا عن مصير المؤمنين في الآية الرابعة عشر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ومرة يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[2]، وقوله تعالى عندما تحدثت السورة عن شعائر الحج الأعظم، وكيف أن الكفار يصدون عن البيت الذي أمر الله إبراهيم ببنائه، وتطهيره والدعوة إليه، وحماية هذه الشعائر بسنِّ الجهاد وإعطاء الإذن بالدفاع عنه، وتوعد الله بنصر المؤمنين فقال: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾، ثم يؤكد فيقول: ﴿إن الله لقوي عزيز﴾، ويؤكد أيضا أن الله هو الناصر وهو المدافع عن عباده: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾، ويقول عن مصير الكافرين في الآيات التاسعة عشر والعشرين والتي بعدها: ﴿...فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، ثم يؤكد ذلك زيادة في التقريع والنكال فيقول: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، وقوله تعالى في الآية السابعة

---

[1] – سورة الحج، الآية 62.

[2] – سورة الحج، الآية 23.

والخمسين: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، ويؤكد في الآية الثانية والسبعين في قوله تعالى: ﴿..ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، وقد تكرر هذا الأسلوب في السورة كلها، وهذا من إعجاز أسلوب القرآن الكريم.

وهناك بعض الدلالات أيضا يمكن أن نلمسها في السورة في بعض استعمالات القرآن لبعض الألفاظ والتراكيب دون البعض، في مواضع معينة من الآيات، مثل صيغ النداء، وصيغ العطف، واستعمال أسماء الإشارة، وغيرها، نذكر في المقام بعضا منها:

3 – دلالة "يأيها الناس" وعلاقتها بموضوع الحج.

قد يسأل سائل ما دلالة الخطاب بـــ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ في سورة الحج، ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ في الآية السابعة والعشرين، وقوله في آل عمران: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا﴾[1] بينما الخطاب في الصلاة وغيرها بـــ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؟

إن الحج يختلف عن كل العبادات، فلما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ﴾ هذه دعوة للناس أجمعين للدخول في الإسلام، بخلاف ما لو قال صلّوا أو صوموا، كيف؟ فأما الصلاة الصيام والزكاة فالديانات كلها مشتركة فيها، بل حتى كفار قريش كانوا يصلّون ﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[2] فلو قال صلّوا لقالوا إنما نصلي، ولو قال زكّوا، لقالوا إننا نزكّي، ولو قال صوموا لقالوا إننا نصوم، فهذه الدعوات لو قالها لما كانت دعوة للدخول في الإسلام، بخلاف الحج، لأن أهل الكتاب من النصارى واليهود لم يكونوا يحجون إلى بيت الله الحرام، فلما قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ﴾ معناها كلٌ مدعوون للدخول في الإسلام، لأن هذه العبادة الوحيدة التي لم تكن عند أهل الكتاب، فهم كانوا يصلّون ويصومون ويزكّون إلا الحج فلم يكونوا يحجون لمكة، ولذلك هذه دعوة للدخول في دين الله، فالحج يختلف عن بقية العبادات لأن بقية العبادات موجودة، إذن فالحج دعوة للدخول في الإسلام وإقامة هذه العبادة.

ثم إن النداء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ يشبه الأذان أو التأذين في الناس بالحج، كما قال تعالى وهو يأمر إبراهيم عليه السلام بذلك فقال: ﴿وأذن في الناس بالحج﴾ فهي علاقة جد

---

[1] - سورة آل عمران، الآية 97.

[2] – سورة الأنفال، الآية 35.

واضحة في تناسب ذكر الحج في هذه السورة ومحورها الذي دعا الله لتحصيله وهو تقوى الله تعالى. فاشتركا الأمرين في أن كليهما قد نودي بهما، وله علاقة بنداء الناس أيضا للتفكر في أدلة البعث وثبوته في قوله: (يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث..)، ونداء الناس بتحديهم بأن يخلقوا كخلق الله أو تنفعهم آلهتم التي يدعون من دون الله فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ... ﴾، ونداء المؤمنين أيضا في آخر السورة لإقامة العبودية لله في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]، وقد اشتركت هذه الآيات في أنها ابتدأت بأسلوب النداء الذي تكرر في القرآن.

4 – تكرار صيغة النداء: "يأيها الناس" ووجه الربط بينها.

لقد افتتحت السورة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، وفيه الدعوة لتحصيل التقوى، وهو موضوع السورة، ويتكرر هذا أسلوب بنفس اللفظ، وهو خطاب الناس أيضا في الآية الخامسة، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ..﴾، فنجد بين المقطعين ترابطا واضحا جليا بين الآية الأولى والآية الثامنة، حيث ذكرت الآية الأولى دعوة الناس إلى تقوى الله مقرونة بالكلام عن أحوال زلزلة الساعة، وهو الأمر نفسه يتكرر في الآية الخامسة التي أشارت إلى مخاطبة منكري البعث والنشور، مستدلة عليهم بخلقهم هم أنفسهم، حيث خلقوا من تراب ومن نطفة ومن علقة إلى آخر تلك المراحل من مراحل الخلق التي ذكرتها الآية، التي ذكرت أدلة أخرى على إمكانية البعث، من إحياء الأرض، وما فيها من آيات، فنجد في الآية الخامسة دعوة غير مباشرة إلى تقوى الله تعالى، حيث حثت الناس على الإيمان بالبعث، وأن هناك حساب وعقاب، وأن هذا البعث ليس بمستحيل بل يسير، والدليل على بعث الناس أنهم خلقوا من غير شيء، أو من شيء كالتراب.

ويتكرر أسلوب النداء أيضا في الآية الثالثة والسبعين إلى الآية السادسة والسبعين بأسلوب ضرب الأمثال، وأن الله يتحدى المشركين غير المتقين، بأنهم على ضلال، وحقيق بهم عبادة الله تعالى، وتحصيل تقواه، بأن هذه الأصنام التي تعبد من غيره غير قادرة على فعل شيء متحدية لهم بأسلوب فيه إعجاز، تشير إليه الأبحاث العلمية اليوم، وهو قوله: (يا أيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له) ويستفاد من هذا

---

[1] – سورة الحج، الآية 78.

الأسلوب وجوب تقوى الله تعالى خالق هذه المخلوقات القادر عليها، يصرفها كيف يشاء، وهو بهـذا حقيق بالعبادة، والناس معنون بضرورة تحصيل التقوى.

وبهذا يظهر فائدة تكرار هذه الصيغة في سورة الحج للربط بين المقاطع الثلاثة السابقة الـذكر، في ضرورة تحصيل التقوى وهو الموضوع العام للسورة.

5 – الفرق بين (ذلك) و(ذلكم)؟، وحقيقة تكرار هذا اللفظ:

إن إسم الإشارة هو ما وُضع ليدل على معين بواسطة إشارة حسية أو معنوية[1]، ويكون مـذكراً ومؤنثاً ومفرداً ومثنى وجمعاً، ولام ذلك للبعد، وكافها للخطاب، نحو قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[2]، ويُشار بها إلى العاقل وإلى غير العاقل البعيد، وقد استعملت في سـورة الحج في مواضع مختلفة تشير إلى أشياء معنوية تارة وأشياء مادية تارة أخرى، و لم تأتي إلا متبوعة إمـا بضمير كقوله: (ذلك هو الخسران المبين)، وقوله: (ذلك هو الضلال البعيد)، وتارة تكـون متبوعـة بحرف جر نحو قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، وفي مثل قوله أيضا: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَـدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، وقوله أيضا: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾، أو واو عطف كقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾، وفي قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِـن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾، وفي الآية الواحدة والثلاثين في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾، وذكر اسم إشارة للمثنى المذكر في الآية التاسعة عشر، في قوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾، وهكذا.

وإن المتتبع لسورة الحج يلاحظ ذلك التكرار في بعض الآيات والألفاظ، فيتسائل عن ذلك، وعـن مدى أثره في المعنى، ومن الألفاظ التي تكررت في سورة الحج، لفظة "ذلك"، حيث يقول الله تعالى في الآية السادسة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقول في الآية العاشرة: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، وفي الآية الحادية عشر، في قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَـابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾، وتكررت أيـضا في

---

[1] – نحو: هذا محمد وهذا العلم.

[2] – سورة البقرة، الآية 2.

الآيات: (10، 11، 12، 130، 37، 61، 62، 70)، وقد تكررت هذه اللفظة في القرآن اربع مائة وواحد وستون مرة، وذكر لفظ "ذلكم" على الجمع سبعة وأربعون مرة في القرآن لها مدلولها. وسنتطرق بعد قليل إلى أثر ذلك التكرار في المعنى، وعلاقته بالموضوعات التي تناولتها سورة الحج، ولا بأس قبل ذلك أن نوضح الفرق بين لفظ "كذلك" على الإفراد و لفظ "كذلكم"على الجمع لتتضح المسألة أكثر فنقول:

إن كان عندنا مجموعتان إحداهما أوسع من الأخرى، فيستعمل للأوسع ضمير الجمع، وللأقل ضمير الإفراد، ولو رجعنا للآيتين الكريمتين: ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾[1] لمجموع المسلمين وهو أكثر، ومع الأقل قال (ذلك)، في نفي الآية: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾، ولنوضح القصية نضرب مثالا آخر، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ﴾ فالمخاطَب جماعة، وقال في موضع آخر: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَـئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾[2]، وفي سورة الحج في الآية: الثانية والسبعين قوله: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، فآية المائدة فيها (ذلك) والثانية فيها (ذلكم) أي الأكثر؟ الذين كفروا، أو الذين جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، وهم الأكثر، فلما كانت المجموعة أكثر جمع فقال (ذلكم)، ولما كانت أقل أفرد (ذلك)، وأما في سورة الحج فلقد أفرد الله عز وجل هذا الاسم لاعتبارين اثنين:

الاعتبار الأول: تعتبر سورة الحج من السور المختلطة بين المكي والمدني، إلا أن الغالب على مواضيعها مسائل العقيدة والإيمان والتوحيد، فكان الأسلوب الأنجع لإقناع الناس، هو الإفراد في كل شيء، إفراد الله في ألوهيته، وإفراده في عبوديته، فناسب ذلك استعمال صيغة إفراد اسم الإشارة "ذلك"، لا سيما في الآيات التي تتحدث عن الغيب وعن قدرة الله تعالى، وعن عدالته وصفاته، وعن مصير الناس يوم القيامة، كما مرَّ معنا في الآيات آنفا، ولما لم يكن الحكم إلا لله وحده لا شريك له،

---

[1] - سورة البقرة، الآية 236.

[2] - سورة المائدة، الآية 60.

وأنه هو الذي يفصل بين عباده يوم القيامة، وهو الذي ينجي الذين آمنوا، ويعذب الذين أجرموا، لا ينازعه في ملكه أحد، وأن قضاؤه نافذ، وحكمه ماض، ناسب ذلك إفراد الإشارة في الآيات.

الاعتبار الثاني: سورة الحج كغيرها من السور التي قرر الله فيها حقيقة أن الذين يؤمنون بالله هم الأقلية من الناس، وأن غالب العباد قد ضلوا طريق الإيمان، و لم يهتدوا بهدي الرسل والأنبياء، تجد ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾[1]، وقوله في الآية مائة وسبعة وثمانون من سورة الأعراف: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾، وفي سورة يوسف في قوله في الآية الثالثة بعد المائة: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وفي سورة الإسراء، الآية التاسعة والثمانين في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورا﴾، وفي أكثر من عشرين موضع في القرآن، وجاءت بصيغ أخرى، كقوله في سورة النساء في الآية المائة وخمسون: ﴿فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾، وفي سورة هود في الآية مائة وستة عشر: ﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾، وفي الآية اثنان وستون من سورة الإسراء: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾، حيث تكررت في أكثر من عشرين مرة في القرآن، ولهذا كان الحديث دائما عند ذكر اسم الإشارة ذلك عن شيء مفرد، حيث قال في الآية السادسة من سورة الحج: ﴿ذَلِكَ بأن الله هُوَ الحقُّ﴾ فأفرد نفسه سبحانه، بعد أن جاء سياق الكلام متحدثا أيضا عن بعض الناس وليس عن كلهم، حيث قال في بداية الكلام: (وَمِنَ النَّاسِ)، فبعَّضهم و لم يُجمل، فناسب بعد ذلك إفراده بالأحقية، وإحياء الموتى، وبقدرته على ذلك، وببعثه الناس من القبور، وتكرر الإفراد أيضا في الآية التي ذُكر فيها اسم الإشارة مرة أخرى في قوله في الآية العاشرة: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ

---

[1] – سورة البقرة، الآية 243.

لِّلْعَبِيدِ﴾، حيث أفرد الحديث عن مصير واحد من الناس، وليس كل الناس، بل إن المقصود هو بعض الناس كما جاء قبل ذلك، لأن الحديث كان عن فئة أخرى من الناس لم يهتدوا أيضا، فناسب بعد ذلك إفرادهم بالعذاب، وتكرر نفس الأسلوب في الآية الحادية عشر عند الحديث عن فئة أيضا من الناس، وهم المنافقون، أفرد الله الإشارة إلى ذلك وتعامل معهم معاملة الواحد فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ(11) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ(12) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾، وهكذا في كل الآيات بعدها في قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾، حيث جاء هذا الجزاء بعد أن ذكر الله المتخاصمين في ربهم، في قوله في الآية الخامسة عشر: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾، وفي قوله بعد ذلك في الآية الستون: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾، والحديث كله عن دائرة ضيقة، فناسب ذلك إفراد الجزاء في الدنيا والآخرة، وجاء في قوله تعالى أيضا في الآية الواحدة والستين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، حيث كان الحديث عن قدرة الله تعالى التي لا تضاهيها قدرة، وأن الآلهة التي تُعبد من دونه لا يمكنها أن تفعل ذلك، فبان عيبها وبطلت قدرتها وتبين لكم أنه الحق من ربكم، فأتبعها بقوله في الآية الثانية والستون: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، وفي آخر آية ذكرت اسم الإشارة جاءت بصيغة الجمع وهذه لطيفة من اللطائف ختمت بها السورة، وهي أن السورة قد تناولت الحديث عن المؤمنين والكافرين بالتفصيل فناسب ذلك الإفراد سواء في العمل أو الجزاء، وفي آخر السورة جاء الحديث عن المصير المشترك لهاته الفئات من الناس الذين ذكرتهم السورة من قبل فناسب ذلك الجمع فقال تعالى في الآية الثانية والسبعين: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ

وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، فاستعمل لفظة "ذلكم" بدلا من لفظة "ذلك"، وهو الشيء الذي أشرنا له من قبل، وهو أن أكثر الناس، أو غالبهم في النار والعياذ بالله.

6 – صيغة "إن الله يفعل ما يريد" و"إن الله يفعل ما يشاء":

ما الفرق بين قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)[1]، وقوله: (إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)[2] ؟

يقولون الإرادة لا تقتضي وجود الشيء، ومثالنا: أن الله عز وجل يريد من عباده أن يعبدوه (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[3] هل فعلوا ذلك؟ طبعا لم يفعلوا إلا قليلا منهم، وعلى هذا اختلفوا في تعريف المشيئة والإرادة، فقسم من العلماء والمفسرين قالوا: الإرادة كالمشيئة لا خلاف فيها، وقسم قالوا الإرادة ليست كالمشيئة، فالمشيئة مُلزمة، وأما الإرادة فنوعان:

– إرادة إلزام: وهي إذا أراد الله شيئاً إرادة إلزام، يقول له كن فيكون، يفعل ما يريد إذا أراد إلزاماً، كما جاء في قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[4]، ومثل قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾[5] هذا ما أراد ونفذ، وأحياناً يريد من عباده أفعال والعباد يعصون، فهو لم يلزمهم بذلك، ولو أراد أن يلزمهم لألزمهم.

ـ وهناك إرادة أخرى إرادة مناط التكليف: وهذه إرادة العبادة وإرادة الناس، فربنا يريد من عباده المكلفين أشياء لا يفعلونها، يستحبها لهم ويريدها منهم، وهم يعصونه وهو لا يريد المعصية، فالمعصية وقعت إذن خلاف ما أراد الله، لأنها ليست إرادة إلزام، أما المشيئة فملزمة، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فالمشيئة إذا شاء حصل، ليس فيها وجهان أو جانبان، وهي ملزمة إذا أراد الله شيئاً من عباده، لو شاء يفعل، ولو يريد إرادة إلزام لفعل.

ولقد جاءت هذه الصيغتان في سورة الحج، فأما المشيئة فذكرت في ذيل آية السجدة، وهي الآية الثامنة عشر من السورة، وهي قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)، عند حديثه عن سجود المخلوقات جميعا، ذلك أن جميع الكائنات قد خلقها الله تسبح بحمده وتقدسه بقوة الفطرة، ولهذا استعمل هنا لفظ

---

[1] – سورة الحج، الآية 14، 18.

2 – سورة الحج، الآية 18.

[3] – سورة الذاريات، الآية 56.

[4] – سورة يس، الآية 82.

[5] – سورة الأحزاب، الآية 33.

المشيئة لأن أمره نافذ لا محالة، وإن أبى الناس ذلك، لأن الله إذا أراد شيئا كان حب من حب وكره من كره، وقد ناسب استعمال المشيئة في هذه الآية، لأن الله استفهم نبيه صلى الله عليه وسلم في بداية الآية، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ... ﴾، ألم تعلم يا محمد أن جميع الموجودات معترفة بوجوده وخاضعة له وساجدة له، وكل فقير إليه، والله هو الغني. فمهما كذّب المكذبون، وجحد الجاحدون فضل الله، وحاولوا الصد عن سبيله، فإن الله غني عنهم، وعن أمثالهم، كما قال تعالى في سورة فصلت: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾[1] فعلم يا محمد أنه مهما كفر أصحاب مكة ومن تبعهم، ولم يؤمنوا بما جئت به من ربك، وكفروا بما أنزل إليك، وجحدوا بنعمة الله، فإن لله من يسبحه ويسجد له من الشجر والجبال والدواب وممن آمن من الناس، كأتباعك ومن سبقوهم بالإيمان، ولكن الله سيكرم الناس الذين اختاروا السجود، وحققوا الإيمان والتقوى المطلوبة منهم، وهذه هي مشيئته التي لا يقف أحدا أمام نفاذها، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ وقال تعالى أيضا: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[2].

وأما الإرادة فذكرت في الآية الرابعة عشرة من السورة في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، وهو واضح من الآية أن الحديث كان عن مصير الذين آمنوا يوم القيامة، وهي إرادة إلزام، طمأن الله بها عباده المتقين، وإلا فإن الله يفعل ما يريد بعباده سواء آمنوا أو لم يؤمنوا، قال تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]، وفيها اختيار للناس على التزامهم بالتقوى وعدمه، فمن الزم نفسه بالتقوى، ألزم الله نفسه بأن يغفر له ولا يعذبه، ومن ألزم نفسه طريق الغي، فقد حقت

---

[1] – سورة فصلت، الآية 38.

[2] – سورة إبراهيم، الآية 08.

[3] – سورة البقرة، الآية 284.

عليه كلمة العذاب، (وما ربك بظلام للعبيد) قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[1].

7 – وقفة مع سجدتي سورة الحج:

في ختام السورة تأتي آية السجدة في قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2] وهناك مفارقة بين هذه السجدة والسجدة في سورة العلق، التي في قوله تعالى: (كلا لا تطعه واسجد واقترب)، فالسجدة في سورة العلق كانت أول آية سجدة في القرآن، وهي خاصة بالرسول وحده، أما آية السجدة في آخر سورة الحج فهي آخر آية سجدة نزلت، وهي موجهة للمؤمنين جميعاً، فسبحان الله العظيم.

وأما علاقتها بالسجدة الأولى في الآية الثامنة عشر في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، هو:

أولا: تكرر في الآيتين أمر السجود لله تعالى، وأن السجدة في الآية الأولى إنما هي عامة في الجمادات والكائنات جميعا، وحرف "من" الذي يطلق للعاقل ولغير العاقل أكبر دليل على ذلك، والسجدة الثانية خاصة نزلت في الذين آمنوا حيث كانوا هم المأمورون بذلك، لأن الخطاب موجه لهم بدليل أسلوب النداء، وتخصيص المؤمنين دون الناس.

ثانيا: أن المخلوقات جميعا معترفة بالله عز وجل وبوحدانيته بالقوة والفطرة، هذا ما نبني عليه سجود الجمادات كالشمس والقمر، والنجوم والشجر والدواب وغيره مما ذكرت الآية، لأن الله تعالى قرر حقيقة أن الناس لا يفقهون صلاتهم ولا تسبيحهم، ولكن العاقل بعد ذلك هو مخير بأن يخرج هذا الإيمان ويطبقه في واقعه بإرادة منه لا بإكراه، أو لا يخرجه، فهو مسئول عن ذلك، فالله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

---

[1] – سورة الكهف، الآية 29.

[2] – سورة السجدة، الآية 77.

8 – صيغة المبالغة "وما ربك بظلاّم للعبيد":

ما دلالة استخدام صيغة المبالغة في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1] علماً أن صيغ المبالغة لا تنفي الحدث؟

نقول قد يتساءل السائل عن أن الآية تنفي أن يكون الله تعالى ظلاّماً، فهل هذا النفي يشمل أن يكون ظالماً؟ حاشاه سبحانه، فالحقيقة أنه لو أن أي شخص ظلم مجموعة من الناس حتى لو كان الظلم بسيطاً يكون ظلاّماً وليس ظالماً، فإذا كثر المظلومون أصبح ظلاّماً، أما إذا ظلم شخصاً واحداً مرة فيكون ظالماً، والملاحظ في الآية أن الله تعالى قال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2] أي جاء بصيغة الجمع في كلمة العبيد، والعبيد جمع كثرة أصلاً، كما قال في آية أخرى ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ باستخدام الغيوب وهي جمع كثرة، فعندما يجمع الصفة ويبالغها، أي يستخدم صيغة المبالغة كما في الآيتين، وإذا أفرد يفرد الصيغة كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾، و لم يقل عالم الغيوب، وهناك رأي آخر أن هذا هو النسب، أي أنه ليس بذي ظلم، كما يقال في اللغة: (لبّان) للنسب، لأن صيغة فعّال تأتي للنسب،وإذا أخذنا الرأيين نجد أنهما يقتضيان استخدام صيغة المبالغة في ظلاّم.

وأضيف هنا ما أجاب به الدكتور فاضل السامرائي عن سؤال حول استخدام صيغة المبالغة (عَلَّامُ الْغُيُوبِ)، قال الدكتور: «أن "علاّم" تأتي لتفيد الكثرة مع كلمة الغيوب التي هي جمع، و لم يقل تعالى عالم مع الغيوب، وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: (خَالِقٌ بَشَرًا)[3] خالق لبشر واحد، و لم يقل خلاّق، إلا عندما اقتضى المبالغة في السموات والأرض، كما في قوله في سورة يس: ﴿بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾[4]، فصفاته سبحانه كلها مطلقة، وتدل على الثبوت مثل غافر الذنب، قابل التوب»[5].

وجاءت هذه الصيغ في سورة الحج لضرورة التأكيد على مسألة تحصيل التقوى، حيث يعتبر هذا الأمر من أخطر الأمور وأجلها، وكيف لا وهو سبب وجود الإنسان وخلقه، ألا ترى أن السورة قد

---

[1] – سورة فصلت، الآية 46.

[2] – سورة فصلت، الآية 46.

[3] – سورة ص، الآية 71.

[4] – سورة يس، الآية 71.

[5] – لمسات بيانية، فاضل السامرائي، مقالات على الإنترنت، بتاريخ: 20/ 6/ 2008م.

ربطت بين الخلق وبين تحصيلهم للتقوى التي بها فلاحهم ونجاتهم يوم القيامة، وبينت أن هذا الأمر منوط بهم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وكل سيجازى بحسب عقيدته وما ربك بظلام للعبيد.

9 – الفرق بين الحكم والفصل:

الحكم هو القضاء، والفصل أشد، لأنه يكون بَوْن بين أحدهما، وهو أن يكون بينهما فاصل حاجز، لهذا لما يقال في القرآن يفصل بينهم، تكون المسافة أبعد، كأن يذهب أحدهم إلى الجنة، والآخر إلى النار، أما الحكم فلان وقد يكون في ملة واحدة، ولتوضيح المسألة نضرب أمثلة:

1– قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1] هؤلاء يذهبون معاً إلى جهة واحدة، وهم اليهود والنصارى كلاهما، فليس أحدهما إلى الجنة، والآخر إلى النار، فلا فصل فيه.

2– قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[2] اختلاف في ملة واحدة وهم اليهود، وكلهم يذهبون معاً إلى جهة واحدة مع بعض.

3 – قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللّهِ زُلْفَى إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[3]، فكلهم يذهبون إلى جهة واحدة.

4 – قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[4] فهؤلاء لا يذهبون إلى جهة واحدة، فهم فئات مختلفة يجب الفصل بينهم.

والفصل يتضمن الحكم، ولذلك قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ

---

[1] – سورة البقرة، الآية 113.

[2] – سورة النحل، الآية 124.

[3] – سورة الزمر، الآية 03.

[4] – سورة الحج، الآية 18.

يَخْتَصِمُونَ﴾[1] قالوا هو الفصل بين الأنبياء وأممهم، وبين المؤمنين والمشركين، فإذن الفصل حكم لكل بَوْن، كل جهة تذهب إلى مكان، ولهذا قال في سورة ص: ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾[2] هذا حكم قضاء.

المطلب الرابع: آيات الإعجاز في سورة الحج.

لا يتسنى لنا الكلام في هذا المطلب عن اعجاز القرآن الكريم بشكل موسع، ولكني فقط أردت أن أشير إلى بعض ما لفت إنتباهي في سورة الحج من بعض آيات الإعجاز العلمي فيها، وبعض ما جاء في عدد حروفها، أقصد من ناحية الشكل (النظم)، ومن ناحية المعنى (الموضوعات)، ولهذا أردت أن أشير لكل نوع من الإعجاز هنا مما جاء في بعض آياتها، بمثال واحد، دون مسح جميع ما جاء في السورة من إعجاز علمي، إذ ركزت على ما له علاقة بموضوع الدراسة، وما أظن أنه يفي بالغرض هنا.

أولا: التناسق من حيث الشكل (النظم):

وبعض الناس قد لا يروقه الإعجاز العددي في القرآن الكريم، لكن الواقع يفرض نفسه، ولست هنا للدفاع أو الرد أو نصر هذا المذهب، لكنني دندنت حول الفكرة حتى لا أجد نقدا في هذا الموضوع بناء على خلفيتي.

أ – **التناسق العددي** هو: التوافق والانسجام في الأرقام وأعداد الكلمات والحروف.

ويبدو التناسق العددي في القرآن في مظاهر منها:

التناسق في الجذر الثلاثي للكلمات القرآنية:

فقد احتوى القرآن على ما نسبة (34%) من الجذور الثلاثية كما في الصحاح للجوهري، وهذه نسبة عجيبة تستحق التأمل.

إن أي أديب مهما بلغت قدرته الأدبية وموهبته اللغوية لا يمكنه استخدام أكثر من (5%) من أصول كلمات اللغة.

وهذا دليل ظاهر على التناسق العددي في الجذور الأصلية للكلمات القرآنية، وعلى غزارة المادة اللغوية، وعلى أنه كلام الله[3].

---

[1] – سورة السجدة، الآيتان: 24، 25.

[2] – سورة ص، الآية 22.

[3] – معجزة الأرقام العددية، نقلا عن إعجاز القرآن البياني للخالدي، ص332.

2- التناسق في الكلمات:

وقد تكررت كلمة (الحج) في القران الكريم (9) مرّات وجاءت الكلمة التاسعة والأخيرة في سورة الحج، أي أن آخر تكرار لكلمة الحج جاء في الآية (27) من سورة الحج : "وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق"، وهذا يشعر بأهمية الكلمة التاسعة حيث سميت السورة بها.

وعدد كلمات هذه الآية هو (14) كلمة، فإذا ضربنا عدد الكلمات برقم الآية (27) يكون الناتج:

(14 × 27) = (378)، واللافت للانتباه أن العدد (378) هو مجموع الأعداد من 1 إلى 27 : (1+2+3+ ....+ 27) = 378.

فإذا أضفنا إلى هذا العدد عدد آيات سورة الحج يكون الناتج: (378+78) = 456 فتكون المفاجأة أن هذا هو ترتيب كلمة (الحج) بين كلمات سورة الحج.

وقلنا إن تكرار كلمة (الحج) في القرآن الكريم هو (9) مرّات، فإذا ضربنا هذا التكرار بجُمّل كلمة (الحج) يكون الناتج:

(42 × 9) = (378) ولا ننسى أن الكلمة التاسعة هي الكلمة الواردة في الآية (27) من سورة الحج.

إذا ضربنا رقم الآية (27) بعدد كلماتها، وبعدد حروفها يكون الناتج:

(27 × 14 × 51) = 19278 .

إذا قسمنا الناتج على جُمّل (الحج) يكون الناتج:

(19278 ÷ 42) = 459 فتكون المفاجأة أن هذا العدد هو ترتيب الكلمة السابعة في الآية (27) والتي هي (14) كلمة، وتكرار العدد (7) في شعائر الحج لافت للنظر.[1]

[1] - موسوعة الإعجاز الرقمي، الإعجاز الرقمي أسس وضوابط، عبد الدائم الكحيل، الجزء الأول: طبعة: 1427هـ / 2006م، ص119.

ثانيا: التناسق من ناحية المعنى أو الموضوعات:

1- الإعجاز في إعادة الخلق.

لعل العامل الأساسي في اختيار المفردة دون غيرها هو ما تحققه اللفظة المختارة وما تعطيه من معاني ودلالاتٍ، إلى جانب الدلالة الأساسية التي قد تشترك فيها مع غيرها من المفردات.

وقد تختار المفردة القرآنية مع أنه يتصور قيام غيرها مقامها، وعند التأمل نجد أن هذا الاختيار مشروط بموافقته لمعنى يفهم من السياق.

فلو أقيمت أية مفردة غير هذه المفردة لما كان لقيامها محلها شيء من الفائدة التي حققها الاستخدام الأول.

كقوله تعالى: ﴿وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون ولا بقولِ كاهنٍ قليلاً ما تذكرون﴾ [الحاقة:41،42] فما الداعي إلى أن تكون الفاصلة في الآية الأولى: (تؤمنون) وفي الثانية: (تذكرون) وماذا لو لم يكونا كذلك؟

والجواب عن هذا أن مخالفة القرآن لنظم الشعر مخالفة ظاهرة وواضحة لا تخفى على أحدٍ، فالقائلون بأنه شعر كان قولهم كفراً وعناداً محضاً، فناسب ختمه بقوله: ﴿قليلاً ما تؤمنون﴾.

أما مخالفته لنظم الكهان وألفاظ السجع فليست بمثل ذلك الوضوح فيحتاج فيها إلى تدبرٍ وتذكر، لأن كلاً منهما نثر فليست مخالفته لهما في وضوحها لكل أحدٍ كمخالفته للشعر .. فحُسن ختم الاية بقوله: ﴿قليلاً ما تذكرون﴾.[1]

وبذلك تكون المفردة المختارة قد أدت المعنى الأساسي في التعبير، فضلاً عمّا أوحت به ضمن الإطار السياقي نفسه .

ومن هنا كان استحالة تغيير أو استبدال هذه المفردة حتى مع مرادفتها إن كان هناك مرادفا أصلاً.

فاستعمال لفظة زلزلة في بداية سورة الحج في قول: (إن زلزلة الساعة)، واستعمال بعد ذلك لفظة "اهتزت" في قوله بعدها في نفس سياق السورة: (اهتزت وربت)، فاهتزاز التربة حالة مصغرة من زلزلة الأرض، فالاهتزاز حركة حبيبات التربة التي يبلغ قطرها كما يقول علماء الطبيعة (100/2من المليمتر)، وأما الزلزلة فهي حركة أجزاء ضخمة من الأرض، مثل قشرة الأرض التي تبلغ ملايين

---

[1] - ري الضمآن، فهد بن عبد الله الحبيشي، ص73.

الأطنان، ولفهم المعنى يجب ربط الآيات بالسياق العام، فلكل آية سباق ولحاق، فلفهم حقيقة الزلزلة وذلك بالتدقيق والتحقيق في ما هو مألوف موجود في الطبيعة، كالذي نراه في بعض الأفلام الوثائقية، والأشرطة العلمية، طبعا مع ملاحظة الفارق بين الحدثين، من ناحية الحجم والعظمة، ومن ناحية التوقيت.

أضف إلى ذلك أن تشبيه الأرض بالهمود وهي كما قال أهل اللغة حالة بين الحياة والموت، تشبه الأجساد البالية التي لا روح فيها، فهي غير معدومة الوجود كما أنها ليست بحية إلا ما كان من عظم مؤخرة ذنب العجز، الذي قال فيه رسول الله أنه العنصر الذي تكون منه الانسان داخل الرحم، وهو العنصر نفسه الذي يعيد الله الخلق منه، فهو بمثابة البذرة بالنسبة للنبات، ولما أشبه هذا ذاك أردف الله الحديث عن النبات الذي أشبه نموه وتكاثره مراحل النشأة بالنسبة للإنسان؛ بل إن الله يترل من السماء ماء من تحت العرش ليصيب به تلك البذرة المتمثلة في عظم عجز الذنب فتنمو وتنبت كما ينبت الله الزرع إذا أنزل عليه الماء من المزن، وانظر إلى براعة الانسجام والتآلف بين كل جملة وجملة وبين كل آية وآية؛ بل حتى في اختيار القرآن للفظة المناسبة في المكان المناسب والتي لا تعبر عن المعنى إلا هي.

يقول الدكتور سمير تقي الدين في سلسلة دروس الإعجاز العلمي ما مفاده: أن حبيبات التربة تكون متأينة أي حاملة لشحنات كهربائية من جراء الشوارد التي تحملها، فحينما يترل المطر من السماء ويتخلل هذه الحبيبات فإنها تتحرك وتهتز نتيجة التفاعلات الكميائية على سطحها، ومن جراء التنافر بين الشحنات السالبة والموجبة، كما يساعد على حركتها كتلة الماء الساقطة عليها أيضا، فتربو وتهتز، ولهذا قال: (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت)، فكما أن البذر ينبت لما يلامسه الماء، فإن خلايا العظام تنبت أيضا عندما يلامسها الماء النازل من تحت العرش الشبيه بمني الرجال كما وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم، ولما كان أمر الساعة أمرا عظيما فقد وافق إستعمال الزلزلة، وعندما تحدث، عن الإنبات استعمل ما يوافقه من حركة تكفي لهذه العملية، وهو الاهتزاز.

ومن خصائص التراب أنه يشبه في تركيبه تركيب الإنسان، ولنستعرض ذلك معا في هذا المطلب:

يذكر الله عز و جل في كتابة العزيز أنه خلق الإنسان من تراب:

إن المواد اللازمة لخلق ونمو الإنسان يجب أن تكون موجودة بالكامل في التراب، فإذا ما حللنا المواد الموجودة في التراب نجد أن التراب يحتوي على الغازات، الكربون، العناصر والمعادن التالية كما هو مبيّن في جدول (1).

جدول (1): المواد الموجودة في التراب.

هيدروجين (H)	صوديوم (Na)
نيتروجين (N)	كلور (Cl)
أوكسجين (O)	مغنيسيوم (Mg)
كاربون (C)	يود (I)
كالسيوم (Ca)	حديد (Fe)
فوسفور (P)	نحاس (Cu)
بوتاسيوم (K)	سيليكون (Si)
كبريت (S)	

وجسم الإنسان يتألف من مواد إنشائية (أي مواد تؤلّف النسيج العضلي، العظمي، العصبي و غيرها من ناحية المواد التي يتألف منها المنشأ) ومن مواد وظيفية (أي مواد تتحفز وتنجز وظائف الجسم المختلفة من نقل السيالات العصبية، نقل الغازات في الدم وغيرها من وظائف الجسم الحيوية)، المواد الإنشائية في جسم الإنسان تسمى الأحماض الأمينية، والعجيب أن المواد التي تتكون منها الأحماض الأمينية موجودة بالكامل في التراب كما هو موضّح في جدول 2.

جدول (2): مقارنة بين المواد الموجودة في التراب والمواد المكوّنة للأحماض الأمينية.

المواد الموجودة في التراب	المواد المكوّنة للأحماض الأمينية
هيدروجين (H)	هيدروجين (H)
نيتروجين (N)	نيتروجين (N)
أوكسجين (O)	أوكسجين (O)
كاربون (C)	كاربون (C)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وبالنسبة للمواد الوظيفيه في جسم الإنسان فالجدول (3) يوضّح إستخدام بعض العناصر في جسم الإنسان للقيام بالوظائف الحيوية المختلفة.

جدول (3): إستخدامات بعض العناصر في جسم الإنسان في الوظائف الحيوية المختلفة.

المواد	الوظيفة الحيوية
صوديوم (Na) و البوتاسيوم (K)	نقل السيّلات العصبية
الكالسيوم (Ca)	تحفيز عمل الخلايا و عمل العضلات
الحديد (Fe)	نقل المواد في الدم
الفوسفور (P)	تركيب صفائح العظم
اليود (I)	عمل الغدد الصماء
الكلور (Cl)	توازن السوائل في جسم الانسان
النحاس (Cu)	في نقل الطاقة الكهربائية في العظم
السيليكون (Si)	كمادة إنشائية في جسم الانسان
الكبريت (S)	بروتين العضلات
المغنيسيوم (Mg)	في تركيب العظم البشري

بمقارنة جدول (1) و(3) نجد أن المواد الوظيفية في جسم الإنسان موجودة بالكامل في التراب، وهذا بالنسبة للإنسان.

أمّا إذا ماقارنّا بين المواد الإنشائية والوظيفية في النبات وجسم الإنسان، فإنا نجد تطابقا كاملا بين المواد التي تحتاجها النبتة للنمو من ناحية الإنشاء والوظيفة، والمواد التي يحتاجها جسم الإنسان من ناحية النشأه والوظيفة، وهذا التطابق ليس فقط من ناحية أن المواد هي نفسها، ولكن أيضا وظيفتها في النبات وجسم الإنسان، فعلى سبيل المثال عنصر الكالسيوم يُستخدم في جسم الإنسان لتحفيز الخلايا على الإنتاج، وفي النبات عنصر الكالسيوم يُستخدم لنفس الغاية.

فالمواد اللازمة لخلق ونمو النبات موجودة الآن بالكامل في التراب، و قد تكون هي نفس المواد التي يخلق منها الإنسان يوم القيامة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ودون التوسع أكثر في هذه المسألة، وذكر الرياح وكيف تثير السحاب، ويسوقه ... إلى البلد

أردت أن أركز على نقطة أراها مهمة في هذا المقام، وهي مقارنة بين نمو النبات وإعادة تشكيل الإنسان، حيث ورد أيضا تفصيل لآية بعث الإنسان يوم القيامة في سنة حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم: كما في صحيح مسلم "أن في الانسان عظما لا تأكله الارض أبدا، منه يركب يوم القيامة. قالوا: أي عظم هو يارسول الله؟ قال: عجب الذنب، وفي لفظ آخر لمسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلى الله علية و سلم): "ما بين النفختين أربعون" قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوما؟ قال: فأبيت، قالوا: أربعون شهرا؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قال: ثم يترل الله من السماء ماء فينبتون، كما ينبت البقل" قال: "وليس من الانسان شيء إلا يبلى، إلا عظما واحدا وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة"[1].

وهي المرحلة الثالثة للبعث، فالمتدبر في آخر الآية التاسعة من سورة فاطر، قوله: (كذلك النشور).

يستنتج أن الآية تشير إلى أن بعث الناس يوم القيامة سيكون بنفس كيفية إنبات النبات الآن، وهذا يظهر قدرة الله عز وجل وسهولة البعث وإعادة الخلق عليه.

والآن نسعى إلى كشف كيفية أن الإنسان سوف ينبت يوم القيامة من الأرض كما ينبت النبات الآن، وهذا المخطط يقرب هذا المعنى:

مقارنة بين إنبات النبات الآن
وإنبات الإنسان من عظمة نهاية العمود الفقري يوم القيامة

مراحل إنبات النبات	مراحل إنبات الإنسان يوم القيامة
عمل حفرة في التربة ووضع بذرة النبات فيها	عمل حفرة في التربة ووضع جسم الإنسان فيها ويبقى من جسده عظمة ذنب الظهر
طمر الحفرة بالتراب	طمر الحفرة بالتراب
سقاية البذرة بالماء	سقاية عظمة ذنب الظهر بالماء
نمو جنين النبتة داخل البذرة	نمو جنين الإنسان داخل عظمة ذنب الظهر
نمو جنين النبتة ليصبح نبتة و تشقق الأرض بنمو النبتة	نمو جنين الإنسان ليصبح إنسانا و تشقق الأرض بنمو الإنسان

[1] – سبق تخريجه.

ومن أجل فهم كيفية بعث الإنسان يوم القيامة يجب فهم خصائص البلد الميّت المذكور في القرآن الكريم، فهو يحتوي على بذور النبات الآن، وعند موت الإنسان ودفنه في التراب فإن جسمه يتحلل بالكامل بإستثناء قطعة عظمية وحيدة؛ وهي العظمة الموجودة في نهاية العمود الفقري (كما هي موضحة في صورة4)، كما أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم، فالبلد الميّت يوم القيامة يحتوي على عظام نهاية العمود الفقري (ذنب الظهر) للناس، ويحتوي أيضا على التراب.

والصورة في الشكل 4 تبين مقارنة بين بذرة نبات وعظمة نهاية العمود الفقري في الإنسان:

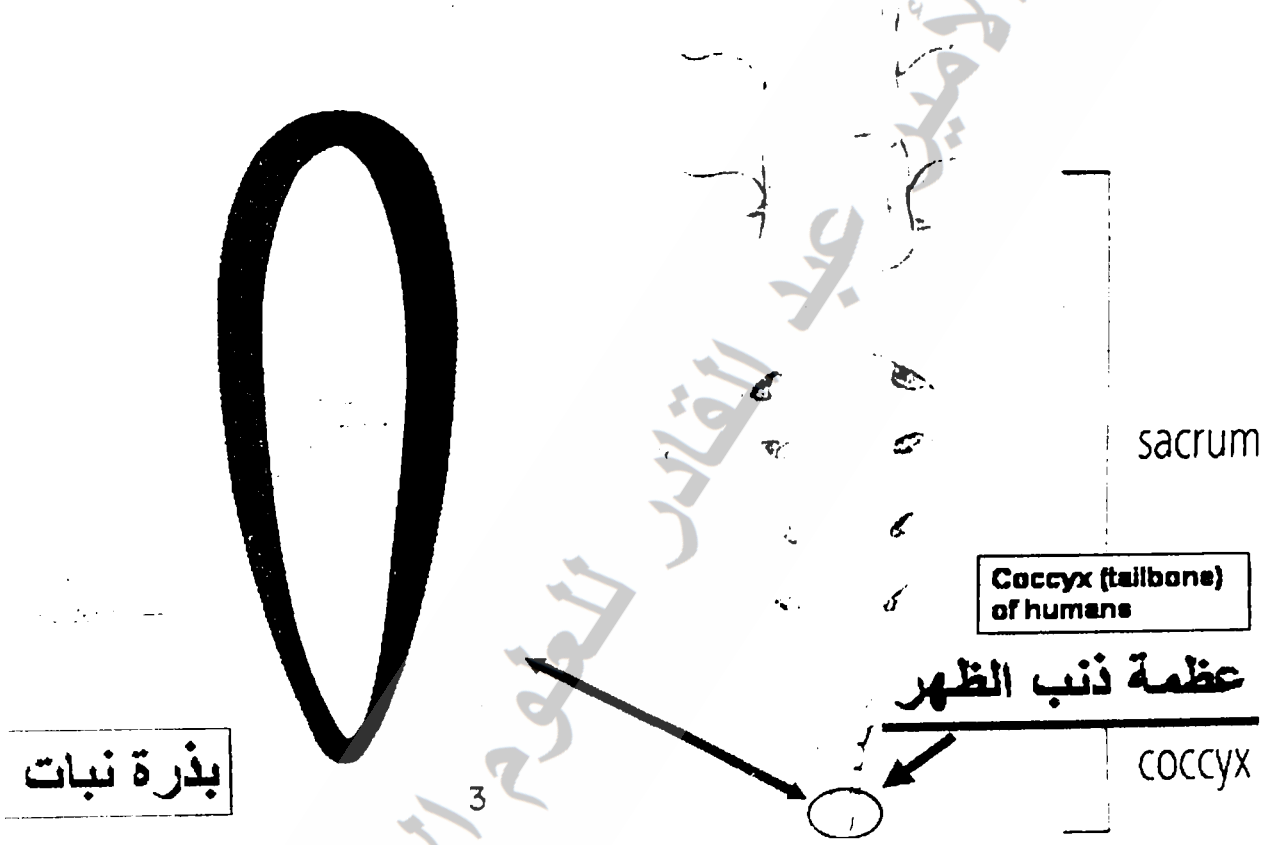

صورة 4: التطابق بين شكل و تصميم عظمة ذنب الظهر في الإنسان و بذرة النبات.

في هذه الصورة يتضح التطابق من ناحية الشكل بين بذرة النبات وعظمة نهاية العمود الفقري، فعظام نهاية العمود الفقري هي بمثابة بذور نبات مبثوثة في التربة، ولكن هذا التطابق لا يقتصرعلى الشكل فقط، فإذا درسنا الخلايا التي تحتويها بذرة النبات فإننا نجد أنها تحتوي على خلايا تسمى الخلايا الأم، التي تستطيع أن تنقسم وتصبح أية خلية تحتاجها النبتة، مثل الخلية التي تنتج مادة السيليولوز ومادة اللحاء، وغيرها من الخلايا. وسبحان الله العظيم عظمة نهاية العمود الفقري (ذنب الظهر) تحتوي أيضا

على خلايا أم تستطيع أن تنقسم وتصبح أية خلية يحتاجها جسم الإنسان للنمو، مثل الخلايا التي تنتج مركبات العضلات، العظم، و غيرها.

وهاهي الصورة في الشكل 5 تبيّن مقارنة بين الخلايا في جسم الإنسان والخلايا النباتية، حيث يتضح من الصورة أن الخلايا في جسم الإنسان تحتوي على نفس المكونات التي تحتويها الخلايا النباتيـــة مثـــل مراكز إنتاج الطاقة، تصنيع البروتينات وغيرها.

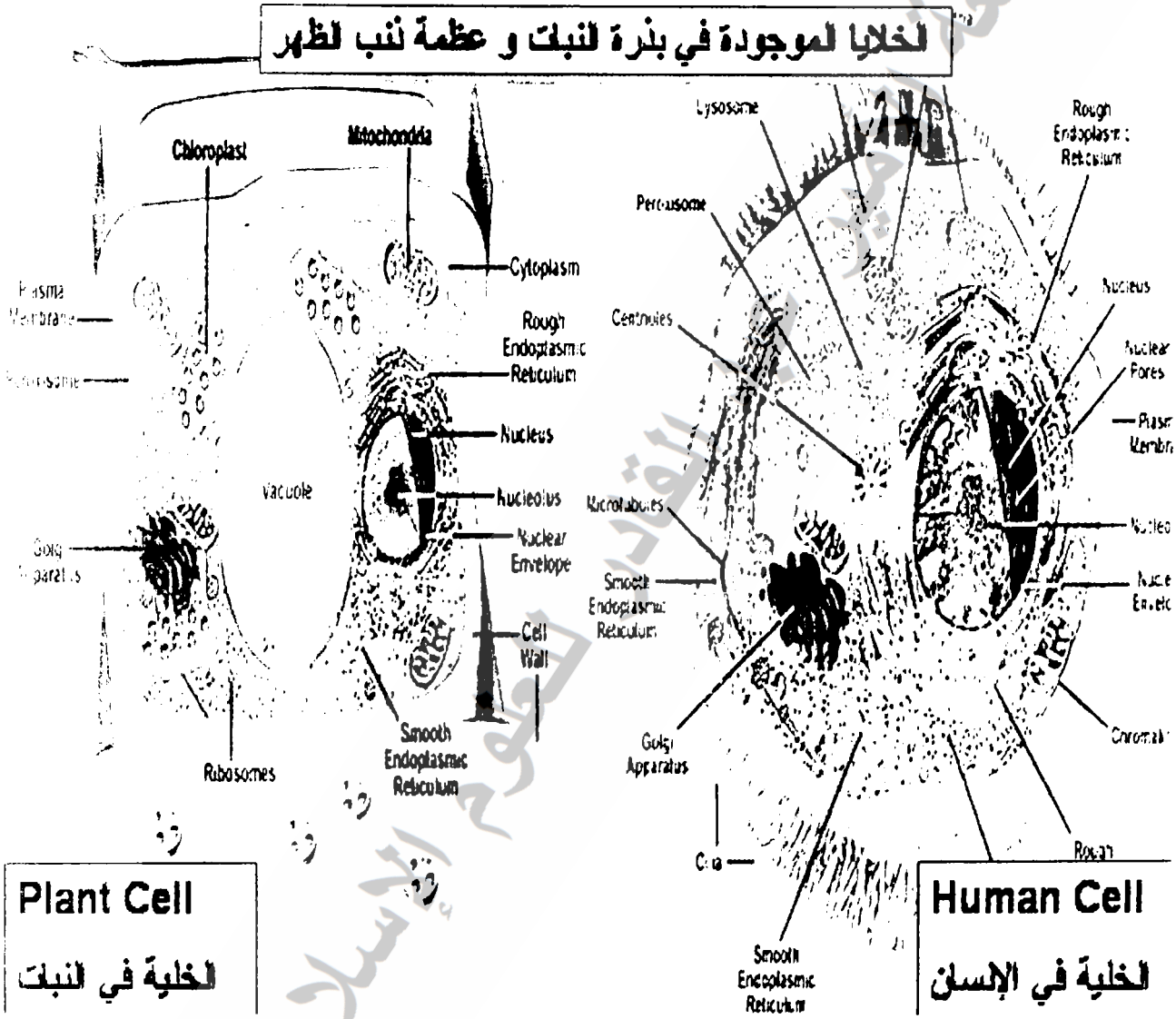

صورة 5: مقارنة بين الخلايا في جسم الإنسان و الخلايا النباتية.

في داخل أنوية الخلايا الموضحة في صورة 5 هناك مركّب يسمى الحامض النووي الرايبوسومي. هذا المركّب يحتوي على أوامر الله عز وجل لصنع أي مركّب في جسم الإنسان وفي النبتة، مثل مركـــب

الجلد، العظم، الخشب، الأوراق و غيرها، ويحتوي مركّب الحامض النووي الرايبوسومي أيضا على صفات النبتة من لون الأوراق، الساق، وغيرها، وفي عظمة ذنب الظهر يحتوي هذا المركب على صفات الإنسان الميّت من لون العينين، الشعر وغيرها، أي أنه عندما يبعث الإنسان يوم القيامة فإنه يبعث بخصائصة المميّزة له، والصورة6 توضح تركيب الحامض النووي الرايبوسومي، ونلاحظ من الصورة أن نمط تركيب المركبات في الحامض هو نفس نمط نمو الأوراق على ساق النبتة.

إن خلق الله عز وجل للإنسان بنفس خصائص وهندسة النبات؛ هو بيان من الله عز و جل لسهولة بعث الإنسان يوم القيامة، وبيان آية بعث للإنسان كل يوم أمام عينيه، عندما ينظر الى نبتة أو شجرة فيدرك أن بعثه يوم القيامة هو بسهولة وضع بذرة في التراب وخروج النبتة منها، وهذا التطابق بين الإنسان والنبات يوضّح الإعجاز العلمي في الآيات الكريمة التالية في سورة نوح:

وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾

ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾

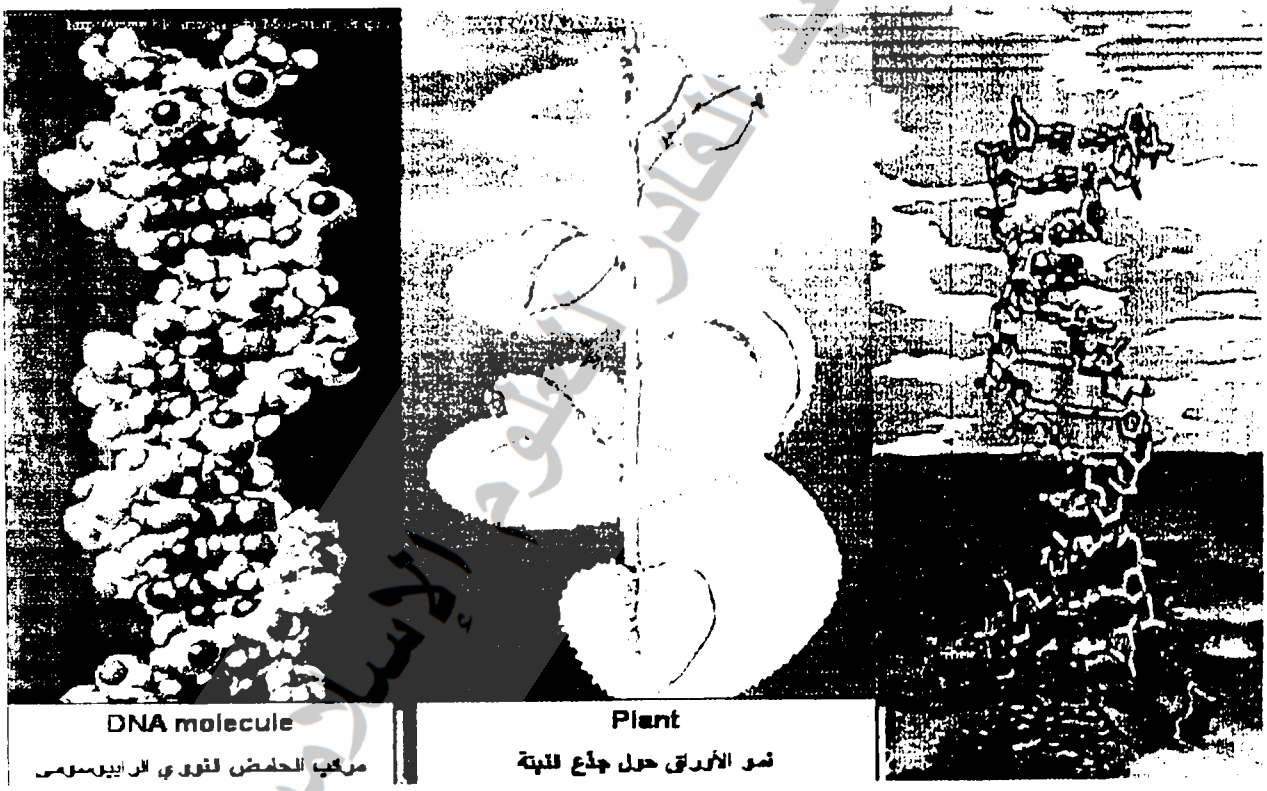

صورة 6: نمط نمو الأوراق على ساق النبتة هو نفس نمط ترتيب المركّبات في الحامض النووي الرايبوسومي.

وهذه صورة أخرى أضفتها في هذا المقام لتوضيح هذه العملية بالمشاهدة ليزداد الذين آمنوا إيمان ولا يرتاب أحد في هذه الحقائق العلمية الموثقة:

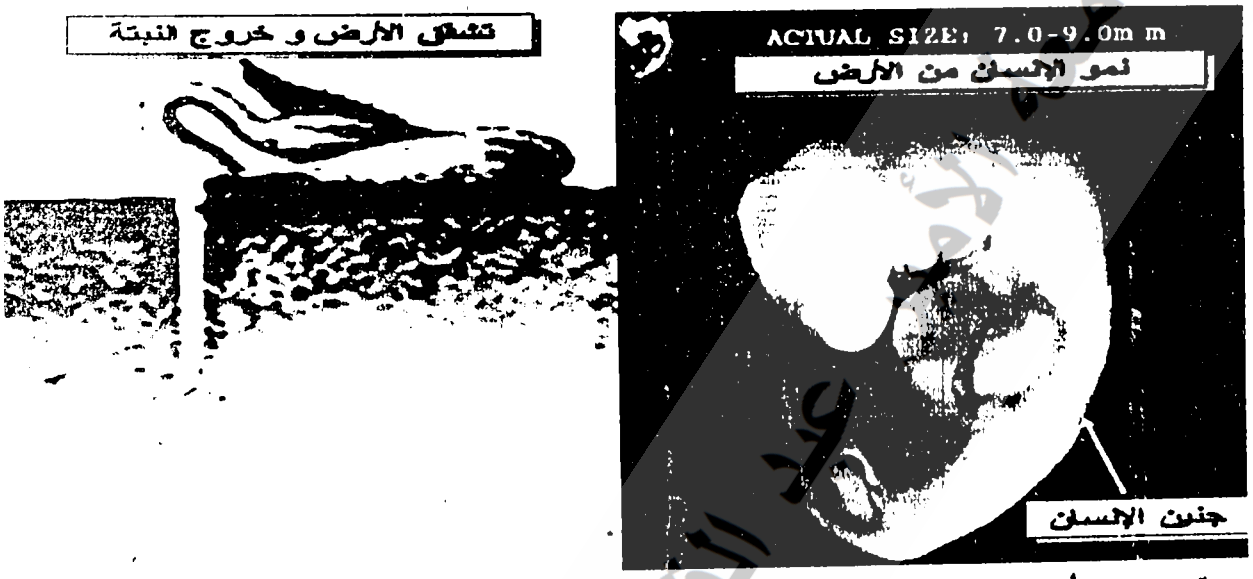

صورة: تشقق الأرض وخروج النبتة منها الآن، وتشقق الأرض وخروج الإنسان منها يوم القيامة.

وصدق الله العظيم إذ يقول في كتابه العزيز الكريم: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾.[1]

2- الإعجاز في الذباب.

ومن آيات الله في خلقه أيضا ما نراه في الآية التي ضرب الله فيها المثل بالذباب، قولـــه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ الحج:73، حيث وجد العلماء أن تركيب الذباب معقدا جداً، ويستخدم تقنيات معقدة في طيرانه وحياتـــه، ولـــذلك فهـــم يعترفون اليوم أنه ليس باستطاعتهم تقليد الذباب في طيرانه المتطور على الرغم من التطور التكنولوجي

[1] - الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، الدكتور: زيد غزاوي: الطبعة الأولى، سنة2004م. ص35، وما بعدها.

المذهل الذي وصل إليه الغرب اليوم، ويقولون: إننا لا نزال نجهل الكثير عن هذا المخلوق العجيب. واعترفوا بأنهم لم يتمكنوا من خلق خلية واحدة!![1].

وقال باحثون في الولايات المتحدة الأمريكية إنهم توصلوا لمعرفة السر الذي يجعل من الصعب ضرب الذباب، ويعتقد الباحثون أن مقدرة الذبابة على تفادي الضربات تعود لدماغها سريع التصرف والمقدرة على التخطيط مسبقاً، وأظهر تسجيل فيديو عالي السرعة أن الذبابة تتعرف على المصدر الذي يأتي منه الخطر وتعد لمسار الهروب، وصور الباحثون في معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا مجموعة من محاولات إصابة الذباب، حيث اكتشفوا أن الذبابة تضع نفسها في موضع "ما قبل الطيران" بسرعة كبيرة خلال جزء من عشرة أجزاء من الثانية من تعرفها على الشخص الذي يستهدفها.[2]

كما أنهم تعجبوا في قدرة الذباب في تحويل الأطعمة والمواد التي يمتصها بسرعة مذهلة تحدث في أقل من ثواني على مستوى الفم، فالذباب لا يملك جهاز هضمي معقد، لذلك يلجئ إلى الهضم الخارجي وذلك من خلال إفراز عصارات هاضمة على المادة المراد التغذية عليها، ثم تدخل هذه المواد المهضومة خارج الجسم إلى الأنبوب الهضمي، حتى يتم امتصاصها لتسير في الدورة الدموية إلى خلاياه، ويتحول جزء منها إلى طاقة تمكنه من الطيران، وجزء آخر إلى خلايا وأنسجة ومكونات عضوية، وجزء أخيرا إلى مخلفات يتخلص منها جسم الذباب[3]، والصورة الموالية تمثل فم الذبابة وهي تمتص بخرطومها الغذاء:

[1] – الإعجاز العلمي في القرآن، مقالات: عبد الدايم الكحيل، بتاريخ: 20/ 05/ 2005م. تاريخ التحديث: 14/ 11/ 2008م.

[2] – الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، الخالدي، ص231.

[3] – القرآن والإعجاز العلمي، عبد الدايم الكحيل، ص255.

كما تمثل الصورة التالية خرطوم الذبابة مكبرا:

وبالإضافة إلى سرعة طيران الذباب، وتعقيد تركيبه البيولوجي، وطبيعة حياته وغذائه فإنه حساس لثاني أوكسيد الكاربون بدرجة عالية، فمن خلال زفير الإنسان! فقد زوّده الله بتقنيات تستطيع التقاط غاز الكربون الذي يزفره الإنسان وتحلل كميته ومصدره، وتتحسس للغذاء من بعيد.

يقول الدكتور نظمي خليل أبو العطا في قوله: (ضعف الطالب والمطلوب) ما نصه: " قيل: الطالب: العابد، والمطلوب المعبود فهو عاجز متعلق بعاجز.

وقيل هي تسوية بين السالب والمسلوب منه وهو تسوية بين الإله والذباب في الضعف والعجز، وعلى هذا فقيل: الطالب الإله الباطل، والمطلوب الذباب يطلب منه ما استلبه منه. وقيل: الطالب الذباب والمطلوب الإله فالذباب يطلب منه ما يأخذه مما عليه، والصحيح: أن اللفظ يتناول الجميع، فضعف العابد والمعبود والمستسلب، فمن جعل هذا إلهاً مع القوي العزيز، فما قدر الله حق قدره، ولا عرفه حق معرفته ولا عظمه حق عظمته، وصدق الزمخشري حين قال:

يا من يرى مد البعوض جناحه في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى مناط عروقه في نحره والمخ من تلك العروق النحل

ويرى خرير الدم في أوصاله متنقلاً من مفـــصل في مفصـــل

ويرى ويسمع حس ما هو دونها في قـــاع بحر مظلم متهـــول

إن الشاعر العربي المؤمن يرى بنور الله، بنور العلم والبصيره، أما العلمانيون الدنيويون فيرون في ذكر هذه الحشرات في السنة النبوية المطهرة والقرآن الكريم فتنه ومجالا للارجاف والتشكيك في قـــدرة الله، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد شاء الله أن يتحدى عقول العلمانيين والمرجفين خاصة في الديار الاسلامية بالـــذباب، ويختـــبر عقولهم وعلمهم ونفسيتهم، فأورد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث النبوي الصحيح الذي رواه البخاري عن الداء في جناح الذبابة والدواء في الجناح الآخر وهنا انقسم الناس إلى فرق منهم:

العَلماني المتربص بدين الله وجدها فرصته لضرب السنه والبخاري فحاول التشكيك في هذا الحديث، ولا يترك مناسبة إلا ويتحدث عنه بتشكيك وإرجاف عجيب.

وهناك من سلَم بالحديث بعد تأكده من صحته وورود في أصح الكتب بعد القرآن الكريم عند أهل السنة والجماعة، والذي تلقته الأمه بالقبول طوال الفترة السابقة.

وهناك من قام بالتحقق العلمي من صحة الحديث عملياً، وأثبت أن الذباب يحمل الداء كمـــا قلنـــا سابقا، ويحمل الفيروس الملتقم للبكتيريا الممرضة على جسم الذبابه وأجنحتها.

ومع كل ذلك ستظل الذبابة من أعظم وأصغر الطـــائرات الجرثوميـــة الـــتي عرفتـــها البـــشرية.

وسيظل حديث الذبابة في البخاري يشهد على علمية هذا الدين وسبقه الحضاري والعلمي، ولا يفهم هذا الأمر إلا من تخصص في مجال الكائنات الحية الدقيقة، وأجرى التجارب العلمية علـــى البكتيريـــا والفيروس ملتقم البكتيريا (البكتيريوفاج)، وكما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَـــضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّـــذِينَ كَفَـــرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـــذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَـــثِيراً وَمَـــا يُـــضِلُّ بِـــهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

فالفاسقون: عندما يسمعون هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لايرون ما فيها من قدرة وعظمة ويرونها مخلوقات تافهة بعقولهم القاصرة فيضلوا عن سبيل الله.

---

[1] - سورة البقرة، الآية 26.

والعالمون: عندما يسمعون هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يتدبرونها ويدرسونها فيرون ما فيه من قدرة وعظمة فيعلمون إنها مخلوقات عظيمه، فيهتدون إلى الصراط المستقيم، فهي آيات للهداية للعالمين, وللضلال للفاسقين"[1].

وفي هذا القدر نكتفي بما أوردنا من الإعجاز العلمي في هذه السورة لأن المقام لا يسمح بذلك، والشيء البارز في هذا المبحث هو قدرة الله تعالى على الخلق، وإعادته، ودقة صنعه، وإحكامه، مما يزيد العبد خضوعا لهذه القدرة ولهذه الحكمة الربانية، فيتقي الله حق تقاته.

وننتقل بعد هذه الجولة بين آيات الإعجاز العلمي إلى آيات الإعجاز البلاغي، والصور البيانية التي تزخر بها سورة الحج، وهذا ما نستعرضه في المطلب الموالي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] - مقالات في الإعجاز العلمي في القرآن، د. نظمي خليل أبو العطا، بتاريخ: 22/ 02/ 2007م، تاريخ التحديث: 15/ 11/ 2008م.

المطلب الخامس: نماذج من الصور البيانية الواردة في سورة الحج.

مقدمة: لا شك أن إعجاز القرآن لا ينكره أحد سواء من الناحية البلاغية أو من الناحية العلمية، في دقة ألفاظه، أو روعة معانيها، وسمو بيانها، أو من أي وجه من أوجه إعجازه، وهذه سورة الحج إحدى سوره قد شحنت بطائفة من البديع، و بمجموعة من الصور البيانية، وعجت بكم من المحسنات البديعية، والمعاني التي عجز عن مثلها كثير ممن يدعي الفصاحة والبلاغة من شعراء العرب وخطباؤهم، ففيها من براعة الاستهلال والتتميم، وحسن التخلص، وائتلاف اللفظ في المعنى، وتأكيد المدح بما يفيد الذم كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾، والمقابلة واللف والنشر، والطباق، والاستطراد وغيرها من الصور البيانية الرائعة، والمحسنات البديعة، وقد اختلفت أساليبها من بديع إلى أبدع، نحو أسلوب التهكم وأسلوب الحكيم[1]، والأسلوب العقلي، وغيرها من الأساليب التي أدهشت أساطين اللغويين من حيث إستعمالها في القرآن بطريقة معجزة.

ومن بين الصور البياني في سورة الحج على سبيل التمثيل لا الحصر:

1 – التشبيه:

التشبيه لغة: التمثيل.

واصطلاحاً: عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر لاشتراكهما في صفة أو أكثر بأداة[2].

وقد يكون من الأوصاف العقلية نحو تشبيههم المرض بالموت والعافية بالملك، وكقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ

---

[1] – أسلوب الحكيم هو: تلقي المخاطب بغير ما يترقبه، كأن يحمل كلام المتكلم على غير ما كان يقصد ويريد، تنبيها على أنه كان ينبغي له أن يسال هذا السؤال أو يقصد هذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، سألوا النبيﷺ عن حقيقة ما ينفقون مالهم فأجيبوا ببيان طرق إنفاق المال تنبيها على أن هذا هو الأولى والأجدر بالسؤال عنه.

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحج﴾ سألوا عن الهلال لم يبدو دقيقا مثل الخيط ثم يتزايد قليلا قليلا حتى يمتلئ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ فأجيبوا ببيان حكمة ذلك، تنبيها على أن الأهم السؤال عن ذلك لا ما سألوا عنه. انظر: جواهر البلاغة، ص231.

[2] – رَي الظَّمـــــــآن في بَيـــانِ القُـــرآن تأليف: فهد بن عبد الله الحبيشي، طبعة: 2005م.

سَحِيقٍ﴾[الحج:31][1] فمثل حال من تلبس بالشرك واعتقده بمنزلة من سقط من السماء فاختطفته الطير فتفرق مزعا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة[2].

شبه الشرك في بعده وتلاشيه وبطلانه وزواله بهذه الأمور التي هي النهاية في البعد والبطلان[3].

ومنه قوله تعالى أيضا: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ(30) حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ(31)﴾ [الحج]

فقال أولاً: (خر من السماء) بلفظ الماضي، ثم عطف عليه المستقبل الذي هو (فتخطفه) و (تهوي) وإنما عدل في ذلك إلى المستقبل لاستحضار صورة خطف الطير إياه وهوي الريح به.

والفائدة في ذلك أنك إذا أردت تشبيه الشيء بغيره فإنما تقصد به تقرير المشبه في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾[الرحمن:24] فشبه السفن الجارية على ظهر البحر بالجبال في كبرها وفخامة أمرها على جهة المبالغة في ذلك.

والمضارع أيضا يفيد الاستمرار، فمثل من يشرك بالله كالذي تنهشه النسور، أو تقذف به الريح في مكان سحيق وقعر بعيد، ولا تزال تلك الصفة ترافقه إلى أن يشاء الله، فكل من قرأ هذه الآية تتبادر إلى ذهنه هذه الصورة ولا يكاد يوصله عقله إلى نهاية القصة؛ بل تبقى الطيور تتخطفه كلما أخذه طير وترك تلقفه آخر وهو في السماء يخر من الأعلى إلى الأسفل الذي لا قرار له، وهذا هو حال المشرك بالله.

ويلاحظ في الآية الثانية في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾، تشبيها بليغا له مصوغه في هذا المقام، وهو تشبيه حال الناس الذين يشهدون تلك المواقف بالسكر، يقول الزمخشري في الكشاف: «وتراهم سكارى على التشبيه وما هم بسكارى على التحقيق»[4]، فحالهم كالسكران

---

[1] - انظر المصدر السابق، ص128.

[2] - انظر الكشاف للزمخشري (مصدر سابق)، 1/ 801.

[3] - الطراز في شرح ضبط الخراز، تأليف: الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله التِّنسي، تحقيق: د. أحمد بن أحمد شرشال، دار النشر، بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة الأولى (1420 هـ)، ص130.

[4] - الكشاف، الزمخشري، (مصدر سابق)، ج1، ص808.

وحقيقتهم غير ذلك، وقد حذف وجه التشبيه والأداة، وأثرُ هذا التشبيه في المعنى أن تساوي حال العباد في صفة السكر بين الحقيقة والخيال دليل على قساوة تلك الأهوال وعظمتها، حيث أثرت في النفس كما يؤثر الخمر على العقول التي تفقد وعيها وإدراكها، حتى لا يكاد العبد يتزن معها في وقفته ويستوي في مشيته، وهذا زيادة في التخويف والتهويل من تلك المشاهد والمواقف، حيث يدفع الناس إلى أن يتقوا هذه الأهوال وتلك المشاهد، وذلك بالتزامهم أوامر الله، وتحقيق الإيمان والتقوى التي دعا إليها في بداية السورة.

2- كما تأتي تلك الكناية في قول الله تعالى في الآية الثامنة والعشرين: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، وهي كناية عن الصفة التي هي النحر والذبح، كناها بذكر اسم الله، وهنا تجدر الإشارة إلى أن المقصود دائما بهذه العبادات والقربات هو ذكر الله والتقرب إليه بالطاعات، وتحقيق الغاية الكبرى التي تتمثل في التقوى.

وما أجمل تلك الصورة البيانية في قوله في الآية الثانية والثلاثين: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾، فلما كانت القلوب مركزا للتقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء.

3 - وجاء المجاز في قوله وكُذّب موسى، والتقدير: وكُذب قوم موسى، لأن التكذيب لم يحصل من بني إسرائيل بل من الأقباط، والمهم هنا أن موسى عليه السلام قد كذب، ولا يهم من كذبه، رغم بيان آياته، ومعجزاته التي جاء بها، وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، كما أسلفنا.

4 - والمجاز بالحذف في قوله تعالى: (عذاب يوم عقيم)، وهو الريح العقيم: الذي لا خير فيه، فلم ينشأ مطرا و لم يلقح شجرا، وكل هذا زيادة في التقريع، والتخويف من أجل تجنب كل ما من شأنه يوصل ويقرب إلى هذا المصير الذي أصاب الذين كذبوا من قبل، وهذا عصمة للمؤمنين، وفرصة للتائبين عسى تنفعهم تلك التهديدات وذلك التقريع.

وفي هذا القدر كفاية حتى لا ندخل في التفسير التحليلي.

المطلب السادس: الغريب في سورة الحج.

من أهم الدراسات في علوم القرآن علم الغريب الذي ألف فيه بعض العلماء قديما[1]، وتتمة للدراسة الأسلوبية لسورة الحج، ولفهم بعض مدلولات ألفاظها، ومعاني كلماتها، أردت أن أقف على بعض الألفاظ الغريبة في آياتها، بعد أن رجعت إلى بعض المراجع التي عنت بهذا الموضوع، فتوصلت إلى بعض المعاني في تلك الألفاظ قد تخدم موضوعات السورة ولو من جهة معينة.

ومن الألفاظ الغريبة التي تزخر بها سورة الحج لفظة" تذهل" في قوله تعالى: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾، أي تسلو[2] عن ولدها وتتركه، وحتى لا يتبادر للذهن معنى آخر، فالذهول هنا جاء بمعنى الترك، أي ترك المرضع ولدها بغير رضاع بالكلية، فلا يعني أنها ترضعه أحيانا وتتركه أخرى، أو لم ترضعه أثناء مشاهدة تلك الأهوال فقط، ثم تعاود إرضاعها له بعد انقضاء تلك المشاهد، لأن بعد تلك المشاهد تكون الدنيا قد فنيت والقيامة قد قامت، فلا إرضاع يومئذ، ولا أكل ولا شراب، ولا أي شيء من أمور الدنيا، فلا ينفع نفس بعد ذلك إيمان ما لم تكن آمنت من قبل، زيادة في الخوف والرهبة، والتقريع.

وجاء في قوله تعالى في الآية الثانية من سورة الحج: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾، أي قضى على شيطانه، ﴿أَنَّهُ مَنْ تَوَلاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾، فلا يظن أحدا من الناس أن كتابة الضلال تكون على من اتخذ الشيطان وليا، بل المعنى أن الله قد حكم على الشيطان بالسخط واللعنة، وقد جرى ذلك في علمه، فلا يتغير ولا يتبدل، وأما بالنسبة للإنسان فإن الله قد أمهله، وقد خيره بأن يكون مطيعا لله أو عاصيا، وأن الله لم يكتب عليه الشقاوة ما دام حيا لم يغرغر، حتى يموت، فإن مات على غير هدى من الله فحينئذ يُكتب عليه ما قد كُتب على وليه، وإن مات على التقوى والإيمان، فإن الله سيكتب له السعادة وسيكتب له الرضا، وهذا من تمام نعم الله على عباده، وانظر إلى ربط هذه المعاني بموضوع إمهال الله تعالى عباده،

---

[1] - ذكرناها سابقا في الفصل الأول، منهم: - تفسير غريب القرآن: للإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الفقيه المفسر المتوفى سنة122هـ، وغريب القرآن: لمحمد بن السائب بن بشر أبو النضر المفسر الكوفي والمتوفى سنة146هـ، وغريب القرآن: ليحيى بن المبارك بن المغيرة العدوي اليزيدي البصري المتوفى سنة202هـ، وغريب القرآن: للنضر بن شميل بن خرشة بن يزيد بن كلثوم البصري النحوي الفقيه المتوفى سنة203هـ وقيل 204هـ، وغيرهم كثير، حيث بلغ عدد المؤلفات في غريب القرآن أكثر من 12 مصنفا.

[2] - وتنسى، قالها: السجستاني، تحت حرف التاء، ص41.

وعدم مبادرتهم بالعقوبة حتى يحق عليهم القول، فهو من باب: وما ربك بظلام للعبيد، وإن الله بالناس لرؤوف رحيم.

وجاءت لفظة "مخلقة"، و"غير مخلقة" قصد ها تامة، وغير تامة (يعني السقط)، وذلك في الآية الخامسة في قوله: (مخلقة وغير مخلقة)، وهذا قبل أن يراها الناس ويعرفها العارفون، ولكن لماذا؟ تجيب الآية نفسها فيقول تعالى: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ كيف نخلقكم ﴿فِي الأَرْحَامِ﴾، وهذا يدخل في علم الله الذي استأثر به في الغيب عنده، ويؤكد قدرة الله وإحاطته بكل صغيرة وكبيرة، وهو من تمام قدرة الله وعلمه، ثم لا زال الكلام مستمرا عن علم الغيب، حيث يعلم الله أجل وعمر كل نفس فقال: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ يعني قبل بلوغ الهَرَم، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾، أي الخَرَف والهرم، وقوله: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي مَيِّتَةً يابسةً، ومثل ذلك همود النار: إذا طَفِئت فذهبت، ثم ﴿اهْتَزَّتْ﴾ بالنبات، ﴿وَرَبَتْ﴾ انتفخت[1]، وقال الراغب الأصفهاني: "واهتز النبات: إذا تحرك لنضارته، قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج/5]، واهتز الكوكب في انقضاضه، وسيف هزهاز، وماء هزهز ورجل هزهز: خفيف"[2].

وجاء في ذيل الآية السابقة قوله: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، أي من كل جنس حسن، يُبْهِجُ، أي يَشْرح، وهو فعيل في معنى فاعل، يقال: امرأة ذات خَلْق باهِج، وفيه إشارة لقدرة الله تعالى، وحكمة صنعه، حيث تتضح لنا تلك القيم الجمالية في خلق الله تعالى، وبهذا يقف كل جبار متكبر عاجزا مسلما قد ضعف سعيه في تكذيبه وكفره، أمام هذا الخلق، وهذه العظمة، ويزداد الذين آمنوا إيمانا، فيحققوا التقوى التي أمروا بها.

ولهذا ناسب مجيء الحديث عن المعرضين المتكبرين في الآيات التي بعدها، كما في قوله تعالى: ﴿ثاني عطفه﴾، أي متكبر معرض، كما قال السجستاني.

وقد انتقيت بعض الغريب الذي جاء معناه متمما لتقريع الكفار في وصف العذاب الذي ينتظرونه يوم القيامة، زيادة على تخويفهم بالزلزلة وأهوال يوم القيامة، حيث يقول تعالى في الآية التاسعة عشر: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾، أي الماء الحار، الذي وصفه المولى تبارك وتعالى بأفظع

---

[1] - غريب القرآن المسمى: "نزهة القلوب"، أبو بكر السجستاني، مصطفى عناني، 1936م، ص65.

[2] - المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المطبعة اليمنية، 1324هـ، ص673.

الأوصاف، فقال:﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾، أي يُذاب، يقال: صَهَرت النارالشَّحْمة، والصُّهارة: ما أُذيب من الأَلْيَة[1].

ثم تأتي ايات موضوع الحج حيث يوافق معناها مبناها، ومدلولاتها تشاكل ألفاظها، حين يُستنفر الناس من كل فج عميق يشهدون أيام الحج الأكبر، أين يعبدون الله ولا يشركون به شيئا، لأن وصف ذلك التروح على الأقدام وعلى كل هزيل من المراكب من أجل تحصيل التقوى، والفوز بالجنة والنجاة من النار، يشترك فيه جميع الناس، فليس معنى قوله ياتين من كل فج عميق، مقصور على البدو دون القائمين في مكة، بل إن هذا التروح والنفر إلى المشاعر والمواقف عام للناس جميعا، بل إن أهل مكة أولى بذلك، لقربهم وعدم المشقة عليهم، حيث يقول تعالى في بداية هذا الموضوع، بداية من الآية الخامسة والعشرين: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾، المقيم فيه والبادي، وهو الطارئ من البدو، سواء فيه، فليس المقيم فيه بأولى من النَّازح إليه، وتتابع الآيات في هذا السياق فيقول تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾، أي من يرد فيه إلحادا، وهو الظلم والميل عن الحق، سيذيقه الله عذاب الحريق يوم القيامة، وما دام الأجر هناك مضاعف فإن الإثم مضاعف أيضا، ولقد جاء في الأثر أن الصلاة في البيت تعدل مائة ألف صلاة في غيره، ولهذا كان الإثم مضاعفا أيضا، وفي هذا إشعار وتخويف الناس من اقتراف الذنوب في البقاع المقدسة، لأن ذلك ينافي الإيمان والتقوى، ولعل تسميته بالبيت العتيق بنفي عنه التجبر والتكبر فيه، كما قال السجستاني في قوله تعالى: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، سمي بذلك لأنه عتيق من التَّجَبُّر، فلا يتكبر عنده جبّار[2].

وفي قوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالا﴾، أي رَجَّالةً، جمع رَاجِل، مثل صاحب وصِحَاب[3]، وقوله أيضا: ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾، أي رُكْبَانًا على ضُمْرٍ من طول السفر، وقوله: ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾، أي بعيد غامض، إشعار بشغف المؤمنين للقاء الله في الحج، وحبهم في إحياء الشعائر وتعظيم الحرمات، وإقامة العبودية له وحده لا شريك له، فمن أجل ذلك يأتون ولو على أقدامهم من البلاد البعيدة ليشهدوا منافع لهم في الدنيا والآخرة، فأما بالنسبة للمنافع الأخروية فهي كل مناسك الحج مثل ما جاء

---

[1] - المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص68.

[2] - المصدر السابق، ص72.

[3] - غريب القرآن السجستاني، (مصدر سابق)، ص71.

في قوله: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾، يعني رَمْيَ الجِمَار، والوقوفَ بجمع، وأشباه ذلك، وهي شعائر الله، وقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾، والتَّفَثُ: الأَخْذ من الشارب والأظفار، ونتف الإبطين، وحلق العَانَة، وكل هذه النسك مرتبطة بمواقيت معينة، كما في قوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾، يوم التَّرْوِيَة، ويوم عَرَفَة، ويوم النَّحر. ويقال: أيام العشر كلها.

وأما المنافع الدنيوية، ففي قوله: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[1]، يقال: التجارة، وقوله تعالى أيضا: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾[2]، يعني ما جاء في سورة المائدة من الميتةِ والمَوْقُوذَةِ والمُتَرَدِّيَةِ والنَّطِيحَةِ.

ثم تصف الآيات حال المشرك في بعده عن هدى الله تعالى، وتصوره كأنه يسقط من مكان عال إلى الحضيض، لكي تنفّر من الشرك والتقربَ إلى أهله، حيث قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾، وهذا مثل ضربه الله لمن أشرك به، في هلاكه وبعده من الهدى، و(السَّحِيقُ) البعيد، ومنه يقال: بُعْدًا وسُحْقًا، وأَسْحَقَهُ الله، وهذا الوصف من أروع الأوصاف وأصدق التمثيلات، حيث توحي إليك هذه الألفاظ، وتلك العبارات دقة القرآن في اختيار الكلمات التي تنفذ إلى صميم المعنى المراد، فلن تجد بديلا عنها ولو لففت ديوان العرب كله، حيث لا يفكر بعدها العبد في الشرك ولا في القرب منه، ولا فعل شيء قد يشك في أن فيه شرك ولو قليل، فيتريث قبل أن يخوض في أي عمل أو فعل، ويرى قبل ذلك حكم الله فيه، وهذا الأمر يصدق على جميع حياة الفرد المسلم التقي، ليزداد إيمانه بالله ويتقه حق تقاته.

ثم يأمر الله تعالى عباده بالتصدق والإنفاق من لحوم تلك الذبائح التي ينحرونها في منى، والهدي الذي يتقربون به إليه، على الفقراء والمساكين التي ذكرهم الآية في قوله: (الْقَانِعَ)، يعني: السائل، يقال: قَنَعَ يَقْنَعُ قُنُوعًا؛ ومن الرِّضا قَنِعَ يَقْنَعُ قَنَاعَةً، وقوله: (الْمُعْتَرَّ)، الذي يَعتريك: أي يُلِمُّ بك لتعطيه ولا يَسْأَل، ويقال: اعْتَرَّني وعَرَّني، وعَرَاني واعْتَرَاني، لأن العبرة بذلك هو التآلف بين قلوب المؤمنين وحفظ حقوق ضعفاء المسلمين، لأن الله قال: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا﴾، حيث كانوا في الجاهلية: إذا

---

[1] – قال به أكثر المفسرين، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، الطبعة الرابعة، 1983، ج4، ص633.

[2] – المصدر نفسه، والصفحة أيضا.

نحروا البُدْنَ نضحُوا دماءَها حول الكعبة؛ فأراد المسلمون أن يصنعوا ذلك، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾، ولهذا أراد الله أن تكون لهذه الأمة طريقة خاصة ومنسكا فريدا في تحقيقهم تقوى الله تعالى.

لأن أصل القربة هي طاعة الله، وليس هو الذبح في ذاته، وهذا هو معنى القربة الحقيقية، والتي تعني اتقاء كل ما من شأنه يُبعد عن المنهج المعتدل، والسنة الصحيحة في الارتقاء إلى درجة التقوى الحقيقية التي أمر الله بها عباده.

ثم تأتي آيات الإذن بالجهاد، لدفع الظلم المسلط على المتقين من جانب الكفار، الذين أخرجوهم من ديارهم بغير حق، ودفاعا عن المقدسات والمحرمات التي تمثل رموز هذا الدين، وعلامات على العبودية والاتقاء، حيث كانت هذه السنة في الدفاع عن الحق وأهله جارية عند جميع الناس، على اختلاف مللهم وديانتهم، فقال تعالى: ﴿لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ﴾ للصَّابئين، (وَبِيَعٌ) للنَّصارى، (وَصَلَوَاتٌ) يريد بيوت صَلَوَات، وهي كنائس اليهود، (وَمَسَاجِدُ) للمسلمين، هذا قول قتادة، وقال: الأديان ستة: خمسة للشيطان، وواحد للرحمن، فالصابئون: قوم يعبدون الملائكة، ويصلون للقبلة ويقرأون الزَّبور. والمَجُوس: يعبدون الشمس والقمر، والذين أشركوا: يعبدون الأوثان، واليهود والنصارى.

وفي قوله: (وَقَصْرٍ مَشِيدٍ)، يقال: هو المبني بالشِّيد، وهو الجِصُّ، والمَشِيد: المُطَوَّل، ويقال: المَشِيدُ والمُشَيَّد سواء في معنى المطول.

ثم يأتي الحديث عن سنة الله في حفظه لوحيه ولدينه، ودفاعه عن الأنبياء وأتباعهم من مكائد الشيطان وحبائله، ويبين حقيقة ضعف الشياطين وأتباعهم، وأنهم لن يعجزوا الله، ولن يتغلبوا على سننه وقوانينه، ويتفوقوا على علمه وقدرته، فقال تعالى: (مُعَاجِزِينَ) مُسَابِقِين، وفي هذا طمأنة الله لعباده الضعفاء الذين إذا أُعتديَ عليهم من طرف الجبابرة والمخالفين، فإنهم يلجئون إلى الله تعالى، طلبا للحماية من هؤلاء، وللدفاع عنهم مكائد الشياطين، والمعتدين، وبذلك يكون لهم سندا يرتاحون إليه، ويطمئنون له، فتخضع قلوبهم، ويزيدهم إيمانا وتقوى، ولهذا قال في الآية التي بعدها: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾، أي تخضع وتَذِلّ.

وأما الكفار فقد وعدهم بالعذاب في الآخرة والدنيا لأنهم استكبروا، فزيادة في تفظيع مصير الكافرين يوم القيامة، وتغليظ القول والحساب، قال تعالى: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾، كأنه عَقُمَ عن أن يكون فيه خير أو فرج للكافرين.

ثم تأتي الآيات ترسخ ثقة المؤمنين بربهم، بتسليتهم تارة وبكشفه دلائل قدرته تارة أخرى، وبلطفه بهم، وبتذكيرهم بنعمة الإسلام والإيمان، حتى يثبتوا ويداوموا على شكرها، يقول تعالى ابتداء من الآية السابعة والستين: ﴿ولكل أمة جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ أي عيدًا، و﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي برهانا ولا حُجَّة، وقوله: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ الحج72، أي يتناولونهم بالمكروه من الشتم والضرب، وقد لا يعجب الكفار أن يفرح المسلمين بأعيادهم، وربما يغيظهم ذلك، خاصة اجتماع المؤمنين في الحج الأكبر، فيتمنون تفرقهم، بل يوشك أن يعتدوا عليهم باليد واللسان، حسدا من عند أنفسهم، لأن الله قد فضّل هذه الأمة على سائر الأمم، واختارها على رأس الخلائق، كما جاء في قوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾[1]، أي اختاركم.

ومن رحمته واصطفائه لهذه الأمة أنه يسَّر لها دينها، حتى يتمكن جميع المسلمين من تحصيل التقوى، ولا تقع في ضيق، ولا حرج، مع عدم تكليف النفس ما لا تطيق، حيث جاء في تفسير قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، أي ضيق، كل ذلك مما بلّغكم به رسولكم صلى الله عليه وسلم، كما تكونوا أنتم أنفسكم شهداء على غيركم، حيث رفعكم الله إلى مترلة الأنبياء، قال تعالى: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾، أي قد بلغكم، ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بأن الرسل قد بلّغتهم.

ومن كان الله مولاه فقد أفلح وفاز، ومن اتخذ من دون الله فقد خاب وخسر، ولهذا يقول تعالى في آخر السورة: ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾، أي الوَلِيّ، ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أي الناصر، [الذي لا غالب له][2].

وباتضاح بعض مدلولات هذه الألفاظ الغريبة في سورة الحج، نفهم كثيرا من الموضوعات الجزئية، والتي تصب في مواضيع عامة في السورة، من ذلك ترك المرضع إرضاع إبنها بالكلية دليل على أن

---

[1] - الحج، الآية 78.

[2] - مفردات القرآن، الأصفهاني، ص793.

القيامة قد قامت حقيقة، وأن الزلزلة واقعة عند القيامة وليس قبل ذلك، كما أوضحنا ذلك في مكانه، كما أن كتابة الله على الشيطان الشقاء، وعدم كتابته على من يتبعه، فيه رحمة من الله بالعباد، لأن كتابة الله الشقاء على الإنسان حال توليه للشيطان، فيه غلق لباب التوبة والعفو والغفران، وينافي عدالة الله ورحمته، لأن هذا المتبع للشيطان قد يتوب ويرجع عن غيه وعن توليه له، فلا يبقى عليه بعد ذلك شقاء.

كما أن بيان الله للعباد طريقة خلقهم في الأرحام نعمة منه ومنّة، لأن الناس قبل هذا الزمان لم يطلعوا بعد على هذه المراحل، لأن العلم لم يتوصل إلى كشف ما يدور في البطون عيانا، ولكن استعمال ما هو مألوف من الأدلة والبراهين، مثل مراحل الصبا ثم الشباب، ثم الشيخوخة، وكذا مراحل تطور النبات، وإحياء الأرض بعد موتها، من باب ذلك البيان الذي تتم به الحكمة والعلم، ويتم به فهم المعنى المقصود.

كما أن وصف الله العذاب في قوله: (يُصهر به ما في بطونهم)، بالذوبان زيادة في التخويف والترهيب منه، ومعرفة مدلول لفظة "إلحاد" في آيات الحج من السورة، والتي فسرت بالظلم، فيه دفع قوي لترك الناس لأي مظلمة قد يهم بها بعض الناس في تلك البقاع المقدسة، ولو لم يكن هناك معنى آخر لها لكفت، ذلك أن تشبيه الظلم بالإلحاد لأمر منفر حقا، وبات على كل مؤمن أن يتجنبه خاصة في أرض الله المقدسة، ومصداقا لقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[1]، وإن معرفة بيان قوله تعالى: (ليشهدوا منافع لهم)، بالتجارة، فيه زيادة رغبة في [illegible] ليست المنفعة منفعة أخرى عند الله فقط، ولكن المنفعة أيضا شيء من الدنيا قد يتعلق قلب العبد به، فقد راعى الله عز وجل الأنفس واختلاف نوازعها، وتقلبات شهواتها رحمة منه ونعمة والله ذو الفضل العظيم.

وهذا جل ما جاء في كتب أصحاب الغريب قد أحطت ببعضه في هذا المطلب، موضحا علاقة كشف المعنى الحقيقي لهذه الألفاظ الغريبة في سورة الحج، والموضوعات الجزئية التي يصب فيها هذا المعنى، بقدر الطاقة. والله أعلم.

---

[1] - سورة البقرة، الآية 197.

المبحث الثالث: مواضيع سورة الحج.

المطلب الأول: المقاصد العامة لسورة الحج، وآراء العلماء في ذلك.

من خلال الوهلة الأولى لقراءة سورة الحج، يبدو أنها ذات مواضيع متنوعة، وقضايا متعددة، لا تصب في مصب واحد، وهذا في الحقيقة خلاف الواقع حيث أن التنوع والتعدد يخدم الموضوع العام للسورة، وهو أيضا من تمام إعجاز القرآن وهديه؛ إذ أن هناك انسجاما تاما، وتناسقا كاملا بين هذه الموضوعات والمقصد الرئيس للسورة، وقد تكلم العلماء والمفسّرون في مواضيع سورة الحج، بين مقل ومكثر، وبين مجمل ومفصل.

وسأعرض الآن أقوالهم، وسنبين مراميهم، ونخلص إلى تقسيم هذه السورة إلى مقاصد عامة نفصلها في الفصل اللاحق.

يقول العلامة الطاهر بن عاشور: «ومن أغراض هذه السورة:

1- خطاب الناس بأمرهم أن يتقوا الله، ويخشوا يوم الجزاء وأهواله.

2- والاستدلال على نفي الشرك، وخطاب المشركين، بأن يقلعوا عن المكابرة في الاعتراف بانفراد الله تعالى بالإلوهية، وعن المجادلة في ذلك، إثباتا لوسواس الشياطين...

3- وتفضيع جدال المشركين في الوحدانية، بأنهم لا يستندون إلى علم، وأنهم يعرضون عن الحجة، ليضلوا الناس.

4- وأنهم يرتابون في البعث، وهو ثابت لا ريب فيه، وأن الله ينزل من الماء على الأرض الهامدة، فتحيا، وتخرج من أصناف النبات، وهذا من أدلة البعث....وأن مجادلتهم بإنكار البعث، صادرة عن جهالة، وتكذيب..ووصف المشركين بتكذيبهم عن سنة إبراهيم عليه السلام..وتذكيرهم بما منّ الله عليهم في مشروعية الحج، من المنافع، فكفروا نعمته، وتنظيرهم في تلقي دعوة الإسلام للأمم البائدة، وأنه يوشك أن يحل بهؤلاء مثله، فلا يغرهم تأخير العذاب..وأن يوم القيامة هو يوم الفصل بينهم... .

5- وسلّى الله رسولهﷺ، والمؤمنين، بأن الشيطان يفسد في قلوب أهل الضلالة....

6- وفيها التنويه بالقرآن الكريم، والمتلقين له بخشية، وصبر..

7- وفيها الإذن بالقتال، وضمان النصر، والتمكين في الأرض لهم...

8- وختمت السورة بتذكير الناس بنعم الله عليهم، وأن الله اصطفى خلقا من الملائكة، ومن الناس،

فأقبل على المؤمنين بالإرشاد إلى ما يقربهم من الله..»[1]

وهذا في رأيي مجرد أفكار أو تفاصيل جعلت المفسر كلما مر بآية أو فكرة عدها مقصدا من مقاصد السورة، أو غرضا من أغراضها، ولو ترك العنان لنفسه، لما وضع حدا لتعديد أغراضها، بل أن مسائلها لا تنتهي، كما يقول الرازي عن سورة الفاتحة بأن مسائلها لا حصر لها، وكذلك القرآن فإن مسائله غير منتهية، وهذا من تمام إعجازه، وإن لكل مفسر أن يستنبط من الآية الواحدة مئات المسائل، كما فعل القرطبي عند حديثه عن قوله تعالى في سورة الكهف مثلا، (على أن نجعل لك خرجا) مستدلا على الجعالة، أو عن استئجار شعيب عليه السلام لسيدنا موسى عليه السلام مستدلا بقوله تعالى: (فإن خير من استأجرت القوي الأمين)، وهي مسائل فقهية...وهكذا كل مفسر يأخذ من هذا المعين، ويستنبط منه، ما يراه يخدم موضوعه.

في حين يرى سيد قطب أن سياق السورة يجري في أربعة أشواط:

- حيث يبدأ الشوط الأول بالنداء العام، نداء الناس جميعا إلى تقوى الله، وتخويفهم من زلزلة الساعة، ووصف الهول المصاحب لها، وهو هول عنيف مرهوب، ويعقب في ظل هذا الهول، باستنكار الجدل في الله بغير علم، وإتباع كل شيطان، محتوم على من يتبعه الضلال، ثم يعرض دلائل البعث من أطوار الحياة، في جنين الإنسان، وحياة النبات..ويربط بينها وبين أن الله هو الحق...وكلها سنن مطردة، وحقائق ثابتة، متصلة بناموس الوجود...، ثم يعود إلى استنكار الجدل في الله، بغير علم، ولا هدى، ولا كتاب منير، بعد هذه الدلائل المستقرة في صلب الكون، وفي نظام الوجود،... وينتهي هذا الشوط بتقرير أنّ الهدى والضلال بيد الله، وأنه سيحكم بين أصحاب العقائد المختلفة يوم الحساب....وهنا يعرض ذلك المشهد العنيف من مشاهد العذاب للكافرين، وإلى جواره مشهد النعيم للمؤمنين..

- ويتصل الشوط الثاني بنهاية الشوط الأول، بالحديث عن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله، والمسجد الحرام، ويستنكر هذا الصد عن المسجد الحرام، الذي جعله الله للناس جميعا،.... وبهذه المناسبة يذكر طرفا من قصة بناء البيت، وتكليف إبراهيم عليه السلام أن يقيمه على التوحيد، وأن يطهّره من رجس الشرك، ويستطرد إلى بعض شعائر الحج، وما وراء ذلك من استجاشة مشاعر التقوى في القلوب، وهي الهدف المقصود، وينتهي هذا الشوط بالإذن للمؤمنين بالقتال، لحماية الشعائر والعبادات من العدوان الذي يقع على المؤمنين، ولا جريرة لهم إلا أن يقولوا : ربنا الله.

---

[1] - التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مصدر سابق)، ج16/ 17، ص183 - 184.

- وأمّا الشوط الثالث فيتضمن عرض نماذج من تكذيب المكذبين من قبل، ومن مصارع المكذبين. ومشاهد القرى المدمرة على الظالمين. وذلك لبيان سنة الله في الدعوات، وتسلية الرسول ﷺ، عما يلقاه من صد وإعراض، وتطمين المسلمين، بالعاقبة التي لا بد أن تكون. كذلك يتضمن عرض طرف من كيد الشيطان للرسل والنبيئين في دعوتهم، وتثبيت الله لدعوته، وإحكامه لآياته، حتى يستيقن بها المؤمنون، ويفتن بها الضعاف والمستكبرون.

- ويتضمن الشوط الأخير وعد الله بنصرة من يقع عليه الظلم، والبغي، وهو يدفع عنه العدوان ويتبع هذا الوعد بعرض دلائل القدرة في صفحات الكون والى جوارها يعرض صورة مزرية لضعف الآلهة التي يركن إليها المشركون، ...وتنتهي السورة معه بنداء الذين آمنوا ليعبدوا ربهم، ويجاهدوا في الله حق الجهاد، ويعتصموا بالله وحده، وهم ينهضون بتكاليف عقيدتهم العريقة، من أيام إبراهيم الخليل...وهكذا تتساوق موضوعات السورة، وتتعاقب في مثل هذا التناسق... [1]

لقد لخصّ سيد قطب رحمه الله تعالى مقاصد السورة، وقسمها إلى أربعة أشواط كبرى، تضمن كل شوط مجموعة من القضايا والمشاهد، عرضت في السورة عقيدة، وعبادة وجزاء. وقد جزء السورة، متتبعا في ذلك أفكارا مجردة، غير مربوطة بمجموعات معينة من الآيات، فلم يشر إلى عدد آيات كل شوط، و لم يبين على أي أساس قسّم هذه الأشواط.

في حين نرى الشيخ محمد علي الصابوني في كتابه: "إيجاز البيان" يتحدث عن سورة الحج، ومقاصدها، فيقول:

تبتدئ السورة الكريمة بمطلع عنيف مخيف، ترتجف لهوله القلوب، مطلع الزلزال العنيف، الذي لا يدك القصور والبنيان فحسب!! بل يزيد في الهول على خيال الإنسان، في المرضعات الذاهلات عن أطفالهن، والحوامل الملقيات حملهن، والناس الذين يترنحون كأنهم سكارى، وما هم شيء من الخمر والسكر، ولكنه الموقف المرهوب الذي تتزلزل له القلوب: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[2].

---

[1] - في ظلال القرآن، سيد قطب، (مصدر سابق)، ج4، ص2409، بتصرف قليل.

[2] - سورة الحج، الآية 1.

ثم ينتقل إلى أدلة البعث والنشور، وهناك يجازي الله الناس على ما قدموا، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، وعلى أن قدرة الله لا يعجزها شيء، فإنّ الذي خلق الإنسان من نطفة، ثم من علقة.... لا يعجزه أن يعيده مرة أخرى.

ثم ينتقل إلى شيء ثالث يقول عنه: وتتحدث السورة عن نموذج من البشر يزنون العقيدة بميزان الربح، والخسارة.

ثم تتناول السورة الكريمة، مشهدا من مشاهد القيامة، يتجلى فيه الهوان والذل لفريق، والإنعام والإكرام لفريق آخر.

ثم تناولت السورة مشروعية القتال في الإسلام لا حبا في سفك الدماء؛ بل دفاعا عن النفس ضد الظلم والطغيان.

وتنتقل السورة للحديث عن القرى المدمرة بسبب ظلمها وطغيانها، ومصارع الغابرين المكذبين، وذلك لبيان سنة الله في الدعوات، وتسلية رسولهﷺ، وكيف ضرب الله مثلا للذين اتخذوا من دون الله أربابا، وكيف كان مصيرهم، وما هي قدرتهم.

ثم تختم السورة الكريمة بدعوة المؤمنين إلى عبادة الله وحده، وفعل الخيرات، والطاعات، وتذكيرهم بنعمة الإسلام التي هي ملة إبراهيم[1].

وقد نحى الشيخ محمد علي الصابوني نفس المنحى الذي سلكه الشيخ الطاهر بن عاشور، إذ عدد مسائل السورة، والتي استخلص منها سبع مسائل مستشهدا بالقرآن نفسه.

ويختلف سعيد حوى عن هؤلاء جميعا، فيطبق منهجا جديدا، ويعتبره معيارا يحدد من خلاله أغراض السورة، وهو أنه يهتم فيه بتقسيم السورة إلى مقاطع، يحددها بآيات معينات، بحسب اجتهاده، ثم يفسر كل مجموعة منها ويجعلها درسا واحدا، تنطوي تحته أفكار ومسائل، ليخلص بعد ذلك إلى هدايات الآيات، حيث عمد في أساسه إلى طريقة سهلة ميسورة، تمكن من خلالها أن يوفق إلى الكشف عن مقاصد السورة على أساس النظم، فجعل كل مقطع من مقاطعها يبتدأ بقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ...﴾، فحصر بذلك أغراض السورة في أربعة:

الأول: الأمر بالتقوى، وعلة ضرورة إقامتها، وذكر ما يصرف الناس عنها، من جهل، وإتّباع هوى.

---

[1] - إيجاز البيان في علوم القرآن، محمد علي الصابوني، ص96 دار الصابوني، الطبعة الثانية، 1986م.

الثاني: بيان طريقة التقوى بالعبادة التي تعتمد على المعرفة الصحيحة لذاته، وصفاته التي تدلنا على حكمة الله في خلق الأشياء، فتستوجب علينا الإيمان به، وباليوم الآخر، وهذه المعرفة تتمثل في العلم والهداية والكتاب.

الثالث: أمر الرسول بالدعوة، وجزاء المكذبين، وعدم تعارض انتقامهم من الذين اعتدوا عليهم مع التقوى التي يجب أن يكونوا عليها، وتعديد نعم الله على العباد ليشكروه عليها، بإقامة مختلف العبادات، من حج، وجهاد، وغيرها.

الرابع: ضرب المثل للناس بما يفهمون، ويعقلون برهانا على قدرة الله وعلمه، وذكر مجموعة من الأوامر هي أجزاء من التقوى، كالركوع والسجود، وفعل الخير....[1]

كما نلاحظ أن الشيخ سعيد حوى قد قسَّم السورة إلى أربعة أغراض عامة، لم يعط عنوانا معينا لكل غرض، بل هي كلمات مقتطفات، مما فهمه الشيخ، من خلال تفسيره للمقاطع، والمجموعات من الآيات، وسياق المعنى.

وكما قلنا سابقا من أن هذا العمل قد يتفاوت فيه العلماء، فبعضهم يجعل للسورة أربعة مقاصد يستنبطها، وقد يخالفهم آخرون فيجعلونها خمسة، وقد تتناقص بعد ذلك أو تتزايد حسب كل مفسر، كما أن تقسيمه لهذه السورة على أساس النظم، فيه إجحاف في حق المقطع الأول والأخير، ذلك أن أربع آيات في المقطع الأول، إلى ثلاث وأربعين في المقطع الثاني ضئيل جدا، مما خلق نوعا من عدم التوازن بين المقاطع، رغم أنه أجاد في كشف أوجه التناسب بين الآيات، والمجموعات بعضها ببعض.

وقد حاولت بدوري أن أُلَخِّص أغراض السورة مستشهدا على كل مقطع بما تكرر فيه من الإشارة إلى موضوع السورة الرئيس، لا سيما أن صلة هذه الإشارة، وهي تكرار لفظة "التقوى" بالموضوع الرئيس صلة وطيدة واضحة، فالموضوع الرئيس يتحدث عن التقوى، وهذه الإشارة توحي للمعنى المقصود؛ بل تأكده.

أضف إلى ذلك أنني لاحظت لفظا قد تكرر في السورة، هو لفظ: "كذلك"، وماذا يعني ذلك العطف، إلا أنه انتقال من معنى إلى معنى آخر، في نفس السياق، كما هو الشأن في الجمل المعطوفات بحروف العطف، مما ساعدني في تقسيم سورة الحج إلى مقاصد عامة، أو أغراض كافية، وافية، إن شاء الله تعالى، جميعها تصب في موضوع السورة، وهي بإيجاز:

---

[1] - الأساس في التفسير، سعيد حوى، (مصدر سابق)، ج7، ص3519، وما بعدها.

أولا: الحث على التقوى، والتذكير بالآخرة.

ثانيا: البعث وأدلته، ودوره في تحصيل التقوى.

ثالثا: الحج وأحكامه، وأثره في تثبيت التقوى.

رابعا: سنن الله في الخلق وعلاقتها بتقوى الله.

خامسا: ضرب الأمثال، والأمر بالطاعات. وعلاقته بالتقوى.

المطلب الثاني: تناسب مواضيع سورة الحج فيما بينها:

بعد القراءة المتأنية والتدبر الدقيق، وتتبع آيات سورة الحج آية آية، ومقطعا مقطعا، والكشف عن محاورها التي تدور حولها السورة، وبعد استعراض آراء بعض العلماء فيها[1]، خلصنا في المطلب السابق إلى تحديد المقاصد العامة لهذه السورة، وهي عدة مقاصد، كلها تصب في الموضوع الأساسي للسورة.

ومنها: الدعوة إلى التقوى، والاستدلال ببداية الخلق على البعث، والجدال في الله بغير علم، وسنن الله في خلقه، ومصير كل فريق منهم، ودفاعه عن دينه بنصر رسله وأتباعهم، وتشريع العبادات التي تُحصِّل بها تقوى الله، وتشريع ما يحميها ويحمي المقدسات، كالجهاد في سبيل الله، والعقاب بالمثل، وضرب الأمثال على قدرة الخالق وضعف المخلوق، ودعوة الخاصة من الناس بعد دعوة العامة منهم إلى تحصيل التقوى، إلى فعل الخيرات، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والاعتصام بحبل الله، والتمسك بسنة إبراهيم عليه السلام.

وبالبحث الدقيق والتفحص العميق، لاحظنا ذلك الرابط المتين، الذي يجمع بين هذه المقاصد، وذلك التناسب والانسجام بين تلك المقاطع والموضوعات، خاصة ذلك التدرج من محور إلى آخر ومن موضوع إلى موضوع، حيث يأمر الله تعالى عباده في بداية المحور الأول بالتقوى ويحثهم عليها، وذلك بتخويفهم وترهيبهم بالآخرة وزلزلة الساعة، وما يحدث فيها من أهوال عظيمة، وأحداث جسيمة، تبلغ منها القلوب لدى الحناجر، وتضع فيها الحوامل ما في بطونها، وتذهل المرضعات عن إرضاع أولادهن، وترى الناس يومئذ كالسكارى من شدة فظاعة تلك المواقف، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله

---

[1] - منهم العلامة: سيد قطب، والطاهر بن عاشور، وعلي الصابوني، ومصطفى المراغي، حيث جاء في تفسيره لسورة الحج، أن موضوعاتها أقسام ثلاثة، 1) البعث والدليل عليه وما يتبع ذلك، 2) الحج، والمسجد الحرام، 3) أمور عامة كالقتال وهلاك الظالمين، والإستدلال بنظام الدنيا على وجود الخالق وضرب المثل بعجز الأصنام وعدم استطاعتها خلق الذباب. انظر تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، دار الفكر، الطبعة الثالثة، 1394هـ/ 1974م، ج6، ص83.

شديد، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1]، وذكر بعد ذلك صنفا من الناس غير متقين، وليسوا بمؤمنين وغير معترفين بالبعث، ذلك أنهم كذّبوا بالساعة، وبتلك الأهوال والأحداث الجسام، وتلك المواقف والمشاهد المرعبة، التي تبعث على تحصيل التقوى المنجية منها، وأنها ليست بأمر حاصل في المستقبل، فأردف بعدها أدلة تثبت حدوث هذه الأهوال في آخر الزمان، كي لا يبقى معها أدنى شك يراود أحدا من الناس، فيرجعون عن طريق الغي والضلال إلى طريق الحق والهداية، والمناسبة تظهر جلية حينما يأتي المقطع الثاني يحدد معالم بعض العبادات التي يحصّل من خلالها العبد المؤمن التقوى المرجوة منه والمأمور بها في المقطع الأول، حيث ذكر لهم أجّل العبادات وأعظمها وأجمعها لشعائر الله تعالى، ألا ترى أن الحج زبدة العبادات التي فرضها الله على عباده، إذ يجمع بين الصلاة والصيام، والذكر والهدي والصدقات، والتهليل والتحميد، ورفع الصوت بالتكبير والتلبية، مع تجرد الحاج من كل أمور الدنيا بإحرامه، ومنع النفس عن دنس الدنيا وملذاتها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الوقوف بين يدي الله عز وجل، وحشر الناس جميعا في موقف واحد، وفي مكان واحد لهو أشبه بوقوفهم يوم القيامة بين يدي الله الجبار حفاة عراة في أرض المحشر، قد تساوت بينهم الدرجات، وزالت بينهم الفوارق، حتى يحكم الله بينهم وهو خير الحاكمين، ويقول الدكتور فاضل السامرائي في هذا المعنى:

«فالحج يذكرنا بيوم القيامة وبزحمة ذلك اليوم والناس يملؤون أرجاء الأرض، وكلهم متجهون إلى مكان واحد في لباس واحد في حرّ الشمس (النفرة من مزدلفة والنزول من عرفة والتوجه لرمي الجمرات)، ولذا جاءت الآيات في أول السورة عن يوم القيامة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ آية 1 و2 وكم تساءلنا عند قراءتنا لسورة الحج ما الرابط بين يوم القيامة وسورة الحج! والآن وضحت الصورة وفهمنا مراد الله تعالى من هذه الآيات، فما أنزل الله تعالى الآيات إلا في مكانها المناسب بتدبير وحكمة لا

---

[1] - سورة الحج، الآية 1

يعلمها إلا هو، ولكن العبد يجتهد في تحرّي هذا المعنى حتى يفهم هدف الآيات التي يتلوها فسبحان الحكيم القدير.

والحج يذكرنا بيوم البعث، فمنظر الحجيج في مزدلفة وهم نيام بعد وقوفهم في عرفة عليهم آثار التعب ويعلوهم التراب والغبار، ثم يؤذن لصلاة الصبح فتراهم يقومون وينفضون عنهم التراب كما لو أنهم بعثوا من قبورهم يوم البعث.

والحج يذكرنا بالجهاد ولذا جاءت آيات الجهاد في السورة بعد آيات الحج لأنّ الحج تدريب قاس على الجهاد لما فيه ارتحال من مكان لآخر وتعب والتزام بأوقات، ومشاعر أمر بها الله تعالى وعلّمنا إياها رسولنا الكريم ﷺ.

والحج يذكرنا بالعبودية الخالصة لله تعالى فالكل في الحج يدعون إلهاً واحدا في عرفة، حتى الشجر والدواب والطير والسموات والأرض، كلهم يدعو ربه ويسبحه لكن لا نفقه تسبيحهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾»[1].

وهذا الانتقال من الحث على التقوى إلى تحديد طريقة تحصيلها، هو انتقال طبيعي وتدرج منطقي لربط أفكار السورة، إن جاز تسمية قضايا السورة بهذا الاسم، - فالحث على التقوى ثم ذكر طريقة تحصيل هذه التقوى بواسطة عبادة الحج التي تشمل كثيرا من مشاعر الدين الأعظم الأغر، ليأتي الحديث بعد ذلك عن الأنبياء وبيانهم الطريق الصحيح لمعرفة الله تعالى، وكسب الإيمان الحقيقي، وتحصيل التقوى المطلوبة، مع ذكر مصير المخالفين والمكذبين في الدنيا والآخرة، والاستدلال بنصرة الرسل على قدرة الخالق وضعف المخلوق، مما يقتضي الخنوع والخضوع للباري جل وعلا، والرجوع إليه وتحقيق طاعته، ليحصل منه الرضا ويفوز المؤمنين بنصر الله يوم الساعة، ويتقوا تلك المهالك وتلك المواقف والمشاهد، ويؤمنون من فزع يومئذ، حين ترى الناس سكارى وما هم بسكارى - لأمر واضح وتسلسل جلي يربط بين مقاطع السورة، لأنه بعد ذكر الأمر بالتقوى يُتوقع سؤالا من المخاطبين يتبادر إلى الذهن: أمرتنا بالتقوى، فما الطريق لتحصيلها؟؟، كما رأينا سابقا.

---

[1] - لمسات بيانية، فاضل السامرائي، (مصدر سابق)، ص67.

ولو دققنا النظر في صلة موضوع سنن الله في الذين خلوا من الأقوام الذين كذبوا رسلهم، وخالفوا أمر أنبيائهم وصدوا عن سبيل الله، بموضوع أصناف الناس الذين ذكرتهم السورة، لوجدنا أن الرابط الذي يجمعهم هو المجادلة في الله بغير علم، وإتباع الأهواء والشياطين من جهة، ومن جهة أخرى فإنهم اتفقوا أيضا في وحدة المصير، وهو الهلاك والدمار والخزي والخسران، لأن السورة ذكرت المنافقين، ورؤوس الضلال وأتباعهم، وقد كان فيمن مضى كل هذه الأصناف، فلهذا ناسب ذكر هذا الموضوع في سورة واحدة.

ثم إن الناظر في موضوع تسلية النبي صلى الله عليه وسلم، ليرى ذلك الرابط بينه وبين طمأنة الله لعباده المؤمنين، وهو أن تسليته له إنما تعني أن الله تعالى وعد أنبيائه ورسله بالنصر وإنجاز وعده بإظهار هذا الدين، وإعلاء كلمة الحق، وإزهاق الباطل، وهو الشيء نفسه الذي يفرح المؤمنين بتحصيله، والذي يتمنوه من ربهم، فوحدة المقصد – إعلاء كلمة الله – سببا في اشتراكهم في وحدة المصير، ولهذا كانت هذه التسلية بضرب أمثلة بسنن الله في الأمم البائدة، إنما أراد الله بها أيضا طمأنة عباده المتقين، لأن الله قد بين لهم في سننه أن النصر كان حليف أتباع الأنبياء، وأن الهلاك كان لأعدائهم، فتسلوا هم بدورهم واطمئنوا لذلك.

وأوضح ما تظهر فيه المناسبة بين مواضيع هذه السورة، هو ذاك الرابط الذي يجمع بين موضوع التسلية، وموضوع تشريع الجهاد في سبيل الله، والإذن بالدفاع عن المقدسات والحرمات، ذلك أن وعد الله ماض، وسنته باقية في نصر المتقين، الذين شرع الله لهم ما يحافظ على إيمانهم وتقواهم، فكان هذا الإذن بمثابة تطبيق لما سمعوه من قبل عن نصر الله للذين خلوا من قبل، وليس هذا فحسب بل إن الله قد وعدهم بالدفاع عنهم، ولهذا قال في الآية الثامنة والثلاثين من سورة الحج: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾، فكان هذا الإخبار وعدا من الله، فزادهم طمأنينة، وعزما على تحقيق النصر الذي وضع الله له قوانين وسنن، مع أخذ الأسباب الموصلة لتلك الغاية، من إعداد العدة وتقديم كل ما من شأنه يخدم هذا الدفاع، ويحقق النصر، ويحافظ على المقدسات التي هي سبب في تحقيق التقوى المرجوة.

كما أن الانتقال بعد ذكر الجهاد في سبيل الله إلى الاعتبار بسنن الله في الذين خلوا من قبل إنما هو أيضا بمثابة تشجيع لهم على المضي قدما في الثبات على تقوى الله تعالى، وتحذيرهم من الوقوع في مزالق

الشرك والكفر، لأن نصركم هذا إنما هو بسبب نصركم لله تعالى بإقامة شعائره، واحترام مقدساته، واستجابتكم لطاعته، وتحقيق تقواه، وليس بسبب قوتكم أو غناكم، أو شيء آخر.

وبعد بيان الله لهذه السنة أراد من المؤمنين أن يبرهنوا على إيمانهم، وصحة إعتقادهم، بهجرتهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وهجر قبل ذلك كل قبيح ينافي التقوى المطلوبة منهم، فجاء الحديث بعده عن مجازاة الله للذين هاجروا ومدحهم، فقال في الآيات: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(58) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ(59) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[1]، فوعدهم بالجنة وبالرزق الحسن، على صبرهم على الذين أخرجوهم بغير حق من ديارهم، وعلى هجرتهم ابتغاء وجه الله، وحيث كانت العادة جارية على أن الهجرة من بلد لآخر بسبب طلب الرزق، والتوسعة في المال والكسب، والضرب في الأرض، من أجل تحقيق أمور دنيوية، ولهذا كان مدحهم مناسب تماما في الآيات، وهذا أيضا هو من باب طمأنتهم بما ينتظرهم، وأن ربهم ليفيهم أجرهم غير منقوص، ويعوضهم أجر ما صبروا عليه في الدنيا بنفس جنس العمل.

كما تلوح تلك المناسبة بين موضوع البعث وموضوع ضرب الأمثال، متمثلة في ضرب الله للمثل بخلق أمور حية، تصلح أن تُقارن بخلق الإنسان باعتباره كائنا حيا ينمو ويتكاثر وفق سنن وقوانين طبيعية قد أودعها الله في الكون، فاستدل على حدوث البعث بإحياء النبات في مراحل تشبه مراحل خلق الإنسان، من ناحية التدرج من خلق إلى خلق، واستدل على ضعف الإنسان بضعف الذباب من ناحية عدم قدرته على خلق شيء، وعجزه عن أبسط الأمور، فوافق أن كان الذباب كائنا حيا والنبات كائنا حيا، والإنسان كائنا حيا يحمل صفات الكائنات الأخرى، فالنتيجة أن الإنسان خاضع لإرادة الله الذي يخلق ما يشاء ويفعل ما يشاء، وإن شاء دليلا على ذلك فلينظر إلى نفسه فسيرى ذلك، فلماذا إذن يتكبر على الله، و لم يحقق ما أُمر به من طاعة وتقوى.

وسنعرض لهذا الموضوع في مناسبة موضوعات السورة في القرآن.

---

[1] - سورة الحج، الآيات: 58، 59، 60.

التقوى والكلام عن الساعة وأحولها، وأحوال الناس فيها، واختتمت السورة بنفس الاسلوب وبنفس النداء، في الآيات الثالثة والسبعون، والربعة والسبعون، وهو خطاب الناس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوب﴾[1]، وفيه كما سبقت الإشارة إليه إلى ضرورة تحصيل التقوى بطريقة غير مباشرة بالوقوف على قدرة الله الحقيق بالعبادة، وأن المعبودات من غيره لا تستحق ذلك، وكما نلحظ هذا الانسجام التام في الترابط بين المفتتح والاختتام في الآيات السابقة، نجد أن ذلك الارتباط يزداد قوة في ذكر الخاص بعد العام، حيث افتتحت السورة واختتمت بخطاب جميع الناس لتحصيل التقوى، بيد هذا لا يتحقق من جميع الناس، وأنهم ينقسمون إلى مؤمن وكافر ومنافق، ولا شك أن التركيز على الذين يحبهم الله هم عباده المؤمنون السائرون على منهج التقوى، ولذلك يخاطبهم في نهاية السورة بقوله: ﴿يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾، وفي هذا نمط قوي للمقدمة بالخاتمة في ضرورة تحصيل ما افتتحت به السورة، وهو تحصيل التقوى والدوام عليها.

وقال في اولها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)، وقال في آخرها علّمهم كيف يتقون: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ 77) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ

---

[1] - سورة الحج، الآية 73.

المطلب الثالث: علاقة مفتتح السورة بخاتمتها:

افتتحت السورة في مقطعها الأول إبتداء من الآية الأولى والثانية بنداء الناس لـــضرورة تحـــصيل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ هذه التقوى، تكون بالركوع والسجود والمجاهدة حتى ينجوا من عذاب الله الشديد، ثم كرر الطلب في آخر آية ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾، كيف يتقون؟ بهذا التفصيل، بعد أن أمرهم بالتقوى، علّمهم كيف يفعلون، حيث ذكر في آخر السورة مظاهر التقوى، فلما قال لهم اتقوا الله قد يقولون كيف نتقيك؟ فيجيبهم: إفعلوا كذا وكذا.

المطلب الرابع: تناسب الموضوعات مع الموضوع الأساسي لسورة الحج.

لقد توصلنا سلفا إلى تقسيم السورة إلى مقاطع من حيث القضايا التي تناولتها، وحددنا في المطلب السابق الموضوع الرئيسي لسورة الحج، جئنا الآن لكشف العلاقة والتناسب الموجود بين تلك المقاطع وذاك الموضوع، حيث يتضح لدينا من خلال إمعان النظر، وتتبع تلك المعاني التي تحدث عنها كل مقطع بتريث وروية، وبالنظر إلى العمود الأساسي للسورة، أن هناك علاقة وطيدة وتناسبا قويا بينها، لأن الحديث عن التقوى والأمر بها يقتضي الحديث عن كل ما يعين ويساعد على تحصيلها، وهذا من باب رحمة الله تعالى بعباده ولطفه، لأن الله خلق العباد وأرشدهم إلى الأخذ بالتي هي أقوم، مع بيان ما يجب الأخذ به، وما يجب الانتهاء عنه وإجتنابه، فنرى السورة قد تناولت في المقطع الأول الحديث عن الترهيب لأجل الأخذ بما أمروا به وهو الأمر بالتقوى من جهة، وتناولت الحديث عمّا يصرف الناس عنها من اتباع للشيطان والمجادلة في الله بغير علم، وأورد على حصول ما رهبّهم به أدلة وحججا وبراهين بما لم يترك معها أي مدخل من مداخل الشك والريب للتكذيب بالساعة وبيوم الزلزلة من جهة أخرى، وهو من باب من يسأل عما يعينه ويساعده كي يأتي بالمطلب على أكمل وجه، إذا ما طُلب منه شيئا معينا، ويبدو هذا منطقي خاصة إذا كان هذا المطلب أمرا عظيما وخطيرا مثل التقوى التي أمر الله بها في مطلع السورة، ويتمثل عظم وخطورة هذا الأمر في أنه متعلق بقضية مصير منتظر إما جنة أو نار.

وأما ذكر الحج وشعائر الله، والجهاد في سبيل الله باعتباره واجب تحمى به تلك الشعائر وتلك العبادات، وهو من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فلأن العبادات وتعظيم الشعائر والحرمات، وخاصة حرمات الله تعالى هي الطريق الأمثل والوسيلة الأنفع التي شرعها الله تعالى للناس لتحصيل التقوى والإيمان، التي طلبت منهم بادئ ذي بدأ، حيث أن أساس التقوى هي مدى خضوع

العبد لربه، ومدى استسلامه بتنفيذ تلك الأوامر، وإقامة تلك العبادات والشعائر، ويكون هذا التقسيم للواجبات والتكاليف بقدر إيمان العبد وتقواه وخوفه من ربه جل وعلا.

وأما المقطع الأخير فواضح أن التقوى لا تحصل إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة أوامره ونواهيه، وحيث لا تتم هذه المعرفة إلا بإتباع الرسل الكرام وتصديقهم، لأنهم هم المخولون بالحديث عن رب العالمين، وهم الأعرف والأعلم بما فرضه الله من أحكام وشرائع أنزلها الله للناس، وإن بيان مصير المكذبين في الدنيا والآخرة، بتذكير الناس بالأمم السابقة وهلاكهم وما ينتظرهم يوم القيامة من عذاب، ونصرة أتباع اللأنبياء في الدنيا وفوزهم يوم القيامة بما أعده الله لهم من نعيم، لهو من أعظم الأسباب التي تحمل الناس على التقوى ومداومتها، وتثبيت الإيمان في النفوس والقلوب، هذا فضلا عن ضرب المثل بقوة الخالق وضعف المخلوق الذي لا يمكنه أمام هذه العظمة وهذه القوة إلا أن يستسلم ويخضع لخالقه ومولاه، ولا يتحقق ذلك إلا بالقيام بالطاعات وإخلاص النيات، التي أمر الله بها عباده المؤمنين الذين استجابوا له ولرسوله، في آخر هذا المقطع في قوله: ﴿يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا واسْجُدُوا واعْبُدُوا رَبَّكُمْ وافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]، وهذا من باب رد العجز على الصدر.

فالحث على التقوى، والتذكير بالآخرة، والحديث عن البعث وأدلته، ودوره في تحصيل التقوى، والحج وأحكامه، ومعرفة سنن الله في الخلق وأثر كل ذلك في تثبيت التقوى، وقضية ضرب الأمثال، والأمر بالطاعات، وعلاقته بالتقوى، يصب في معنى واحد ومقصد واحد، ولهذا كان التناسب بين هذه الموضوعات متين والعلاقة بينها متكاملة، ومتعدية، لأن كل موضوع من هذه الموضوعات يخدم جانبا مهما من جوانب الإيمان والتقوى، حيث نلحظ ذلك الانتقال والتسلسل بين موضوع وآخر، فلا يمكن أن نفصل بين هذه المواضيع التي تهذف جميعا إلى الحث على تحصيل الناس للتقوى.

---

[1] - سورة الحج، الآية 77.

المطلب الخامس: تناسب موضوعات سورة الحج بالقرآن الكريم.

تعريف المناسبة:

المناسبة في اللغة :المقاربة والمشاكلة[1]، يقال: "بين الشيئين مناسبة وتناسب أي، مشاكلة وتشاكل [2]"وقال ابن فارس: "النون والسين والباء كلمة واحدة قياسها اتصال شيء بشيء"[3]، وهي تعني الرابطة بين شيئين بأي وجه من الوجوه[4].

وفي اصطلاح المفسرين: وجه الارتباط بين كلمات الآية الواحدة، وبين كل آية بما قبلها وما بعدها، والسورة بما قبلها وما بعدها، وعرفها البقاعي بقوله: "علم تعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن، وعرفها بعضهم بقوله: "الكشف عن علل اختيار النظم وترتيبه"[5].

ولقد رأينا سابقا أن مواضيع سورة الحج مختلفة ومتعددة، **وأنها جميعا تصب في موضوع محوري واحد** هو **موضوع التقوى**، وقد كشفنا عن ذلك الرابط الذي يجمع بينها وبين موضوعها الرئيس، ولاحظنا كيف أن كل مواضيع السورة تخدم بعضها بعضا من جهة، وتخدم العمود الرئيس للسورة من جهة أخرى، وربما أن مجموع هذه المواضيع في سورة الحج قد تشكل شيئا واحدا متكاملا، ولكنها إذا تفرقت لا تشكل إلا جانبا واحدا، أو جزئية واحدة من موضوع عام قد تفرق في القرآن كله، ولنأخذ على سبيل المثال: الحج، وعلاقته بالتقوى في القرآن.

1 - فذكر موضوع **الحج في سورة الحج** إنما جاء عاما مشيرا إلى بعض تفاصيل هذه العبادة التي لها علاقة بالنيات، وإخلاص العبادة لله وحده، مثل التذكير بمقام إبراهيم، وأصل فرض هذه العبادة، وبيان المقصد منها، وأن إحياء هذه الشعائر هو من تقوى الله، كما وضح فيها حقيقة القربى لله عز وجل،

---

[1] - الإتقان في علوم القرآن. عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: مصطفى ديب البغا، سنة١٩٩٣م، الطبعة الثانية، ج٢، ص977. دار ابن كثير، بيروت.

[2] - تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: علي شيري، بيروت: ١٩٩٤هـ، الطبعة الأولى، ج 02، ص430، دار الفكر.

[3] - معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت: دار الجيل، (دون طبعة، دون تاريخ)، ج٥، ص324.

[4] - دراسات في التفسير الموضوعي لـ آن الكريم، زاهر عواض الألمعي، ص٨٣ .

[5] - برهان الدين البقاعي، نظم الدر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق بن غالب المهدي، بيروت دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥، الط الأولى، ج1، ص05.

وأن الله مع المؤمنين، وهو تذكير بنعم الله، وتبشير المحسنين بالأجر الجزيل، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾، وهذا يخدم موضوع السورة الذي يدور حول التقوى وطريقة تثبيتها والعمل لأجل تحصيلها، وترك الحديث عن تفاصيل أخرى ليتكلم عنها في أماكنها حيث يقتضي المقام ذكرها هناك، مثل الحديث عن الأشهر الحرم، واختلاف الأهلة والمواقيت في سورة البقرة، وما يليها من أحكام لهذه الشعيرة، فموضوع الحج قد ذكر بتفصيل أكثر وأدق في مواطن أخرى من القرآن، ولعل كل موطن جاء فيه، إنما جاء ليخدم موضوع تلك السورة التي جاء فيها، وسنذكر موضوع الحج في سورة البقرة وعلاقته بموضوع الحج في سورة الحج، وكذا علاقته بالموضوع الرئيس لسورة البقرة.

- لقد جاء ذكر مواقيت الحج والأشهر الحرم في سورة البقرة حيث يقول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ

الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾البقرة189، وقد ذكر هنا أيضا علاقة الحج بالتقوى، وعلاقة التقوى بالبر، وأن المتقين هم المفلحون، وقال أيضا: ﴿وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، وانظر كيف ذكر التقوى هنا أيضا، وذكّرهم بيوم الحشر ويوم القيامة، حيث أراد أن يبين أن الأصل في تشريع الحج، وتلك العبادة، إنما يريد الله بها تقواه والإيمان به، وانظر للعلاقة بين ذكر الحج في سورة البقرة وموضوعها العام الذي جاء في قوله من في بداية السور في الآية الواحد والعشرون: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، حيث أن هناك تناسب وترابط بين علاقة الحج بالتقوى في السورتين، وأن الرابط هو تثبيت التقوى، وأنها هي المقصد الأول والخير، فسورة الحج أمرت بالتقوى، ثم ذكرت موضوع الحج وشعائره، لأنه سببا من أسباب تحصيلها، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[1]، وهذا من تمام إعجاز هذا الكتاب، ولا زال الحديث عن أيام الحج، وعن الأشهر الحرم، وربطها بالتقوى التي لا تكاد تفارق آية من آيات ذكر موضوع الحج، فقال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾، فبين أن الحج إنما شرع للتزود منه بالتقوى التي هي محور الخير كله، فخاطب بذلك كل من عنده لب وضمير حي، وفطرة سليمة، وأمرهم بالتقوى، وبين لهم أن ترك الفسوق، والجدال، والرفث هو من تمامها.

- وتحدث أيضا في السورة نفسها عن بعض أركان هذه العبادة مثل الطواف والسعي بين الصفا والمروة فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾، وتحدثت السورة أيضا عن الصد عن بيت إبراهيم، بيت الله الحرام، وذكرت الهدي وبعض تفاصيله، وبعض أحكام الحج والعمرة، فقال تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ

[1] - سورة الحج، الآية 32.

مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1].

- كما ذكرت سورة البقرة أيضا مكان بيت الله الحرام، وتكليف الله لسيدنا إبراهيم وإبنه إسماعيل بتطهير بيت الله، وإقامة قواعده، وأمر الناس باتخاذ مقام إبراهيم مصلى للسجود والركوع وإقامة الشعائر، ودعاء سيدنا إبراهيم له بالإعمار والبركة، فقال تعالى في الآيات 125، 126، 127، 128: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(125) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(126) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

- وذكرت السورة أيضا المشعر الحرام، والوقوف بعرفة، وطواف الإفاضة وجواز البيع والشراء بعد إنهاء المناسك، وختمت الموضوع بذكر صنفان من الناس، صنف لم يتمكن من تقوى الله تعالى، و لم يحقق الإيمان الذي أمر الله به، وركن إلى الدنيا و لم يهتم بآخرته فخسر وخاب، وهم الذين قالوا: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾[2]، صنف آخر قد تمكن من التقوى وحقق الإيمان المطلوب منه فجزاه الله عليه وهم الذين قالوا: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[3] ﴿أُولَـئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[4]، هذا ما جاء عن موضوع الحج في سورة البقرة، وقد جاء الحديث

---

[1] - سورة البقرة، الآية 196.

[2] - سورة البقرة، الآية 200.

[3] - سورة البقرة، الآية 2001.

[4] - سورة البقرة، الآية 202.

عنه في مواضع اخرى من القرآن عرضا عند الكلام عن براءة الله ورسوله من المشركين في سورة براءة فقال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]، حيث تبرأ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من الذين أشركوا بالله و لم يحققوا تقوى الله تعالى، فكانوا من الفريق الأول الذين ذكرهم الله في أواخر آيات ذكر موضوع الحج من سورة البقرة التي سبقت، وحق عليهم العذاب، وهو العذاب الأليم كما وصفه الله تعالى في آية التوبة.

- وجاء الكلام أيضا عن فرضية هذه العبادة في سورة آل عمران، وعن أول بيت وضع للناس لغرض إقامة الشعائر، وتحقيق العبودية التي لأجلها خلق الجن والإنس، إذ حدد مكان بناء البيت، وأمر باتباع سنة أبينا إبراهيم عليه السلام، الذي جاء بالحنفية السمحاء، وبنور الإسلام، وذكّر بحق الله على الناس، فقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، ثم أتب الله الذين أوتوا الكتاب على عدم إتباعهم للهدى وللحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، والذي لم يكن بدعا من الرسل؛ بل جاء داعيا لما دعا إليه الأنبياء من قبله، وعلى رأسهم أبو الأنبياء الخليل إبراهيم، فقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ثم حذّر الله المؤمنين من اتباع المشركين، الذين لم يحققوا تقوى الله تعالى، وصدوا عن سبيل الله، وأمرهم بالتقوى وبالثبات عليها، فقال في الآيات التي بعدها مباشرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[2].

- وجاء الحديث أيضا في سورة المائدة عن بعض أحكام الحج كتحريم صيد البر، وقضية الإحرام، والتعاون على البر والتقوى، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ

---

[1] - سورة التوبة، الآية 03.

[2] - سورة آل عمران، الآية 102.

فاصْطَادُواْ ولاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1]، وقال أيضا: ﴿جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ﴾[2]، ولا تكاد تخلوا آية من آيات الكتاب تحدثت عن الحج من ذكر مسألة التقوى، التي عليها مدار حديث القرآن الكريم كنه مهما اختلفت مواضيعه، وتعددت مقاصده، فسبحان الله العظيم.

- ولنؤكد هذه الحقيقة نكمل سرد الآيات التي تذكر موضوع الحج في القرآن الكريم، ولنأخذ سورة الأنفال، عند الحديث عن الذين يصدون عن سبيل الله وعن البيت الحرام، حيث نفا عنهم أن يكونوا أولياء لله بزعمهم، واعتقادهم أنهم حراس بيت الله وزواره، بل إن أصحاب هذا البيت هم من حققوا الغاية من وجوده وحققوا تقوى الله تعالى، فقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَآؤُهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾[3]، فبينت هذه الآيات مصير الذين يصدون عن سبيل الله، وعن التقوى.

وقد أكرم الله أصحاب هذا البيت الذين عمروه بالصالحات وملئوه بالإيمان وحققوا العبودية لله وحده فأثنى الله عليهم وأصبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، فقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[4].

---

[1] - سورة المائدة، الآية 02.

[2] - سورة المائدة، الآية 97.

[3] - سورة الأنفال، الآية 36.

[4] - سورة قريش، الآيتان 3، 4.

2 – موضوع الاستدلال على البعث بضرب الأمثال:

الإيمان بالبعث جزء من الإيمان باليوم الآخر، الذي هو أحد أركان الإيمان الستة، وقد كثر الاستدلال القرآني على البعث حساً وعقلاً وشرعاً، وقبل الشروع في بيان ذلك لا بد لنا من بيان معنى البعث وتعريفه

فالبعث في اللغة: بمعنى الإرسال والإشارة، يقال بعثه وابتعثه: أي أرسله.

وقال ابن فارس: "الباء والعين والثاء أصل واحد، وهو الإثارة، ويقال بعثت الناقة: إذا أثرتها"[1].

وقال الأزهري: "والبعث في كلام العرب على وجهين: أحدهما: الإرسال، كقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى﴾ الأعراف 103 ويونس 75. ومعناه أرسلنا، والبعث أيضا الإحياء من الله للموتى، ومنه قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ البقرة 56، أي أحييناكم[2].

– **وأما البعث في الشرع:** فهو إحياء الله سبحانه للموتى مرة ثانية من قبورهم، وإخراجهم منها، وعرضهم للحساب يوم القيامة، ثم جزاؤهم إما الجنة وإما النار.

والإيمان بالبعث يتضمن أموراً عدة:

أ – الإيمان بأن الله سبحانه يحي الموتى مرة ثانية، كما قال تعالى: ﴿مَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ الأنبياء104، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ الحج 7.

ب – الإيمان بأن الله سبحانه يحاسب عباده، ويجازيهم على ما عملوا إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ الغاشية 25-26، وقال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ الأنعام 165.

جـ – الإيمان بالجنة والنار، وأن مآل العباد بعد الحساب إليهما، فالجنة للمتقين، والنار لهم جرمين[3]

د – الإيمان بما يحدث بعد البعث من الأهوال والمواقف.

---

[1] – معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، 1/ 266.

[2] تهذيب اللغة، مصدر سابق، 2/ 334.

[3] – انظر رسالة ابن عثيمين نبذة في العقيدة الإسلامية ص 30-92.

قال الأزهري: "ومن صفات الله سبحانه وتعالى: (المبدء المعيد) بدأ الله الخلق أحياء، ثم يميتهم ثم يحييهم كما كانوا، قال الله جل وعز: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وقال: إنه هو يبدأ ويعيده بدأ وأبدأ بمعنى واحد"[1].

والثانية: أن البعث هوالنشور، قال الزجاج: "نشرهم الله أي بعثهم كما قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[2] ونشر الله الموتى فنشروا، وأنشروا الموتى أيضا قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاء أَنْشَرَهُ﴾"[3].

وبعد أن أمر الله تعالى عباده بالتقوى، وخوفهم بأهوال القيامة وما يحدث عند الزلزلة، وما يصيب الناس من أحوال تتغير فيها قوانين الدنيا، ونواميس الخلق، وما يكون بعد ذلك من عذاب وغيره، جاء الحديث بعده عن البعث وأدلة خلق الإنسان من عدم، لأن كثيرا من الناس قد يكذب بأنه سيعود يوما ما ويُجازى عما قدمت يداه، فهو بعد ذلك في حلٍ مما أُمر به في بداية السورة، ولكن الله فصل تفصيلا كبيرا، واستدل بأدلة واضحة جلية على البعث بخلق الإنسان، وإعادة خلقه من جديد بدليل آخر أجلى منه وأدق وأوضح، وهو خلق النبات، وإحياء الأرض بعد موتها، حيث لم ير أحد من الناس أن الله قد أعاد خلق إنسان قد بليت عظامه، وفنا جسده، إلا ما كان معجزة لبعضهم[4]، لكنهم رأو بأعينهم كيف يخلق الله النبات في الأرض بعد أن كان هشيما تذروه الرياح، ثم ينموا وينبت ويرتقي من مرحلة إلى مرحلة حتى يستوي على سوقه، ثم يصيره الله حطاما وهكذا هي دورة النبات في الطبيعة، وهذا معهود مشاهد في فصول السنة، ولهذا كان هذا الدليل وهذه الحجة مقامة على المكذبين.

والبعث يطلق في القرآن على عدة معان متنوعة:

1 – يطلق ويراد به الإيهام، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ﴾ المائدة 31.

والبعث من أهم مسائل العقيدة، ذلك أن كل عمل بني آدم مرهون حسب اعتقاده، وما يؤمن به، فكل عمل إرادي يقوم به الإنسان إلا بُنِيَ على تصور سابق لهذا الفعل، فلا يتزوج العبد مثلا إلا إذا كان يريد تحقيق غاية معينة، ربما تختلف من شخص لآخر، ولكنها في الأخير تحقق تصورا كان المقدم على الزواج يتبناه ويريده، فمن الناس من يريد بهذا العمل مثلا إشباع رغبة جنسية، أو قضاء حاجة

---

[1] – تهذيب اللغة 3/ 129.

[2] – تهذيب اللغة 11/ 338.

[3] – معجم المقاييس اللغة، ج5/ 420.

[4] – مثل أصحاف الكهف، وقصة عزير، وبعض من أحيا عيسى عليه السلام، كابن العجوز، وابن العاشر، وقصة البقرة.

بيولوجية، ومنهم من يريد إنجاب أولاد، وغيرهم قد يتزوج للتحصين، وقد يجمع بعضهم مقصدين أو ثلاثة، وهكذا.

وقد تكرر هذا الأسلوب بضرب الأمثال والاستدلال على البعث مرات عديدة في عدة مواضع من القرآن الكريم، نشير إلى بعضها إجمالا في هذا المبحث، ثم نربطها بالموضوع الذي تحدث عن البعث في سورة الحج، وكذا علاقته بموضوع التقوى، وقد نتجاوز ذلك أحيانا إن أمكن لنربطه بالموضوع العام للقرآن نفسه.

يقول الله تعالى في سورة الحج مخاطبا الناس جميعا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ..﴾[1]، ثم واصل في سرد تلكم الأدلة على خلق الإنسان من جديد مستعملا في ذلك براهين وحجج عقلية، ومرئية، ومعهودة، ليثبت أن الله على كل شيء قدير، وأنه سوف يحيي الموتى ويبعث الناس بعد الموت.

2 – يطلق ويراد به الإحياء في الدنيا، كما في قوله تعالى:﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ البقرة. وكقوله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ .

3 – يطلق ويراد به اليقظة من النوم، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ الأنعام:60.

4 – يطلق ويراد به التسليط، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾الإسراء: 5.

5 – يطلق ويراد به الإرسال، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ الجمعة 2، وكما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ البقرة 129، وكما في قوله تعالى: ﴿ابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾الكهف 19.

6 – يطلق ويراد به النصب والبيان، كما في قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا﴾ النساء35. وكما في قوله تعالى: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ البقرة 246. وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً﴾ البقرة 247.

---

[1] – سورة الحج، الآية 05.

7 - يطلق ويراد به النشور من القبور، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾الحج8[1].

والبعث حق ثابت، لا مرية فيه ولاشك، وقد دل الدليل عليه من الكتاب والسنة والإجماع:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ المؤمنون: 15-16.

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ المؤمنون: 115.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ القصص: 85.

وقال النبي صلى الله عليه و سلم: "يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا" متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها [2].

وقد جاءت سورة البقرة التي قال عنها البقاعي أن موضوعها هو موضوع الإيمان بالبعث حيث يقول في مقصد هذه السورة: «مقصودها إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليتبع في كل ما قال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، ومجمعه الإيمان بالآخرة، فمدار الإيمان بالبعث الذي أعربت عنه قصة البقرة التي مدارها الإيمان بالغيب، فلذلك سميت بها السورة»[3]، وقصة البقرة هي شبيهة بأدلة خلق الإنسان في سورة الحج، لكن في سورة البقرة قد أجملت أدلة البعث في موضوع إحياء رجل قتل من بني إسرائيل، على سبيل المعجزة التي شهدها بعض الناس، وذلك بضربه بقطعة من لحم تلك البقرة التي كانت ليتيمين من بني إسرائيل، حيث قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاء اللَّهُ

---

[1] - الوجوه والنظائر، الدامغاني ص37-47, وأما ابن الجوزي فاقتصر على الستة الأولى دون ذكر الأخير منها، ولكنه في كتب بصائر ذوي التمييز ذكر ثمانية أوجه لمعنى البعث وليس فيها جديدا عما ذكر، ولكنه جعل النصب والبيان اثنين.انظر نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر 1/ 107و108.

[2] - رواه البخاري في الرقاق باب الحشر 11/ 377،378، ورواه مسلم في كتاب: الجنة، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة رقم 56.

[3] - البقاعي، نظم الدرر، (مصدر سابق)، ج١، ص٢٤.

لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ولو لاحظنا جيدا رأينا أن وجه التناسب بين ضرب الأمثال في السورتين يكاد يكون منطبقا، ففي سورة البقرة ضرب الله المثال بالبعوضة فما فوقها فقال: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللّهُ بِهَـذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾[1]، حيث كان سبب نزولها أنه لما ذكر الله تعالى الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب للمشركين بهما المثل ضحكت اليهود وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، وما أراد بذكر هذه الأشياء الخسيسة؟ فأنزل الله الآية[2].

وقد تكرر الأسلوب نفسه في سورة الحج؛ بل ونفس المثال بصيغة أخرى، حيث ذكر الذباب بدل البعوض، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، وأيُّ فرق بين البعوض والذباب إلا أن الله أراد أن يتحدى الكفار بأضعف مخلوقات نراها تطير أمامنا، وتحلق أمام أعيننا، ونسمع طنينها، ومع كونها ضعيفة غير قادرة على فعل شيء إلا أنها آية في نفسها من آيات الله، وأن الإنسان مهما رأى نفسه أفضل منها وأقوى منها، إلا أنه لا يستطيع أن يخلق مثلها، أو حتى يتحداها بأن يأخذ شيئا منها إن سلبته إياه، ورغم إقامة هذا الدليل, وهذه الحجة على الكافرين، فإنهم أبوا أن يؤمنوا بالله، وما أرادوا إلا أن يشركوا، ويتخذون من دون الله أربابا لا تخلق شيئا، فلم يحققوا بذلك التقوى التي هي موضوع السورة.

ويحدثنا القرآن أيضا على أن أصحاب الإيمان الحقيقي والعلم الصحيح بأنهم حجة على غيرهم، فهم الشهداء عليهم في الدنيا وفي الآخرة قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي

---

[1] - سورة البقرة، الآية 26.

[2] - أسباب النزول، السيوطي، (مصدر سابق)، ص53.

كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، فكونهم لا يعلمون، يعني أنهم كذبوا بالبعث، وبلقاء الله، وقد تساووا مع الذين لا يعلمون في أنهم لم يؤمنوا.

ولقد جاء في سورة المؤمنون حديثا عن البعث بنفس أسلوب سورة الحج، مع ذكر مراحل أخرى هي تتمة للمراحل التي ذكرتها سورة الحج، وهي التحول من كون الإنسان مضغة إلى كونه عظاما، ثم تكسى هذه العظام باللحم، ثم يكون إنسانا متكاملا، مختلفا عما كان عليه من قبل، من كونه تراب، ثم نطفة، ثم مضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم يُذكّره بالموت والبعث بعد ذلك، ويستنتج من ذلك أن إعادة البعث من جديد، وإحياء الموتى هي أسهل عند الله من هذه المراحل الجد معقدة في تشكيله أول مرة، فالمفروض أن يقف العقل أمام مثل هذه الأدلة، وقفة إنصاف، وإجلال لهذه العظمة، فيؤمن الكافر، ويتعلم الجاهل، ويسلم المشرك، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾[2]، فكل هذه الحجج والبراهين كافية لمن أراد البحث عن الحقيقة، وعن التقوى.

وأريد أن أضيف شيئا آخر في هذا المبحث، وهو الحديث عن منهج القرآن الكريم في الاستدلال على البعث وذلك لأهمية هذا الموضوع في حياة الناس جميعا، فأقول:

يتلخص المنهج القرآني في الاستدلال على البعث في ثلاثة أمور:

الأول: ا لشرع، والثاني: الحس، والثالث: العقل.

أما الشرع: فإن القرآن اعتنى بهذا المبدأ عناية عظيمة، وعرضه عرضا جليا لا خفاء فيه، وأكثر من ذكره، حتى لا تكاد تقرأ سورة من سور القرآن الكريم إلا وتجد للبعث فيها ذكرا، سواء كان ذلك بعبارة صريحة، أو غير ذلك، كما قلنا سابقا، وقد أقسم الله سبحانه على وقوع البعث والمعاد في عدة مواطن في كتابه فمن ذلك:

---

[1] - سورة الروم، الآية 56.

[2] - سورة المومنون، الآيات: 12، 13، 14، 15، 16.

أ- قال تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ. وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، يونس 53-56.

ب- وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ﴾ سبأ 3-5 وقال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[1]

وهذه المواضع الثلاث لا رابع لهن في القرآن الكريم ولا نظير، كما ذكر ذلك الحافظ ابن كثير عند تفسيره لها، حيث أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد ووجوده، ولاشك في ذلك ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2].

وأما الاستدلال بالحس على البعث، فيتلخص في الآتي:

أولا: إن الله سبحانه أرى عباده إحياء الموتى عيانا في الحياة الدنيا وقد ورد بيان ذلك في القرآن الكريم.

1- ما ذكره الله سبحانه في شأن بني إسرائيل مع موسى عليه السلام عندما امتنعوا عن الإيمان بالله تعالى حتى يروا الله جل شأنه جهرة - أي علانية - أو عيانا، فأرسل الله عليهم صاعقة تأخذهم، وهم ينظرون، ثم منّ الله تعالى عليهم بالإحياء والبعث مرة ثانية، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ البقرة 55،56.

2 - ما ذكره الله سبحانه في شأن القتيل المختلف فيه من قتله، فأبان الله تعالى أمره، حيث أمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة ثم يضربوه بعضو منها ولما فعلوا ذلك قام من مقامه وأوداجه تشخب دما،

---

[1] - سورة التغابن، الآية 8.

[2] - انظر تفسير القرآن العظيم (3/ 508)، (5/ 529)، (8/ 28). طبعة دار الفكر.

فسألوه: من قتلك؟ فقال فلان[1]، فكان في هذا الصنيع أكبر دليل على عظمة الله تعالى، وقدرته على بعث الموتى، بما رأوا وشاهدوا، كما فيه الحجة القاطعة عليهم في وقوع البعث والمعاد مرة ثانية، وقد ذكرنا هذه القصة من قبل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ البقرة 72-73.

3 – ما أخبر الله سبحانه به عن القوم الذين فروا من الوباء بعدما استوخموا أرضهم، وأصابهم منه وباء شديد، ففروا إلى مكان آخر من البرية هربا من الموت، فلما تكاملوا جميعا كتب الله عليهم الموت، فماتوا ثم أحياهم الله مرة ثانية، وفي هذا أكبر دليل على وقوع المعاد، وإعادة الأجسام وبعثها بعد فنائها. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾[2]

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: "وذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة في زمان بني إسرائيل استوخموا أرضهم، وأصابهم بها وباء شديد، فخرجوا فرارا من الموت هاربين إلى البرية، فنزلوا وادياً أفيح فملأوا مابين عدوتيه، فأرسل الله إليهم ملكين: أحدهما من أسفل الوادي، والآخر من أعلاه، فصاحا بهم صيحة واحدة، ففنوا وتمزقوا وتفرقوا، فلما كان بعد دهر، مر بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له حزقيل، فسأل الله أن يحييهم على يديه، فأجابه إلى ذلك، وأمره أن يقول: أيتها العظام البالية، إن الله يأمرك أن تجتمعي، فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنادى: أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسي لحما وعصبا وجلدا فكان ذلك، وهو يشاهده ثم أمره فنادى: أيتها الأرواح إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره، فقاموا أحياء ينظرون، قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة، وهم يقولون: سبحانك لا إله إلا أنت، وكان في إحيائهم عبرة، ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة"[3]

3– انظر تفسير القرآن، ابن كثير، ج1/ ص1969.ط دار الفكر.

[2] – سورة البقرة، الآية 243.

[3] - تفسير القرآن العظيم 1/ 529، طبعة دار الفكر.

4 – ما أخبر الله سبحانه به من قصة الرجل الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، فلما تفكر فيما آل إليه أمرها بعد بنائها وعظمتها استبعد إحياءها مرة ثانية، فجعل الله تعالى له العبرة منه وفيه وفي من حوله فأماته الله مائة عام ثم بعثه، فرأى بأم عينيه أعظم آية تدل على المعاد.

قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

5 – ما أخبر الله به سبحانه من قصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة التي أُمِرَ عليه السلام بتقطيعهن، وجعلهن أجزاء على عدد من الجبال ثم دعوهن، فعدن أحياء مرة ثانية كما كن من قبل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ البقرة 260.

6 – ما حكاه الله سبحانه في شأن قصة أصحاب الكهف، حيث كتب الله عليهم النوم في كهفهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين، ثم بعثهم بعد ذلك لم يتغير منهم شيء.

قال ابن كثير رحمه الله: "ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث، في أمر القيامة، وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا: تبعث الأرواح، ولا تبعث الأجساد، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك[2].

وقد ذكر الله أمرهم في كتابه العزيز، فقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾الكهف19.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا﴾الكهف12.

---

[1] – سورة البقرة، آية259.

[2] – تفسير القرآن العظيم 4/ 376، طبعة دار الفكر.

7 – ما أخبر الله سبحانه – به عن عيسى بن مريم – عليه السلام – في قصة إحيائه للأموات، قال تعالى: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية آل عمران 59، وقد ذكر أهل العلم في التفسير أن عيسى – عليه السلام – أحيا أربعة أنفس بإذن الله وهذه من الآيات المعجزات، والتي لا سبيل لأحد في إيجادها إلا بتأييد من الله تعالى، وفي الوقت نفسه برهان واضح على أن الله تعالى قادر على الإحياء للخلق مرة ثانية، فما دام أن المخلوق استطاع بإذن الله على ذلك فالخالق من باب أولى.

ثانيا: الاستدلال القرآني على البعث بالنشأة الأولى:

وذلك في عدة مواضع من القرآن الكريم:

1– قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا..﴾ الخ الآيات سورة الحج ه.

يقول ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «وهذا احتجاج من الله على الذي أخبر عنه من الناس أنه يجادل في الله بغير علم، إتباعا منه للشيطان المريد، وتنبيه له على موضع خطأ قيله، وإنكاره ما أنكر من قدرة ربه، قال: يا أيها الناس إن كنتم في شك في قدرتنا على بعثكم من قبوركم بعد مماتكم وبلاكم استعظاما منكم لذلك، فإن في ابتدائنا خلق أبيكم آدم عليه السلام من تراب، ثم إنشائنا لكم من نطفة آدم، ثم تصريفنا لكم أحوالا حالا بعد حال، من نطفة إلى علقة ثم من علقة إلى مضغة، لكم معتبرا ومتعظا تعتبرون به، فتعلمون أن من قدر على ذلك، فغير متعذر عليه إعادتكم بعد فنائكم، كما كنتم أحياء قبل الفناء»[1].

2 – قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الروم 27.

---

[1] – تفسير ابن جرير، ج17، ص116.

قال ابن جرير: "والذي له هذه الصفات، هو الذي يبدأ الخلق من غير أصل فينشئه، ويوجده بعد أن لم يكن شيئا، ثم يفنيه بعد ذلك، ثم يعيده كما بدأه بعد فنائه، وهو أهون عليه"[1].

3 - قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الأِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يس 77-79.

وقد ورد في سبب نزولها أن بعض منكري البعث من المشركين حمل في يده عظما باليا ففته أمام النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ذراه في الهواء ثم سأله سؤال استنكار واستهزاء وسخرية: هل يستطيع ربك بعث هذا وإحياءه؟، وذكرت الروايات أن النبي عليه السلام أجابه بقوله: "نعم، يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم"، وفي رواية: "نعم، يميتك الله تعالى، ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار"[2].

4 - قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ الأنبياء104.

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "قام فينا رسول الله عليه السلام خطيبا بموعظة فقال: يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾" إلى آخر سورة الأنبياء 104.

5 - قال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً، قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلاً﴾ الاسراء49-52.

6 - قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ق 15، ومعنى الآية أن الخلق الأول للإنسان لم يعجزنا، أو يعيينا، فالخلق الجديد الثاني يكون أهون وأسهل[3].

---

[1] - تفسير ابن جرير 21/ 35.

[2] - تفسير القرآن العظيم 5/ 631.طبعة دار الفكر.

[3] - المصدر نفسه، ج6/ 399، طبعة دار الفكر.

7- قال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ. أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ﴾ الواقعة 57-62. يقول ابن كثير رحمه الله: "يقول تعالى مقررا للمعاد ورادا على المكذبين به من أهل الزيغ والإلحاد من الذين قالوا: ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، وهو وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد"[1].

8- قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً. أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى. أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾القيامة 36-40.

نقل ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيات معان لأهل العلم، فقال السدي: "يعني لا يبعث"، وقال مجاهد والشافعي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "يعني لا يؤمر، ولاينهى". قال ابن كثير: "والظاهر أن الآية تعم الحالين، أي: ليس يترك في هذه الدنيا مهملا لا يؤمر ولاينهى، ولابترك في قبره سدى لا يبعث، بل هو مأمور منهي في الدنيا، محشور إلى الله في الدار الآخرة، والمقصود منا إثبات المعاد والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد، ولهذا قال تعالى مستدلا بالبداءة، فقال تعالى: (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى) أي: أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين، ثم قال: أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه"[2]

9 - قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً. أَوَلا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ مريم 66-67.

قال ابن كثير: "يستدل تعالى بالبداءة على الإعادة، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان و لم يك شيئا، أفلا يعيده وقد صار شيئا"[3].

---

[1] - المصدر نفسه، ج6/ 531.

[2] - المصدر السابق، ج7/ 174-175.

[3] - المصدر نفسه، ج4/ 475.

10 - قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الرعد ه

ثالثا: الاستدلال القرآني على البعث بإحياء الأرض بعد موتها:

قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ البقرة 22.

وإحياء الأرض بعد موتها من الأمثال التي يكثر ذكرها في القرآن، وتعتبر من البراهين المشاهدة المحسوسة على البعث بعد الموت، فأرض قحلة وخاشعة ومجدبة يترلق عليها الماء فإذا هي جميلة المنظر تسر الناظرين، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

2 - قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فصلت 39.

قال ابن كثير في تفسيرها: وقوله (وَمِنْ آيَاتِهِ) أي الدالة على قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي هامدة لا نبات فيها، بل هي ميتة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي أخرجت من ألوان الزروع والثمار ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]

3 - قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الأعراف 57. قال ابن كثير: "أي كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحي الأجساد بعد صيرورتها رميما يوم القيامة، ينزل الله سبحانه وتعالى من السماء ماء فتمطر الأرض أربعين يوما فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض، وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله مثلا ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها، ولهذا قال:﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2].

4 - قال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ الروم 19.

---

[1] - تفسير القرآن العظيم، ج6/ 179.

[2] - المصدر نفسه، ج3/ 181.

5 - قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الروم 24.

6 - قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الروم 50.

7 - قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾33

8 - قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ الحج 5-7.

9 - قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ فاطر 9.

10 - قال تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾الزخرف11

11 - قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ ق 9-11.

رابعا: الاستدلال القرآني على البعث بآيات الله العظمى كالسماوات والأرض:

أ - قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلا كُفُوراً﴾ الا سراء: 98- 99.

2 - قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ, إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾يس 81-83

3 - وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ غافر 57.

4 - وقال تعالى:﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الأحقاف 33.

خامسا: الاستدلال القرآني على البعث بأسمائه وصفاته وآثارهما:

فمن أسمائه: الحكيم والعدل، فمن حكمة الله وعدله أنه يحق الحق ويبطل الباطل ويميز الخبيث من الطيب ويعطي كل ذي حق حقه ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾، وقد قال سبحانه: (أَيَحْسَبُ الأِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً) وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾، والخلق في الحياة الدنيا يظلم بعضهم بعضا، فمنهم من يموت ظالما ومنهم من يموت مظلوما، فلا بد إذن من يوم يحضر الجميع فيه بين يدي الله ليقتص من الظالم للمظلوم ولينال كل من المحسن والمسيء جزاءه، كما قال تعالى:﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1].

3 - موضوع سنن الله في الخلق:

وأما موضوع سنة الله في الخلق فهو مسألة لا تكاد سور القرآن تخلوا من الحديث عنها، فكل آية منه سنة، وقد لا أكون مخطئا لو قلت أن القرآن كله جاء لهداية البشر عن طريق كشفه عن سنن الله في الآفاق والأنفس، وعن طريق توضيحه للحقائق التي لا تفتأ أن تذكر قوانين الله في هذا الكون، وتربط مصير كل حي أو ميت بها في الدنيا وفي الآخرة.

---

[1] - محاضرات في التفسير الموضوعي، ص47-48 لعبد اللطيف نصار.

ولقد جاء التصريح بهذه الحقيقة في القرآن نفسه في عدة من سوره وآياته، ولنأخذ على سبيل التمثيل قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[1]، حيث جرت هذه السنن منذ خلق الله الكون، وأجرى فيه نواميسه، وربط كل سبب بمسببه، وكل علة بمعلولها، قال تعالى في سورة القمر: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[2]، وجعلنا لكل شيء سببا، كما جاء في سورة الكهف عن ذي القرنين: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾، والسبب هو الطريق الذي يوصله مراده، والسبب الذي يبلغه هدفه، وإن سنة الله ثابتة لا تتغير ولا تتحول مهما تغير الزمان والمكان، حيث توضح آية سورة فاطر هذه المسألة فيقول الله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾[3].

ويدخل في هذا الموضوع العام عدة موضوعات فرعية أهمها: سنن الله في الأنفس/ سنن الله في الآفاق/ سنته في الأمم المكذبين/ سنن التدافع، ودفاع الله عن الأنبياء وأتباعهم.

أ – سنة الله في الأنفس وعلاقته بالقرآن:

لقد تحدث القرآن الكريم في سورة الحج عن سنة خلق الله في لناس والحيوان والنبات، وطريقته في ذلك، ليستدل على شيء يريد من خلاله حمل الناس على التقوى الذي هو موضوع السورة، حيث جاء الإقرار لهذه الحقيقة في بداية السورة، عندما تحدث في الآية الخامسة عن البعث والدليل عليه، فقال: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، وهي مراحل سنة الله في خلق الإنسان والحيوان، ثم تواصل الآية ذكرها خلق النبات، بعطف الكلام على الأول، باعتبار أن النبات مخلوقا يشبه الإنسان من حيث كونه حيا ينمو ويتغذى، فقال: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، حيث أن سنة الله اقتضت أن يمر النبات بمراحل نمو هو الآخر عبر فصول زمنية، يتحكم في كل فصل منها قانونا تخضع له جميع الكائنات، كسقوط المطر في فصل الشتاء، واشتداد الحرارة في الصيف، واختلاف في المناخ والتضاريس، وغيرها مما كان قانونا أجراه الله يحرك به الطبيعة، وأي ما كانت هذه الأدلة

---

[1] - الآية 23.

[2] – الآية 49.

[3] – الآية 43.

والبراهين، فإن الله أراد بها الاستدلال على الخلق من جديد، ليتفكر الناس ويسخّرون عقولهم ويعملوها في فهم هذه السنن والقوانين، ليخلصوا في الأخير أن ما حدث سابقا يمكن أن يحدث مرة أخرى، ويستيقنوا بعد ذلك أن البعث حق لا ريب فيه، فيتقوا الله حق تقاته.

وقد تحدث القرآن أيضا عن سنة الخلق وطريقتها في كثير من الآيات في القرآن الكريم، ففي قوله تعالى في سورة مريم في الآية السابعة والستين: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾، حيث لم يكن الإنسان شيئا يُذكر، بمعنى أنه كان شيئا معدوما، ثم أوجده الله بقدرته وحكمته أرادها هو، كما في قوله أيضا في بداية سورة الإنسان: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾، ثم ذكرت الآيات الأخرى مراحل تطور هذا الإنسان، من تراب حتى أصبح بشرا بالغا عاقلا سويا؛ حيث قال في سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾، وفي سورة الأنعام قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، وفي سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، وهي كلها أوصاف لأصل نشأة آدم عليه السلام، ثم قال تعالى بعد أن ذكر مراحل الخلق في سورة غافر: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ثم سواه بعد ذلك ليكون رجلا متكامل الأعضاء، في أحسن صورة وفي أحسن تقويم، كما قال في سورة الكهف: ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾، بل وأرادت سنة الله أن يكون لهذا الرجل امرأة يسكن إليها، فيقضي الله بها سنة التناسل والتكاثر للحفاظ على هذا النوع المميز من الخلق، فقال تعالى في سورة فاطر: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، وقال في بداية سورة النساء: ﴿الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾، وقال في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾، وهذا من تمام تكريم هذا المخلوق الذي فضله الله على كثير ممن خلق، قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ

وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾، ومن سنة الله تعالى في الأنفس أن حفظ الله تعالى الإنسان بوسائل وطرق متعددة مختلفة، ليحافظ على هذا المخلوق الذي أوجده من أجل تحقيق شيء واحد، هو: العبودية لله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، فجعل له ملائكة يحفظونه من بين أيديهم ومن خلفهم، مما قد يتعرض له مما نرى ومما لا نرى، ومما نعلم ومما لا نعلم، من أمر الله فقال: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾[2]، حيث جاء في تفسير هذه الآية: «(له) للإنسان (معقبات) ملائكة تتعقبه (من بين يديه) قدامه (ومن خلفه) ورائه (يحفظونه من أمر الله) أي بأمره من الجن وغيرهم»[3]، وفي التفسير الميسر قال: «لله تعالى ملائكة يتعاقبون على الإنسان من بين يديه ومن خلفه، يحفظونه بأمر الله ويحصون ما يصدر عنه من خير أو شر»[4] وسخر له الطبيعة وما فيها مما يقتات منه الإنسان والحيوان، من أكل وشرب ودواء ومتعة، لأن من سنة الله في المخلوقات أنها ضعيفة لا تملك لنفسها شيئا، ولا غنى للإنسان عن لطف الله وحفظه، لأن الله هو الغني والعبد هو الفقير، وإن الله هو القادر القوي القاهر، وأن العبد هو الضعيف الدليل المقهور المقدور عليه، قال تعالى في سورة النساء: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾[5].

واقتضت حكمة الله أيضا أن يبتلي عباده، ليعلم من يطيعه أو يعصيه وهو أعلم بكل شيء والابتلاءات متعددة ومتنوعة.

ومن أعظم والابتلاءات، الابتلاء بالأهل الذين هم أقرب للمبتلى، فهم ملاصقين له ليل نهار، ولذا أخبر الله سبحانه في كتابه العزيز بعداوتهم وفتنتهم وحذر منهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ التغابن 14.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ التغابن 15.

---

[1] – سورة الذاريات، الآية 56.

[2] – سورة الرعد، الآية 11.

[3] – تفسير الجلالين، ج2، ص25.

[4] – التفسير الميسر، ج4، ص235.

[5] – الآية 28.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المنافقون 9.

ومع أنهم عدو وفتنة فهم زينة ومتاع الحياة الدنيا:

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾14، ولو أردنا أن نعدد سنن الله في الأنفس لما استطعنا لذلك سبيلا لكثرتها وتعددها، ولأن الله أراد منا أن نتعلم كيف هي علاقة السبب بالمسبب، لكي يقيم الله بها حجته على الناس جميعا، وهذا ما نفصل فيه بإذن الله تعالى في المبحث القادم عند الحديث عن سنن التدافع، وكل ذلك من أجل تحقيق التقوى المأمور بها، لأنها في الأخير هي المقصد الذي من أجله خُلق الإنسان.

ب – سنة الله في الآفاق:

لا تقل سنن الله في الآفاق أهمية عن السنن الأخرى؛ بل قد تفوقها، وربما لهذا السبب قدمّها الله في الآية فقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾[1]، لماذا يا ترى؟ لنترك القرآن الكريم يجيب عن هذا التساؤل، وهو لتحقيق غاية واحدة هي: بيان الحق كما جاء في ذيل الآية: ﴿حتى يتبين لهم أنه الحق﴾، أو لم يكفي بربك أنه على كل شيء شهيد؟ بلى.

وقد وجدت آية تصرح بأن خلق السموات أعظم من خلق الناس، وهي الآية السابعة والخمسون من سورة غافر، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وربما هذا راجع لعدم إحاطة الناس بآيات الله في الكون، وقصورهم عن إدراك سننه فيها.

وإن من سنن الله في الأفاق، أنه خلق السموات والأرض والجبال، والشمس والقمر والنجوم، والشجر، وغيرها، وجعل فيها آيات بيّنات لا يجحدها إلا مكابر أو معاند، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2]، وقال

---

[1] - سورة فصلت، الآية 53.

[2] - الآية 16.

في الآية مائة وعشرون من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾، حيث بين الله تعالى أن أصحاب العقول النيرة، والقلوب الطاهرة، والنفوس النقية هم الذين يؤمنون وهم الذين يتفكرون، في هذه الآيات والأدلة، حيث قالوا: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[1]، وأما الذين كفروا فلم يؤمنوا و لم يتفكروا في ما خلق الله من حولهم، قال تعالى في بداية سورة الأنعام: ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾، وقد جعل الله هذه الآيات وتلك السنن في الآفاق، كدليل أيضا على قدرته عز وجل، وعلى أن الأمر بيده لا ينازعه فيه أحدا، فقد دعا الناس للتفكر والتدبر، فقال في الآية السابعة عشر وما بعدها من سورة الغاشية: ﴿أَفَلَا يَنظُرُون إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، ففي قوله عز وجل دعوة صريحة للتفكر والنظر بعين البصيرة إلى سنن الله في السماء والجبال والأرض، وغيرها من مخلوقات الله التي تدل على حكمة الصانع وقدرته، وبالتالي خضوع الناس واستسلامهم لمبدع السموات والأرض، فيتقونه حق تقاته.

جـ – سنة الله في الغابرين:

هي سنة الله في الذين خلوا قبل من الأمم البائدة، كالأقوام الذين كذبوا أنبيائهم، حيث سرد القرآن قصصهم للاعتبار والاتعاظ، مثل قصة قوم نوح، وهود، وثمود والذين من بعدهم، وكيف نصر الله عباده المؤمنين، وأظهر الحق على أيديهم، وأهلك أعدائهم، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾آل عمران137 وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿سُنَّةَ اللّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً﴾، وقوله تعالى أيضا: ﴿سُنَّةَ اللّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَبْدِيلاً﴾، وهم الأقوام الذين مضوا، فمنهم من أهلكهم الله بالرجفة، ومنهم بالغرق، وهي ألوان شتى من العذاب قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ

[1] – سورة آل عمران، الآية 121.

الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾العنكبوت40، فبيَّن الله سنته فيهم، وأن ما أصابهم إنما هو بما كسبت أيديهم، ولهذا يقول تعالى في سورة النحل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾النحل36، فمن آمن بما جاء به الأنبياء والمرسلين وما أنزل الله فقد نجا وعُد في زمرة المؤمنين، قال عنهم القرآن داعيا الذين آمنوا إلى تجنب أسباب العذاب والهلاك: ﴿يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾النساء26 وأما من كفر وصد عن طريق الله فقد هلك وخسر وعُدَّ من الشردمة الهالكون، قال تعالى في سورة النساء: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾النساء55، هذا في الآخرة أما في الدنيا فقد حكت لنا الآيات قصصا وعجائب لهاية الأقوام الكافرة، ولنستعرض مشاهد من بعض هذه الصور.

يقول تعالى عن قوم نوح باعتبار أن القرآن يقدمهم دائما لأنهم أول شعب بعد الطوفان، ومن أوائل الهالكين: يقول عز وجل في الآية التاسعة والخمسين من سورة الأعراف في قصة دعوة نوح لقومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، هذه هي دعوة نوح وهي دعوة جميع الرسل، واضحة المعالم والأهداف، بل وانذرهم فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾هود25، ولكن القوم كذبوا و كفروا واستهزؤوا فقالوا: ﴿قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾هود32، فلما لم يؤمنوا، وعلم الله أنهم لن يؤمنوا قال لنوح عليه السلام: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾هود36، ولكن نوح أخذته الرأفة والرحمة بإبنه فقال سائلا ربه: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾هود45، ولكن سنن الله لا تحابي أحدا من الناس مهما كان نسبه، بل العبرة بالعمل وبما قدم كل فردٍ، فردَّ عليه وقال: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن

تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾هود46، فمضت سنة الله في القوم الكافرين فأغرقهم الله بذنوبهم في اليم فقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيماً﴾الفرقان37، وقوله أيضا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾العنكبوت14، ونجا الله نوحا والذين معه برحمة منه عز وجل، وإنفاذا لسنة الله في الذين آمنوا وكانوا يتقون: ﴿وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾[1]، وقال تعالى أيضا: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾[2]، وذكر وسيلة النجاة أيضا ليكتمل المشهد، والصورة فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ﴾[3]، وكانت السفينة مملوءة عن آخرها حيث قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾[4]، وقال أيضا: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[5]، فجعلهم الله آية على قضاء أمره وسنته ليعتبر الناس، ويخشون أن يصيبهم ما أصابهم، فيحققوا بذلك التقوى التي أُمروا بها.

وسأذكر الآن مشاهد أخرى لبعض الأقوام ومصارعهم دون تفصيل، وأبين سنة الله فيهم، لنخلص إلى ما يجب أن نجتنبه، حتى لا يكون المصير مشتركا، وحتى لا تتكرر هذه السنة، من باب دفع سنة بسنة أخرى، وهو ما سنعرج عليه لاحقاً بإذن الله تعالى.

– ومن سنة الله في الأقوام البائدة أيضا سنة الله في قوم عاد حين بعث الله لهم نبيا منهم يدعوهم لعبادة الله وحده حيث قال تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾[6]، فكذبوا هودا ولم يؤمنوا بدعوته وقالوا: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا

---

[1] – سورة الأنبياء، الآية 76.

[2] – سورة الصافات، الآية 76.

[3] – سورة الأعراف، الآية 64.

[4] – سورة الشعراء، الآية 119.

[5] – سورة العنكبوت، الآية 15.

[6] – سورة الأعراف، الآية 65.

بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[1]، واتبعوا أهواءهم وتجبروا في الأرض، ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[2]، فكانوا من الكافرين فحق عليهم القول، فأبعدهم الله عن رحمته كما فعل بآخرين أمثالهم، يقول تعالى مبينا هذه الحقيقة: ﴿أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾هود60، وقد دمرهم الله بريح أرسلها عليهم في أيام نحسات قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾فصلت16، وقد كانت هذه الريح بحق ريح خزي وعار على هؤلاء القوم الذين علوا واستكبروا في الأرض، فأخزاهم الله بهذا العذاب المهين، حيث كانت ريحا عقيما لا خير فيها، كما وصفها الله في قوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾الذاريات41، وقد وصف القرآن الكريم تلك الريح للزيادة في التنكيل والتفريع والتخويف فقال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾الحاقة6، أتت على الأخضر واليابس، جاء في سورة الأحقاف: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾، وما أصابهم إلا بما قدمت أيديهم، حيث جرت سنة الله فيهم قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾الزخرف76.

– ومن سننه في ثمود حيث قص علينا القرآن نبأهم بالحق حيث أرسل الله فيهم سيدنا صالح عليه السلام، فكذبوه واستهزؤوا به وطلبوا منه أمرا تعجيزيا، وهو إخراج ناقة عشراء من صخرة صماء، فكان لهم ذلك، ولكنهم كذبوا صالحا، فكان جزاؤهم ما قصه القرآن حيث قال: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾هود61، وقال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ

[1] – سورة فصلت، الآية 15.

[2] – سورة هود، الآية 59.

أَلِيمٌ﴾الأعراف73، ثم حكى القرآن تكذيبهم فقال: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً﴾الإسراء59.

قال صاحب كتاب التفسير الميسر ما خلاصته في تفسير هذه الآية: «وما منعنا من إنزال المعجزات التي سألها المشركون إلا تكذيب مَن سبقهم من الأمم، فقد أجابهم الله إلى ما طلبوا فكذَّبوا وهلكوا. وأعطينا ثمود - وهم قوم صالح - معجزة واضحة وهي الناقة، فكفروا بها فأهلكناهم، وما إرسالنا الرسل بالآيات والعبر والمعجزات التي جعلناها على أيديهم إلا تخويف للعباد؛ ليعتبروا ويتذكروا»[1]، ثم وصف هلاكهم فقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾فصلت13، وهي الصاعقة التي جاء تفسيرها في قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾فصلت17، والصاعقة هي الطاغية، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾الحاقة5، حيث روى جلال الدين السيوطي في تفسير هذه الآية أن الطاغية هي: الصيحة، فقال: «﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ بالصيحة المجاوزة للحد في الشدة»[2].

- سنة الله في قوم فرعون:

تحدثنا القرآن عن فرعون وقومه، وسنة الله فيهم عندما كذبوا سيدنا موسى عليه السلام فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾الأعراف103، فكانت عاقبتهم كما أخبرنا القرآن نفسه، بعد أن اتهموه بالسحر والفساد، كما قال في سورة الأعراف: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾الأعراف127، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾الأعراف130، فأصابهم بألوان من العذاب بما ظلموا وكانوا يستكبرون، وذكر القرآن في معرض إمتنان الله على عباده المؤمنين إغراق فرعون فقال: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا

---

[1] - التفسير الميسر (مصدر سابق)، ج3، ص221.

[2] - تفسير الجلالين، جلال الدين السيوطي، ص432.

آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾البقرة50، فأغرقه الله في البحر الأحمر كما يُعرف اليوم، ثم أخرج الله جثة لتبقى شاهدة على سنة الله في الأقوام السابقة، قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾يونس92، وكفى بالله شهيدا.

وفي ما سردنا من أمثلة ومشاهد لسنن الله في الأقوام البائدة كفاية، وقد أراد الله في سورة الحج أن ينتبه الناس إلى هذه السنن، كما أراد الله أن يسلي عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم، لأنه ضاق ذرعا بقومه الذين لم يؤمنوا بما جاء به، فنبهه الله إلى أن هذا التكذيب وهذا الكفر والعناد موجود من قبل، فلا تبتئس ولا تحزن واعلم أن سنن الله ماضية كما حصلت من قبل، والله أعلم.

د – سنن التدافع ودفاع الله عن الأنبياء وأتباعهم:

لقد اصطفى الله رسلا من البشر، وبعثهم للناس لتوضيح أمره، وليعلموهم ويرشدوهم ويذكروهم، بعد أن زوَّد الله الإنسان بفطرة الإسلام، ثم استدل على قدرته وحكمة صنعه بالآيات في الكون، وسخر له ملائكة يحرسونهم، ودوابا مسخرات لهم، لتقوم الحجة عليهم جميعا، فأقر الله حقائق، وسنَّ سننًا لتُعلى كلمته ويُنصر دينه، قال تعالى إقرارا منه مبدأ التدافع: ﴿وَلَوْلَا دَفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾الحج40، وقال في سورة البقرة: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾البقرة251.

أما إقراره لحقائق مثل نصر الله لأنبيائه وأتباعهم، وإظهار دينه، وإعلاء كلمته، فقد غصت بها الآيات في سور القرآن، فلقد جاء في سورة الحج، ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾، يعني محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد قال الراغب الأصفهاني في هذه الآية: ﴿ثم ليقطع فلينظر﴾ وقد قيل: ليقطع حبله حتى يقطع، وقد قيل: ليقطع أجله بالاختناق، وهو معنى قول ابن عباس: ثم ليختنق (أخرجه الحاكم وصححه وغيره عن ابن عباس قال: من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا في الدنيا والآخرة ﴿فليمدد بسبب﴾ قال: فليربط حبلا ﴿إلى السماء﴾ إلى سماء بيته السقف، ﴿ثم ليقطع﴾ قال: ثم يختنق به حتى يموت[1]، وجاء في قوله أيضا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ

[1] – غريب مفردات القرآن، الراغب الأصفهاني، ص265.

كَفُورٍ﴾ وقوله تعالى في الاية التاسعة والثلاثين من سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، أين أُخرجوا من مكة ظلما وعدواناً، وقد أقر الله ١٠ سيؤول إليه الأمر بعد الحرب، مما زاد ثقة المؤمنين بالله عز وجل، وقد فعل، كما يقول تعالى أيضا في نفس السورة، وهو يتحدث عن المؤمنين العافين عن الناس، وعدم مقابلة السيئة بمثلها، أن الله ناصرهم، ومؤيدهم: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ 60، وقال تعالى أيضا عن نصره لأنبيائه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم،47، والآيات في هذا الموضوع كثيرة جدا، منها على سبيل الذكر لا الحصر، قوله في سورة آل عمران: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾آل عمران13.

وقوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾آل عمران160.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾الأنفال26.

وقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾التوبة14.

وقوله في الآية الخامسة والعشرين من سورة التوبة: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾.

وقوله أيضا: ﴿بِنَصْرِ اللّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾الروم5.

وقول: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾الروم47، وهذه حقيقة وسنة قد أرادها الله أن تكون رحمة ورأفة بالمؤمنين.

وأما حقيقة هذه السنن فلا تكون جارية في الكون إلا بتقديم الأسباب لها، وتقدير مقدمات للوصول إليها، فلا نصر إلا مع اجتهاد، ولا شهادة إلا مع صبر، وهكذا، ولقد أبان الله هذه الحقيقة في سورة الحج في قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

وفي سورة محمد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ محمد7، قال السيوطي في تفسير هذه الآية: «(يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله) دينه ورسوله (ينصركم) على عدوكم (ويثبت أقدامكم) يثبتكم في المعترك»، وقال صاحب التفسير الميسر: «يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه, إن تنصروا دين الله بالجهاد في سبيله, والحكم بكتابه, وامتثال أوامره, واجتناب نواهيه, ينصركم الله على أعدائكم, ويثبت أقدامكم عند القتال».

وأما حفظ الله لأنبيائه فقد تحدثت سورة الحج عنه بإسهاب، فبعد أن بينت الآيات سنة الله في دفاع الناس بعضهم ببعض، وكذا نصر الله لعباده المؤمنين، وربطت كل ذلك بمدأ السببية، الذي ينافي الظلم، وأن الله ليس بظلام للعبيد، جاء الحديث بعده عن كيفية دفاع الله عن أنبياءه الكرام، وعن حفظه للرسالة التي جاؤوا بها للناس، فلما خاطب النبي جميع الناس في الآية التاسعة والأربعين: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)، فقد كان واضحا في دعوته من أول وهلة، مما يحمل كيد الكائدين والحاسدين من الشياطين وأتباعهم على العمل من أجل الصد عن دعوته، ورصد الدوائر والتربص بشخصه، والحيلولة دون نشر دينه، ولكن الله بين أن هذا الكيد وهذا التربص لن يجدي نفعا، لأن الله تعالى لهم بالمرصاد، وقد جاء معنى الحفظ هذا في قوله فقال تعالى في الآيات: (52-57): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ(53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، حيث أوضح الله فيها سنة الله في دفاعه عن أنبياءه وعن دينه، ولعل ما يلفت الإنتباه في هذا المقام هو الإشارة إلى قصة الغرانيق، والتحقيق فيها، ولعلي أحاول أن أطرح القصة ها هنا وأبين حقيقتها وأحقق في الأحاديث الواردة فيها سواء من ناحية المتن أو الإسناد، ليتبن لنا حقيقة هذا الموضوع.

4- قصة الغرانيق:

أول ما نبدأ به هو التحقيق في الأسانيد، وقد وردت هذه الروايات في تاريخ الطبري، وتفسيره وتفسير الواقدي والزمخشري والبيضاوي والسيوطي وغيرهم، وهي عشر روايات أسندت إلى عشرة من الناس وهم:

1 - عن " محمد بن كعب بن سليم القرظي " الذي كان من سلالة يهود بني قريظة وولد سنة 40 هجرية.

2 - وعن " محمد بن قيس " الذي كان الناطق الرسمي للخلافة في عصر عمر بن عبد العزيز.

3 - وعن " أبي العالية البراء " اسمه زياد وقيل كلثوم وقيل أدينة وقيل ابن أُدينة -- من الطبقة الرابعة -مات سنة 90هـ.

4 - وعن " سعيد بن جبير " وهو من التابعين، و لم يكن من الصحابة، و لم يدرك عصر الرسول(ص).

5 - وعن " عبد الله بن عباس " الذي ولد في السنة العاشرة من البعثة، و لم يكن قد ولد في العصر الذي تتحدث عنه الأسطورة.

ورويت بعض الروايات

6 - عن الضحاك بن مزاحم الهلالي" وهو من الطبقة الخامسة من الرواة، (توفي سنة 94 هجرية).

7 - عن " مجاهد بن جبر " وهو من الطبقة الثالثة، توفي سنة 103 أو 104 هـ.

8 - وعن " قتادة بن دعامة السدوسي "، وهو من الطبقة الرابعة، توفي سنة بضع عشرة بعد المائة.

9 - وعن " السدي بن محمد اسماعيل بن عبد الرحمن " وهو من الطبقة الرابعة، توفي سنة 127 هـ

10 - " أبو بكر بن عبد الرحمان بن الحارث المدني " ولد زمن عمر، وهو من الطبقة الثالثة، مات سنة أربع وتسعين. وترجمتهم في تقريب التهذيب ج1، وج2

وليس في كل هؤلاء الرواة ممن صحب النبيﷺ ورآه غير ابن عباس الذي قلنا أنه ولد في السنة العاشرة، و لم يكن واحدا من هؤلاء الرواة ممن كان موجودا في العصر الذي تتحدث عنه الاسطورة.

التحقيق في المتون:

أما متون روايات الأسطورة، فإنها تتحدث عن سورة النجم وآيات في سورة الحج:

أ – آيات سورة النجم: أما سورة النجم فانها تتحدث عن عقائد المشركين حول بعض اصنامهم وتردها، وخاصة عقيدتهم حول الأصنام الثلاثة : اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، اللاتي كانوا يزعمون أنها تمثل بعض الملائكة بنات الله، ففي هذه الآيات أشار إلى هذا الزعم، حيث قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾، أي إنكم تعتقدون أن الملائكة بنات الله، ولكم الذكر ولله البنات، ثم يقول بعد هذه الآية: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾.

ويرد قولهم بعد ذلك فيقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ (النجم : 23 – 30).

ب – آيات سورة الحج : أمَّا ما ورد في سورة الحج، فإن واضعي هذه القصة إفتروا على الوحي وعلى رسول الله (ص) وقالوا: إن جبريل جاء بعد ذلك إلى رسول الله، أي بعد أن ألقى الشيطان على لسانه صلى الله عليه وسلم – معاذ الله –: " تلك الغرانيق العلى، منها الشفاعة ترتجى"، وقرأها رسول اللهﷺ ضمن تلاوته للسورة، وسجد لقراءته المشركون وسجد المسلمون لسجود رسول اللهﷺ، بعد ذلك جاءه جبريل وأخبره أن الجملتين لم يوحهما الله عليه، وإنما هما من الشيطان، فحزن لذلك رسول اللهﷺ فأنزل الله عليه هذه الآية من سورة الحج.

وربما أن الخطأ الذي وقع فيه بعض المفسرين هو مدلول كلمة "تمنَّى"، التي جاءت في الآية: (إلا إذا تمنى)، فقالوا هي بمعنى: إلا إذا تلا، أي قرأ كتاب الله، ألقى الشيطان في أمنيته، أي في قراءته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان.

ولفهم مغزى الآيات ينبغي أن نرجع إلى اللغة العربية، وإلى ما ورد في القرآن الكريم من مادة الأمنية، ولنرى فيم استعملت كلمتا الأمنية والتمني.

فأما الأمنية فهي من مادة "منى": تمنى الشيء المحبوب، يعني: رغب في أن ينالـــه، وحدثتـــه نفسه بوقوعه، والأمنية: ما يرغب فيه المرء ويتشهيه، وتجمع على الأماني.

أما موارد استعمالها في القرآن الكريم: فقد ورد في سورة النجم الآيـــة 24 بـــنفس المعـــنى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾، وليس معناه: أم للإنسان ما قرأ، بل ما اشتهته النفس.

وفي سورة القصص - أيضا - بعد أن يتحدث عن قارون وما أوتي من المال، وكيف خرج على قومه في زينته، قال: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَـــظٍّ عَظِيمٍ﴾ - إلى قوله تعالى - : ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِـــن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَـــأَنَّ اللَّـــهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ . . . ﴾ الآية.

فقوله: (تمنوا مكانه) ليس معناه: قرأوا مكانه، بل تمنوا أن يكونوا مثله في ما يملك من المال.

وكذلك وردت هذه المادة (م ن ي) في سورة آل عمران/ 143 والنساء/ 32 و 123 والجمعة/ 6 والبقرة/ 94 و 95 و111.

و لم ترد هذه المادة بمعنى "قرأ" في لغة العرب ولا في القرآن الكريم، غـــير أن المفـــسرين اســـتنادا إلى روايات تلك القصة فسروا "الأمنية" و"تمنى" بالقراءة وقرأ، وبذلك شوشوا على الباحثين ممـــن جـــاء بعدهم فهم الآية.

وإذا رجعنا إلى الآيات في سورة الحج وموضعها، نجد أن الآيات: (50 - 53)، التي تحدثت عنها الحكاية، وردت ضمن آيات ذات وحدة موضوعية، ابتداء من الآية (41) حتى الآيـــة (55) ومـــا بعدها، حيث يقول الله تعالى فيها: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَـــادٌ وَثَمُـــودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

ثم يذكر عاقبة المكذبين في الآيات (45 - 48)، ثم يخاطب نبيه ويسليه لأنه نذير وقال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَـــاجِزِينَ أُوْلَئِـــكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

ويستمر في تسلية رسوله ﷺ، ويقول : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾، أي إذا أحب واجتهد في نجاح دعوته (ألقى الشيطان) العراقيل والشبهة في طريق أمنيته فينسخ الله – أي يزيلها ويبطل أثرها – كما قال في سورة الأنبياء: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الآية : 18].

ومما سبق نخلص إلى أن المقصود بتمني النبي صلى الله عليه وسلم، هي رغبته الملحة في هداية الناس وإلقاء الشيطان فيها هو إلقاء الشبهة والوساوس في طريق أمنيته، وينسخها الله يعني: يزيل تلك الشبهات والوساوس، وفي ذلك يكون إحكام آياته، والله أعلم.

المطلب السادس: مناسبة سورة الحج بسورة الأنبياء وسورة المؤمنون.

إن ترتيب السور في القرآن الكريم على هذا النمط لأمر في غاية الدقة والحكمة، حيث يرى الناظر والمدقق أن هنا ارتباطا متينا بين سور القرآن الكريم على هذا الترتيب، وانسجاما عجيبا لآياته وسوره، وقد كتب بعض العلماء في هذا الشأن وأفردوا كتبا مخصوصة تتحدث عن التناسب بين سور القرآن الكريم، مثل كتاب "البرهان في تناسب سور القرآن" للشيخ ابن الزبير الغرناطي، وكتاب"الدرر في تناسب الآيات والسور" للسيوطي، وكذا كتاب الحجة الشيخ برهان الدين البقاعي في كتابه: "تناسق الدرر"، وغيرها من الكتب.

وقد رجعنا لهذه الكتب لمساعدتنا في الكشف عن ذلك الرابط وتلكم المناسبة بين سورة الحج وسورة الأنبياء، وبين سورة الحج وسورة المؤمنون، فخلصنا إلى ما يلي:

1 – تناسب سورة الحج مع سورة الأنبياء:

وإن المتتبع لعلاقة سورة الحج بسورة الأنبياء يرى روابط ومناسبات متعددة بينها، سواء في الشكل أو الموضوعات، ففي سورة الأنبياء ذكر الله تعالى في الآية الأولى اقتراب حساب الناس، في قوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾، وفي الآية الثامنة والأربعون ذكر بعض ما يحدث يوم الحساب من تبدل للقوانين الربانية، والسنن الكونية في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، فناسب ذلك ذكر وقت هذا الحساب في بداية سورة الحج، وما يحدث فيه، وهو تماما ما جاء في سورة الأنبياء، حيث ذكر يوم الحساب في أول آية من سورة الحج، وذكرت أيضا تبدل القوانين الكونية في كون وضع الحامل لحملها وترنح الناس في

مشيتهم كأنهم سكارى وما هم بسكارى...فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

وقد سردت سورة الحج أدلة وبراهين على قدرة الله تعالى فأبى كثير من الناس إلا كفرا وطغيانا، كما في الآية السادسة في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، وفي الآيات: من الآية الواحدة وستين حتى الخامسة والستين من قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، كذلك جاء في سورة الأنبياء حديثا عن الأدلة والبراهين على قدرة الله تعالى فقال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، وهو منطبق تماما على ما جاء في سورة الحج، وهذا تناسب يكاد يكون الكلام نفسه في السورتين.

وهناك مناسبة أخرى بين نهاية سورة الأنبياء ونهاية سورة الحج، فلقد تحدثت سورة الأنبياء في أواخرها عن الصالحين وعبادتهم، وعن نعمة بالإسلام فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ(101) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ

أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، وهي الآيات نفسها تتكرر في أواخر سورة الحج، حيث تحدثت السورة عن الدعوة لعبادة الله وتذكير الناس بنعمة الإسلام وفضل سيدنا إبراهيم عليه السلام إذ سمانا المسلمين من قبل، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾، وما هذا التوافق وهذا الانسجام وذلك التناسب بين آيات القرآن الكريم إلا أكبر دليل على إعجاز هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولا بأس أن نستأنس بكلام علمائنا في هذا المقام في الكشف عن التناسب الموجود بين سورة الأنبياء وسورة الحج، حيث يقول الشيخ برهان الدين البقاعي في مناسبة السورة لما قبلها: «لما ختمت التي قبلها بالترهيب من الفزع الأكبر، وطي السماء وإتيان ما يوعدون، والدينونة بما يستحقون، وكان أعظم ذلك يوم الدين، واستفتحت هذه السورة بالأمر بالتقوى المنجية من هول ذلك اليوم فقال: ﴿يأَيُّهَا النَّاسُ﴾[1] [أي الذين تقدم أول تلك أنه اقترب لهم حسابهم] يعني الذين ذكرهم في بداية سورة الأنبياء، ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابَهُمْ﴾[2]، أي احذروا عقاب المحسن إليكم بأنواع الإحسان، بأن تجعلوا بينكم وبينه وقاية الطاعات»[3].

وقد ذكر رابطا واحدا من حيث النظم، وهو تكرر لفظة "الناس" في بداية السورتين، وذكر رابطا آخر من ناحية المعنى وهو خاتمة سورة الأنبياء بذكر تلك المشاهد المرهوبة كالفزع الأكبر، وطي السماء، وغيرها، وابتداء سورة الحج بما ينجي من هذه الأهوال من الأمر بما يجعل الإنسان في مأمن منها.

ولقد توسع ابن الزبير الغرناطي في كشف أوجه جديدة في الربط بين السورتين، فقال: «لما افتتحت سورة الأنبياء بقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابَهُمْ﴾آية1، وكان واردا في معرض التهديد، وتكرر

---

[1] - سورة الحج، الآية 1.

[2] - سورة الأنبياء، الآية 1.

[3] - نظم الدرر، البقاعي، (مصدر سابق)، ج5، ص129.

في مواضع منها كقوله تعالى: ﴿إلينا تُرْجَعُون﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[2]، وقوله أيضا: ﴿لو يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ.. ﴾[3]، وقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾[5]، وقوله: ﴿وَكُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾[7]، وقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[8]، إلى ما تخلل هذه السورة، من التهديد وشديد الوعيد، حتى لا تكاد تجد أمثال هذه الآي في الوعيد والإنذار، بما في الساعة وما بعدها، وما بين يديها، في نظير هذه السورة، وقد ختمت من ذلك بمثل ما بدأت به، اتصل بذلك ما يناسبه من الإعلام بهول الساعة، وعظيم أمرها، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ..﴾[9]، إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[10]، ثم أتبع هذا ببسط الدلالات على البعث الأخير وإقامة البرهان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾[11]، ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ..﴾[12]، أي اطرد هذا الحكم العجيب، ووضح من تقلبكم من حالة على حالة في الأرحام، وبعد خروجكم إلى الدنيا وأنتم تعلمون ذلك من أنفسكم، وتشاهدون الأرض على صفة من الهمود، والموت حين نزول الماء، فيحيي النبات، وضروب الثمرات، كما أحياكم أولا، وأخرجكم من

---

1 – سورة الأنبياء، الآية 35

2 – سورة الأنبياء، الآية 37

3 – سورة الأنبياء، الآية 28

4 – سورة الأنبياء، الآية 47

5 – سورة الأنبياء، الآية 49

6 – سورة الأنبياء، الآية 93

7 – سورة الأنبياء، الآية 97.

8 – سورة الأنبياء، الآية 104.

9 – سورة الحج، الآية 1.

10 – سورة الحج،الآية 2.

11 – سورة الحج، الآية 5.

12 – سورة الحج، الآية 6.

العدم إلى الوجود، وأحيا الأرض بعد موتها، وهمودها، كذلك تأتي الساعة من غير ريب، ولا شك، ويبعثكم لما وعدكم من حسابكم، وجزائكم، فريق في الجنة وفريق في السعير»[1].

كما جاء في خواتيم الأنبياء عن الساعة وما يليها من العقاب والثواب، في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ إلى آخرها ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾، وجاء في بداية الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ فذكر في آخر الأنبياء أحداث الساعة، وفي الحج الدعوة إلى ما يجب وما ينبغي لنا فعله تجاه هذه الأهوال، وهو أن نتقي ربنا لأن: ﴿زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، فهناك كلام في الساعة، وهنا أيضا كلام عن الساعة: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ يعني استكمال لما انتهى به في السورة السابقة وكأنها سورة واحدة.

ويمكن إضافة وجه آخر في ربط الحديث عن الساعة في سورة الحج بآية أخرى، ختمت بها سورة الأنبياء في قوله: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وافتتح هذه بذلك فقال في الآية الأولى: ﴿إِنَّ زلزلة الساعة شيء عظيم يوم تروها تذهلُ كُلُ مُرضعةٍ عما أرضعت وتضعُ كُلَ ذاتِ حملٍ حملها وترى الناسَ سُكارى وما هُم بسكارى﴾.

ونكون بهذا قد وضعنا اليد على كثير من الروابط والمناسبات بين سورة الحج وسورة الأنبياء، إن من ناحية النظم والشكل وإن من ناحية المعنى والموضوع، وهذا ما يكتشفه القارئ للقرآن الكريم عند تتبعه ترتيب سور القرآن، وما ينطوي عليه من أسرار ولطائف، حيث تزيد الإنسان فهما وتدبرا لسور القرآن وآياته.

---

[1] - البرهان في تناسب سور القرآن، ابن الزبير، (مصدر سابق)، ص256.

2- مناسبة سورة الحج بسورة المؤمنون:

من خلال التدقيق والتتبع المركز في نهاية سورة الحج وبداية سورة المؤمنون يبدو لنا أن هناك تناسبا واضحا بين خواتم آيات سورة الحج وسورة المؤمنون، حيث قال الله تعالى في خواتيم سورة الحج ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، هكذا خاطب الذين آمنوا وقال: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ وقال في أول سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فالثنائية: [لعلكم تفلحون - قد أفلح المؤمنون]، تعني أن الفلاح قد وقع فعلا للذين حققوا تلك التقوى التي أمر الله بها من خلال استجابتهم للنداء في آخر السورة، وباشر بعد إيراد هذه الحقيقة في وصف المؤمنين الذين أقاموا تلك العبادات بإخلاص واتصفوا بصفات أرادها الله فيهم فقال: ﴿الذين هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾، وهو في الحقيقة تفصيل لقوله: في آخر الحج: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، والمعنى واضح تماما ويكأن الله يقول: قد أفلح المؤمنون الذين فعلوا هذه العبادات، وكأن المؤمنون قد استجابوا لهذه النداءات من الله سبحانه وتعالى.

ويمكن أن نضيف بعض الأوجه لترابط سورة الحج بالتي بعدها:

منها: أنه تعالى لما ختم السورة السابقة بخطاب المؤمنين وأمرهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وفعل الخيرات لعلهم يفلحون، افتتح السورة بذكر تحقيق فلاحهم فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

ومنها: أنه قد تحدث في كلتي السورتين عن النشأة الأولى، وجعل ذلك دليلا على البعث والنشور، فقال في سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فإنا خلقْنَاكُم مِنْ تُرَابٍ﴾[2]، وقال في سورة المؤمنون: ﴿ولَقَدْ خَلقنَا الإنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ منْ طِينٍ﴾[3].

ومنها: أنه قد جاء في كلتا السورتين ذكر قصص الأنبياء الماضين ومصير الأمم الغابرين، حيث جاءت عبرة للحاضرين والآتين.

---

[1] - سورة المؤمنون، الآية 1.

[2] - سورة الحج، الآية 5.

[3] - سورة المؤمنون، الآية 12.

ومنها: أنه قد نُصب في كل منهما أدلة على وجود الخالق، ووحدانيته.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخـــاتـــمة:

جئنا الآن لتدوين نتائج هذا البحث، ووضع خلاصة مركزة حول محتوى هذا الموضوع الذي طبقنا عليه إحدى طرق التفسير الموضوعي؛ والمتمثل في الوحدة الموضوعية في سورة الحج، حيث كشفنا عن موضوعها العام، وربطناه بموضوعاتها الجزئية، وأجبنا عن الإشكال الذي طرحناه من قبل، إذ يحتاج من القرآن الكريم استنباط معانيه وهداياته، هذا المعين الذي لا تنفد موضوعاته، ولا تُمَلّ أفكاره، ولا تبلى معانيه، ولا تنقضي حكمه وأحكامه، فهو كتاب رب العالمين إلى الناس أجمعين.

ولقد تحدثنا في بداية هذا البحث عن التفسير الموضوعي، وعن مفهومه ونشأته، وخصصنا بالذكر الحديث عن الوحدة الموضوعية باعتبارها طريقا من طرق تناوله، ونوعا من أنواعه، وتتبعنا تطور هذا النوع من التفسير خلال مراحل نشأته، وناقشنا رأي العلماء فيه، وتوصلنا إلى أن هذا الموضـــوع لا يزال قيد الدراسة والبناء، ورهن التطور والتركيب، ذلك أنه لم يتفق على بعض جوانب هذا المنهج لا سيما في بعض الأمور المتعلقة بالجانب العملي منه، ونقصد بذلك تلك الخطوات التطبيقية التي يتبعها المفسر في هذا النوع أو في ذاك، في الوقت الذي خطا فيه بعض العلماء خطوات لا بأس بها، وطبقوا هذا المنهج في بعض دراساتهم، وقد حققوا به بعض النتائج التي لم يحققها أسلافهم من المفـــسرين، إن من حيث الكشف عن المعاني وإبراز المفاهيم، وإن من ناحية الكشف عن وجه من أوجه الإعجـــاز القرآني من حيث ترابطه، وتناسبه، أمثال إمام هذا المنهج الشيخ البقاعي، والإمام الرازي والشاطبي من السابقين، وسيد قطب، وسعيد حوى والشيخ محمد الغزالي من المحدثين، فجميعهم تحدثوا عن الوحدة الموضوعيه في السورة القرآنيه، ونقلوا عن بعضهم تلك الأفكار ودونوها في كتبهم، وهم في ذلك بين مكثر ومقل، وبعضهم أسعد بها من بعض.

وأصبح لا يخفى اليوم على أحد نجاعة هذا المنهج في التفسير، خاصة إذا علمنا أن كثيرا من المشاكل قد وجدت لها حلولا في ظله، لا سيما في هذا العصر، عصر المتغيرات والمستجدات الحياتية، فكثير من الأمور لا تزال عالقة تنتظر حلا أو مخرجا، وكثيرٌ من الأسئلة لا تزال تبحث عن أجوبة، سواء مـــن ناحية المعنى المطلوب والفهم المرجو، أو من ناحية تطبيق وإسقاط هذه الأخيرة على واقع الناس، ولكن بفضل هذا المنهج الذي لا يزال يرتقي يوما بعد يوم في مدارج الكمال ولطائف البناء، حتى اتضحت كثيرا من الأمور الغامضات، وانفتح جم من المشكلات العالقات.

وها نحن قد سلطنا بعض الضوء عليه، مؤمنين بأن اللجوء إلى هذا المنهج أصبح ضرورة تمليها تطورات الزمان، ومستجدات العصر، خاصة وأن الموجود قد لا يفي بأغراض الناس، ويسد حاجيات كثير منهم، سواء من حيث بسط موضوعات القرآن الكريم وفهمها، أو من حيث تطبيق تلك الأحكام والتشريعات المستنبطة منه، أقصد إسقاطها على الواقع الجديد، ولهذا باتت المناهج القديمة لا تكفي.

وبما أننا نؤمن بأن هذا الكتاب لم يفرط في شيء، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أمور الدنيا والآخرة، ونحن نرى في الوقت نفسه إعراض كثير من الناس وإدبارهم عن هذا الكتاب وعن هداياته، فضلوا وزلوا وهم يعيشون حياة ضنكا لهجرهم كتاب الله، وهجر معانيه وأحكامه، وتقاعسهم عن العمل بمقتضاها، فإننا نعتقد أن الوقت قد حان لتغيير هذا الوضع، وذلك بتغيير ما يمكن تغييره مما له صلة بالمناهج والبحث في كتاب الله تعالى بطرق جديدة نستطيع من خلالها وضع اليد على ما نحتاج إليه من نظريات وقوانين إقتصادية واجتماعية، ونعمل على إثراء هذه الاتجاهات الجديدة، لا سيما أن الله تعالى يقول: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...)، ولحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها". .أي من ناحية الفهم والتناول، لا من ناحية تغيير الأصل من القرآن والسنة، أو إضافة شيء جديد للدين، بل من ناحية وضع مناهج وطرق جديدة لتناولها، تحيلنا بعد ذلك إلى تطبيق تلك المعاني والأفكار في ميادين الحياة المختلفة في السياسة أو الاقتصاد أو غيرها.

وإننا إن تقاصرنا عن هذا البحث، وعن هذا التوجه لخدمة كتاب الله، فإننا نكون قد أجحفنا ليس [illegible] مصغرا، ومحاولة محتشمة في هذا الطريق الطويل لتناول كتاب الله، وما هو إلا خطوة في جنب المناهج العتيقة الأخرى، ونصرة لهذا الاتجاه الذي نرجو من خلاله التوصل إلى استخراج بعض الحكم الهدائية للقرآن الكريم، وهذا ما استخلصناه من سورة الحج من نتائج علمية عملية بسيطة تزخر بها هذه السورة، والتي يحتاج العبد لتطبيقها في واقعه وحياته مباشرة، ودون الغوص في اختلافات المفسرين النحوية والبلاغية وتوجيهاتهم للمسائل الفقهية، والشرعية وتفاصيلها...بقدر ما يجعلنا نركز الذهن على الاستنباطات العلمية – العملية، ويربط بين أجزاء السورة وأفكارها، فيتعرف على الموضوع الرئيس لها، فيكتمل لديه استيعاب معاني السورة ومدلولاتها، بما لا يجعل الباحث عن موضوع ما

يتخبط ويبحث عنه في جميع القرآن؛ بل يعود رأسا إلى السورة فيجد ضالته هناك، وربما يحتاج من خلال تصفحه لتفسير هذه السورة إلى مواضع أخرى من القرآن، تعالج بعض أجزاء أو بعض أفكار هذا الموضوع.

وربما تجدر الإشارة هنا إلى شيء قد يشتبه على القارئ، فيظن أني أقصده والحقيقة خلاف ذلك، وهو موضوع النظرية القرآنية كما يسميها باقر الصدر، وسعيد حوى وكذا حبنكة الميداني... فهذه قد يكون البحث فيها من خلال البحث عن موضوع واحد في جميع القرآن، أما ما أصبو إليه في هذا البحث؛ إنما هو معالجة موضوع السورة ذاتها، أو ما يسمى بالمحور الرئيس أو الوحدة الموضوعية، فتناولت كل ما يتعلق بهذا الموضوع، منبها في بعض مناسبات المباحث والفصول بتلك الأوجه من الترابط بين أفكارها وأجزائها، وكذا ربطها بالمحور القرآني العام، وإنما أردت بهذا الربط بين أفكار السورة والسياق العام للقرآن التنبيه، والتذكير بأصل الكتاب، وهدف التنزيل وهو هداية البشر .

ومن نتائج هذا البحث ما يلي:

أولا: التأييد المطلق لهذا المنهج الجديد في التفسير، والعمل على بيانه للناس من خلال تطبيقه على سور القرآن الكريم، وخير دليل على نجاعته؛ تحقيقه النتائج والثمار التي توصلنا إليها من خلال بحثنا هذا في سورة الحج.

مثل: معرفة حقيقة التقوى التي نادى الله بها الناس في بداية السورة، حتى يتمثلها الناس كما أرادها الله منهم، والإطلاع على أنواع الناس المخالفين وإقامة الحجة عليهم كي يتقي المؤمنون حالهم ولا يكونون أمثالهم، وكذا إبراز أهداف العبادات والطاعات وحقيقة القربات، واطمئنان المؤمنين بنصر الله ودفاعه عنهم...الخ.

ثانيا: الكشف عن المقصد العام لسورة الحج، وكذا معانيها الأساسية، والتي تخدم في الحقيقة موضوعا واحدا هو موضوع "التقوى" وهو أيضا مقصد القرآن العظيم كله والذي جاء تحقيقا لهذا المبدأ .

ثالثا: إبراز وجه من أوجه الإعجاز القرآني من خلال الكشف عن ذلك الترابط في الأفكار والآيات والمقاطع، والكشف عن ذلك التسلسل المنطقي والتناغم الصوتي والانسجام المعنوي بين أجزاء هذه السورة.

رابعا: وضع اليد على الموضوع الأساسي لسورة الحج، لا سيما أن العلماء قد اختلفوا في تحديد موضوعها باعتبار اختلافهم في نوع آياتها هل هو مكي أو مدني.

خامسا: تسليط الضوء على جانب من جوانب منهج التفسير الذي يفتقر إلى مثل هذا التحديد للمحور الرئيس للسورة، بالاستناد إلى مثل هذا النوع من أقسام علوم القرآن، والمقصود هنا هو المكي والمدني، ودوره في تحديد الموضوع العام للسورة، وهذا من تمام الإعجاز الذي يزخر به كتاب الله تعالى، إذ أن كثيرا من المفسرين لا يعيرون اهتماما بعلاقة بعض العلوم والدراسات القرآنية بتحديد الفكرة العامة التي تحوم حولها السورة القرآنية، أو المقصد العام الذي يريد القرآن إيصاله للناس.

سادسا: أمكننا هذا البحث أيضا من أن نضع نقاطا محددة خرجت بها في شكل قوانين يتقيد بها المسلم للحيلولة دون الوقوع في الفهم الخطأ لشعائر الله تعالى، ويؤديها عارية عن الواقع الذي وضعت لأجله، فليست هذه الشعائر مجموعة من الأخلاق فحسب مجردة عن الفعالية والديمومة؛ بل هي أعمال مفعمة بالواقعية والحيوية والعملية، فالحاج مثلا وهو يؤدي شعائر الله في الحج إنما هو يستحضر عظمة الله وهيبة المكان بالإضافة إلى استشعار مسؤولية العبد لأمانة الدين، وكل ما يتعلق بالجماعة الإسلامية من نصح لهذه الأمة وكذا تبادل المصالح والعون على طاعة الله وردع الأعداء وتحرير أرض المسلمين من دنس الكفار والملحدين واسترجاع الحقوق والأرض المغصوبة... وغيرها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

Conclusion:

Nous sommes arrivés maintenant à la codification des résultats de cette recherche, un répertoire axé sur le

contenu de ce thème, qui a été l'un des moyens que nous appliquons l'interprétation de fond, et de l'unité thématique dans Sourate Al-Hajj, où nous montrons notre thème général, et Relier le avec les Thèmes District, et les formes que vous avez fait avant, car nous avons besoin à partir du Coran et Le développement de son sens et sa Hdayate cela ne fonctionne pas sur des thèmes particuliers, dans son pneu, et l'usure sens, ne cesse pas sa règle et de ses dispositions, le livre est le Seigneur de tous les mondes de la population.

Nous avons dès le début de la recherche d'une interprétation de fond, et sur le concept et sa création, et nous devons parler de l'unité comme une façon de traiter, et un genre de types, et ont suivi le développement de ce type d'interprétation à travers les étapes de sa création, et nous avons discuté de l'avis de scientifiques, et nous avons déterminé que cette question l'étude est encore en construction, en attendant le développement et l'installation, car il n'était pas d'accord sur certains aspects du programme, en particulier dans certaines matières liées à la pratique de celle-ci, et nous entendons que ces mesures sont appliquées par l'interprète de ce type ou que, à un moment où certaines lignes Les scientifiques sont de bonnes mesures, et a appliqué cette approche dans certaines études, a obtenu des résultats qui n'ont pas atteint leurs ancêtres que de mufassireen en termes de divulgation et de mettre en évidence la signification des concepts, mais en termes de divulgation sur le visage de la nature miraculeuse du Coran en termes d'interdépendance, et de proportionnalité, fois avant cette approche Béqaa Sheikh, l'Imam Razi Chatby et de l'ancien, et Sayyid Qutb, et contenait, et le cheikh Mohammed Saeed Al-Ghazali de l'modernes, sont tous parlé de l'unité thématique du Coran dans la sourate, et sur certaines de ces idées et Donoha dans leurs livres, ils sont entre les Multiplicative et de bombardements, et certains d'entre eux Certains des plus heureux.

Il n'est un secret pour personne aujourd'hui, l'efficacité de cette approche dans l'interprétation, surtout si nous savons que beaucoup de problèmes ont trouvé des solutions dans lesquelles, en particulier en cette ère de changements de vie et de l'évolution, beaucoup de choses sont encore dans l'attente d'une solution ou un moyen de sortir, et de nombreux questions sont toujours à la recherche de réponses, tant en termes de sens et de compréhension à désirer, ou en termes de demande et celle-ci de tomber à la réalité des gens, mais grâce à cette approche, qui continue d'augmenter, jour après jour dans les pistes et la construction de Taëf

parfait, tant de choses sont devenues plus claires Aloaamadat, grammes d'ouverture et de problèmes de relations.

Ici, nous avons, nous avons un peu de lumière sur lui. estimant que l'utilisation de cette approche est devenue une nécessité dictée par l'évolution des temps, l'âge et l'évolution récente, en particulier, qui mai pas et qui répond aux besoins de la population, et de combler les besoins de beaucoup d'entre eux, tant en termes de l'extension des sujets et de comprendre le Coran, ou en termes d'application ces dispositions et la législation dérivée de celle-ci, je veux parler de la chute de la nouvelle réalité, et c'est l'ancien programme ne suffit pas.

Puisque nous croyons que ce livre ne sont pas excessifs, et à ne pas laisser les petites et grandes choses de ce monde et l'au-delà, et nous croyons dans le même temps, la réticence de beaucoup de gens et Idbarhm sur ce livre et Hdayate qui préfèrent vivre Zloa difficultés de l'abandon du Livre d'Allah et laissez sens et les dispositions, et de ne pas agir, nous pensons que le moment est venu de changer cette situation, en changeant ce qui peut être changé, il est pertinent au programme d'études et de recherche dans le livre de Dieu de façon nouvelle dans laquelle nous avons pu mettre la main sur ce que nous avons besoin de théories et de lois sociales et économiques, et nous travaillons sur l'enrichissement de ces nouvelles tendances, en particulier celle de Dieu Tout-Puissant dit: (Allah ne modifie pas l'état des personnes jusqu'à ce qu'il change ce qui est en eux-mêmes, ...), et le hadith du Messager d'Allah et la paix soient sur lui: «Dieu est au sommet de tous les cent ans de renouveler cette nation est la religion "... l'un des termes de compréhension et de la critique, non pas en fonction de l'évolution de l'origine du Coran et la Sunna, ou ajouter quelque chose de nouveau à la religion, mais en termes de programmes et de nouvelles façons de traiter, qui a évoqué, après l'application de ces concepts et des idées dans différents domaines de la vie dans la politique ou économie ou autre.

Nous Tqasrna La sur cette recherche, et cette tendance au service du Livre d'Allah, nous avons Ojchva non seulement le droit de ce livre, mais dans le droit de l'humanité tout entière sur la dette, et cette recherche seulement un petit modèle, et une tentative dans ce modeste façon de régler le long livre de Dieu , et est seulement une étape dans l'autre côté de programmes obsolètes, et l'appui de cette tendance qui, nous l'espérons, de parvenir à l'extraction de certains Giip

règle du Coran, et c'est ce qui a été appris à partir de Soorat al-Hajj des résultats, un simple processus de potentiel scientifique de cette sourate, qui doit s'appliquer à lui-même la réalité et de la vie directement, sans s'enliser dans des différences mufassireen questions de grammaire et de rhétorique et de l'orientation de la jurisprudence, la légalité et les détails de ... autant que nous nous concentrons sur la déduction de l'esprit scientifique - le processus, et les liens entre les parties et de la sourate englobe les idées, Viaraf sur le thème, l'absorption complète de la signification de sa sourate englobe le rappeler, ne pas rend le chercheur sur le sujet et discuter de ce qui lui a donné le Coran à tous, mais est également disponible directement pour trouver le voulais là-bas, mai et être transmis par la navigation à l'interprétation de ce chapitre du Coran et d'ailleurs, qui traite de certaines régions ou de certaines des idées du sujet.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الآيات

الآية	اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وأحسن تفسيرا﴾	الفرقان	33	ص:06
﴿ وأكواب موضوعة﴾	الغاشية	14	ص:08
﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾	الرحمن	10	ص:08
﴿ إنّ أول بيت وضع للنّاس... ﴾	آل عمران	96	ص:08
﴿إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا﴾	البقرة	180	ص:13
﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم﴾	الأنفال	23	ص:13
﴿ما يود الذين كفروا﴾	البقرة	105	ص:13
﴿وقل رب اغفر وارحم وأنت خير ...﴾	المؤمنون	118	ص:13
﴿لكم فيها خير... ﴾	الأنعام	17	ص:13
﴿ورد الله الذين كفروا... ﴾	الأحزاب	20	ص:14
﴿أو لامستم النساء﴾	النساء	43	ص:17
﴿..فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما﴾	الإسراء	23	ص:20
﴿أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من ﴾	النساء	82	ص:24
﴿كذلك لنثبت به فؤادك، ورتلناه ترتيلا﴾	الفرقان	32	ص:27
﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ ﴾	القيامة	18/17	ص:37
﴿فهو له قرين﴾	الزخرف	36	ص:37
﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾	الإسراء	09	ص:39
﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ﴾	الشورى	51	ص:41
﴿إذ تسوروا المحراب﴾	ص	21	ص:42
﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة﴾	البقرة	211	ص:45
﴿إنّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت﴾	البقرة	240	ص:45

﴿إنّ في ذلك لآية﴾	الشعراء	08	ص:45
﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾	المؤمنون	50	ص:45
﴿ومن آياته خلق السموات والأرض ﴾	الروم	22	ص:45
﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين ﴾	الحج	19	ص:49
﴿ يصهر به ما في بطونهم والجلود﴾	الحج	20	ص:49
﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح﴾	الحج	25	ص:50
﴿وقوم إبراهيم وقوم لوط﴾	الحج	39	ص:50
﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم﴾	الحج	18	ص:51
﴿ واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ﴾	الحج	77	ص:51
﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾	الحج	51	ص:51
﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله ﴾	الحج	25	ص:51
﴿أذن للذين يُقَاتَلُونَ بأنهم ظُلموا وإن الله﴾	الحج	39	ص:51
﴿...ومن يهن الله فماله من مكرم ﴾	الحج	18	ص:51
﴿يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا ﴾	الحج	77	ص:52
﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ﴾	الحج	3	ص:53
﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾	الحج	11	ص:53
﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾	الحج	18	ص:53
﴿أذن للذين يُقَاتَلُونَ بأنهم ظُلموا وإن الله﴾	الحج	39	ص:54
﴿ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به﴾	الحج	60	ص:55
﴿ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب﴾	الحج	60	ص:55
﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من ﴾	الحج	27	ص:55
﴿وعلى كل ضامر ياتين من كل فج عميق﴾	الحج	37	ص:55
﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴾	النحل	101	ص:59

﴿أذن للذين يُقَاتَلُونَ بأنهم ظُلموا وإن الله﴾	الحج	39	ص:60
﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ ﴾	الحج	68	ص:61
﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ﴾	الحج	8	ص:64
﴿ولا كتاب منير﴾	لقمان	20	ص:64
﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين﴾	الحج	17	ص:65
﴿يسجد له من في السموات..﴾	الحج	18	ص:65
﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم ﴾	الحج	22	ص:65
﴿فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا ﴾	السجدة	20	ص:65
﴿للطائفين والعاكفين..﴾	البقرة	125	ص:78
﴿وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة﴾	الحج	38	ص:85
﴿وإن ما تدعون من دونه هو الباطل.. ﴾	الحج	62	ص:87
﴿وإن الله لهو الغني الحميد﴾	الحج	62	ص:88
﴿يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾	البقرة	21	ص:89
﴿اقترب للناس حسابهم﴾	الأنبياء	1	ص196
﴿سأوريكم آياتي فلا تستعجلون﴾	الأنبياء	37	ص:197
﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن﴾	الأنبياء	39	ص:197
﴿يوم نطوي السماء كطي السجل ﴾	الأنبياء	104	ص:197
﴿ولكن عذاب الله شديد﴾	الحج	2	ص:197
﴿يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث﴾	الحج	5	ص:197
﴿يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزل الساعة﴾	الحج	1	ص:197
﴿واتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله﴾	البقرة	189	ص:160
﴿يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة﴾	النازعات	6	ص:69
﴿يوم التناد يوم تولون مدبرين﴾	غافر	3	ص:70

﴿ففزع من في السموات ومن في﴾	الزمر	68	ص:111
﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾	الحج	3	ص: 79
﴿وهو الخَلاَّقُ العَلِيمُ﴾	يس	81	ص:118
﴿عالِمُ الغَيْبِ والشَّهادةِ﴾	الحشر	22	ص:118
﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله..﴾	محمد	19	ص:171
﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في﴾	ق	15	ص:174
﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾	الحج	11	ص: 114/78
﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات﴾	الحج	18	ص:105/80
﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده..﴾	الزمر	74	ص:105/92
﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل ﴾	الحج	25	ص:106/96
﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا ﴾	محمد	38	ص:110
﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا ﴾	المعارج	40	ص:110/109
﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع ﴾	آل عمران	97	ص:192/109
﴿لتنذر أم القرى ومن حولها﴾	الشورى	07	ص:112
﴿إن أول بيت وضع للناس... ﴾	آل عمران	96	ص: 162
﴿وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت...﴾	الحج	26	ص: 159
﴿والبيت المعمور﴾	الطور	04	ص:113
﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون..﴾	الذاريات	56	ص: 181
﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾	الحج	38	ص:197/105
﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ ﴾	الحج	50	ص: 193/170

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الصفحة
"أسفروا بالفجر، فإنَّهُ أعظم للأجر"	006
"خذوا عن بني إسرائيل ولا حرج"	016
"سميت هذه السورة سورة الحج زمن النبي"	048
"إني لم أُومر بهذا"	049
"أتدرون أيّ يوم ذاك؟ قال ذلك يوم يُنادَى آدم"	057
"من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعون في النار وواحد في الجنة"	057
"نزلت بعد سورة النور وقبل سورة المنافقين"	056
"فمن شاء فعلها ومن شاء تركها"	060
"من ضحّى فليأكل من أضحيته"	057
"أخذ التراب بيده فسجد عليه"	061

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الكتاب العربي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، 2004م، بيروت، لبنان.
3. الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: مصطفى ديب البغا، سنة: ١٩٩٣م، ط ٢، بيروت دار ابن كثير، 1414هـ.
4. أثر الدلالة النحوية واللغوية في استنباط الأحكام من آيات القرآن، عبد القادر عبد الرحمن السعدي، دار عمار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1421هـ، 2000م، عمّان، الأردن.
5. الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام، ط5، 1999م.
6. أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، دار الضياء، قسنطينة، (دط، دت).
7. أضواء البيان في تفسير القرآن، محمد الأمين الشنقيطي، طبعة الرئاسة العامة لإدارة البحوث، 1983، الرياض، المملكة العربية السعودية.
8. الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، الدكتور: زيد غزاوي، الطبعة الأولى، سنة: 2004م.
9. الإعجاز العلمي في القرآن، مقالات: عبد الدايم الكحيل، بتاريخ: 2005/05/20م، تاريخ التحديث: 2008/11/14م.
10. الأعلام، خير الدين الزركلي، دار الملايين، ط15، بيروت/ لبنان.
11. أولى ما قيل في آيات التنزيل، رشيد الخطيب الموصلي، ط1، 1974م.
12. إيجاز البيان في علوم القرآن، محمد علي الصابوني، دار الصابوني، ط2، 1986م.
13. بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية، تحقيق: عدنان درويش، دار الكتاب العربي للنشر، الطبعة الأولى، سنة: 2002م.
14. البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، مكتبة المعارف،

بيروت.

15. البرهان في ترتيب سور القرآن، ابن الزبير الغرناطي، تحقيق: محمد شعباني، طبعة وزارة الأوقاف المغربية، سنة: (1410هـ/1990م).

16. البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، (1376 هـ/ 1957م)، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركائه، ج1، ص: 147.

17. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: محمد علي النجار، طبعة المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.

18. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، الطبعة الثانية، 1979م، سورية.

19. البيان في علوم القرآن، محمد الصالح الصديق: المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1999م .

20. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: علي شيري، بيروت: ١٩٩٤هـ، الطبعة الأولى، دار الفكر.

21. تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة4، (1426هـ/2005م)، بيروت لبنان.

22. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1998م.

23. ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير، وأساس البلاغة، أحمد الطاهر الزاوي، دار الفكر، الطبعة الثالثة، (دون تاريخ)، دمشق.

24. التعبير الفني في القرآن، الدكتور بكري الشيخ أمين، دار الملايين، الطبعة الأولى، يوليو/1994م، بيروت لبنان.

25. تفسير البيضاوي، دار الفكر، (دون طبعة، ودون تاريخ)، سنة: 1972م.

26. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار المعرفة، د ط، 1983م/1403هـ، بيروت، لبنان.

27. تفسير القرآن العظيم، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير، ط4، دار الأندلس، 1983م، بيروت، لبنان.

28. تفسير القرآن الكريم، مجموعة من العلماء: دار المعارف، ط1، (دت)، مصر.

29. مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، ط3، بيروت لبنان.

30. تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، دار الفكر، ط3، 1394هـ/1974م.

31. التفسير الموضوعي للقرآن الكريم في كفتي الميزان، عبد الجليل، عبد الرحيم، الطبعة الأولى، 1992م، عمّان.

32. التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، محمد يوسف القاسم، الطبعة الأولى، سنة: 1981م.

33. التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا، أحمد رحماني، منشورات جامعة باتنة.

34. التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثية، الطبعة الثانية، 1976م، 1396هـ.

35. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج المزي تحقيق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، سنة: 1403هـ/1983م، بيروت، سوريا.

36. التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر، 1990م، سورية.

37. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، ط2، 1424هـ/2004م، بيروت، لبنان.

38. جمهرة العرب، أبو بكر بن الحسن بن دريد، تحقيق: منير البلعبكي، دار الملايين، الطبعة الأولى، نوفمبر1987م.

39. حاشية الشهاب، شهاب الدين أحمد بن عمر الخفاجي، تحقيق: الشيخ عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، ط1، 1997م، بيروت، لبنان.

40. الحجة في القراءات السبع، للإمام ابن خالويه، تحقيق: د.عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، ط2، 1397هـ/1977م، بيروت.

41. دراسات في التفسير الموضوعي، أحمد جمال العمري، مطبعة المدني، الطبعة الأولى، 1986م، القاهرة.

42. دراسات في التفسير وأصوله، محي الدين بلتاجي، دار الثقافة، الطبعة: الأولى، ص: 193، سنة: 1987م، بيروت.

43. دراسات في علوم القرآن، أمير عبد العزيز: الطبعة الثانية، دار الشهاب، الجزائر 1988م.

44. درة المتون في قراءة الإمام نافع، ابن بري، شرح: أحمد رحماني، دار الامام مالك،1420هـ، 1999م، طبعة الجزائر.

45. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين السيد محمود الألوسي، تحقيق: محمد أحمد الأمد، عمر عبد السلام، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، الطبعة الأولى، سنة: (1999م/ 1420هـ)، بيروت، لبنان.

46. رَي الظَّمآن في بَيَانِ القُرآن تأليف: فهد بن عبد الله الحبيشي، طبعة: 2005م.

47. تفسير الظلال، سيد قطب، الطبعة10، دار الشروق، 1982م، القاهرة.

48. سير أعلام النبلاء، شمس الدين بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، (د.ط)، 1985م، بيروت، لنان.

49. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن محمد العماد الحنبلي، ط1، (د،ت)، طبعة بيروت.

50. شرح العقيدة الطحاوية، علي بن علي أبي العز الحنفي، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، مكتبة المعارف، ط1، سنة:1982م، ط2، سنة: 1988م، الرياض، المملكة العربية السعودية.

51. طبقات الشافعية، عبد الرحيم الأسنوي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، 1987م، بيروت ، لبنان.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

52. طبقات المفسرين، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، ط1، مطبعة الاستقلال الكبرى.

53. الطراز في شرح ضبط الخراز، تأليف: الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله التّنسي، تحقيق: دكتور أحمد بن أحمد شرشال، دار النشر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة الأولى (1420 هـ).

54. علم المناسبات في السور والآيات، محمد بن عمر بن سالم بازمول، المكتبة المكية، الطبعة الأولى، 2002هـ، مكة المكرمة.

55. غريب القرآن المسمى: "نزهة القلوب"، أبو بكر السجستاني، مصطفى عناني، 1936م.

56. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد القادر شيبة الحمد، الطبعة الأولى، 2001م/1421هـ، المملكة العربية السعودية.

57. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي محمد الشوكاني، تحقيق: محمد سمير خالد رجب، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: 2، 1422هـ/2001م، بيروت، لبنان.

58. القاموس الجديد، مجموعة من المؤلفين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

59. القاموس المحيط، الفيروز أبادي، تحقيق مكتبة التراث، مؤسسة الرسالة، طبعة: 2003م، 1424هـ، بيروت.

60. القاموس المحيط، الفيروز أبادي، مؤسسة الرسالة، 1993م.

61. قواعد التدبر الأمثل، حبنكة الميداني، الطبعة الثالثة، دار القلم، سنة: 2004م.

62. الكامل في التاريخ، بن عبد الواحد الشيباني، ابن الأثير، دار الكتاب العربي، ط5، 1985م، بيروت.

63. كشاف اصطلاحات الفنون، محمد علي الفاروقي التهانوي، تحقيق: لطفي عبد البديع، المؤسسة المصرية، العامة، مكتبة النهضة العربية، الطبعة: 1، (1382هـ/1963م).

64. الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة نجم الدين الغزي، ، تحقيق: جبرائيل

سليمان جبور، دار الأفاق الجديدة، ط2، 1979م، بيروت.

65. لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، الدار التونسية للنشر، الطبعة3، ماي 1984م.

66. لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، تحقيق: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 2003م/1424هـ، بيروت، لبنان.

67. لمسات بيانية، فاضل السامرائي، إصدار دار عمار، للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2007م.

68. لمسات بيانية، فاضل السامرائي، مقالات على الإنترنت، بتاريخ: 2008/6/20م.

69. مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، الطبعة الأولى، 1989م، دمشق.

70. مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: محمد فؤاد سركين، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د،ط د،ت).

71. مجلة كلية الشريعة وأصول الدين، أمها، العدد الثالث: 1404/1403هـ.

72. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة1، دار الكتب العلمية، 1993م، بيروت، لبنان.

73. مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي، دار الفكر العربي، 2000م، مصر.

74. مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، برهان الدين البقاعي، دار المعارف، تحقيق: عبد السميع محمد أحمد حسنين، 2001م، الرياض، المملكة العربية السعودية، {وجدته عبر الإنترنيت}.

75. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، للرافعي، دار القلم، (د.ت).

76. معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، (دون طبعة)، (دون تاريخ).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

77. معجم المصطلحات العربية، د. فايز الداية، دار الفكر المعاصر، الطبعة الاولى، 1410هـ/ 1990م.

78. المعجم الوسيط -- معجم اللغة العربية – القاهرة.

79. معجم تهذيب اللغة، لابي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: د. رياض قاسم، دار المعرفة، الطبعة الأولى، سنة: (1422هـ/ 2001م)، بيروت، لبنان.

80. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت: دار الجيل، (دون طبعة، ودون تاريخ).

81. معمر بن المثنى التيمي البصري النحوي المتوفي سنة: 219هـ بالبصرة، وفيات الأعيان.

82. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سعيد كيلاني، دار المعرفة، (دون تاريخ)، بيروت.

83. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المطبعة اليمنية، 1324هـ.

84. مقال للأستاذ: محمد بن عبدالعزيز الخضيري، كلية المعلمين، قسم الدراسات القرآنية، بتاريخ: 2002/02/05م.

85. مقالات عبد السلام حمدان، مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، المجلد الثاني عشر – العدد الأول-- ذو القعدة 1424هـ -/كانون الثاني 2004م.

86. مقالات في الإعجاز العلمي في القرآن، د. نظمي خليل أبو العطا، بتاريخ: 2007/02/22م، تاريخ التحديث: 2008/11/15م.

87. مقدمة في التفسير الموضوعي، محمد بن عبدالعزيز الخضيري، كلية المعلمين قسم الدراسات القرآنية.

88. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر، ط3، (د.ت).

89. المنجد في اللغة والأعلام، لويس معلوف، المطبعة الكاثوليكية، الطبعة الثالثة والعشرون، دار المشرق، بيروت/لبنان.

90. المنهج الحركي في ظلال القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص: 156، دار الشهاب، الطبعة الأولى1986م، الجزائر.

91. الموافقات في أصول الفقه، أبو إسحاق الشاطبي، دار الفكر العربي، الطبعة الثالثة، 1325هـ، بيروت.

92. موسوعة الإعجاز الرقمي، الإعجاز الرقمي أسس وضوابط، عبد الدائم الكحيل، طبعة: 1427هـ، /2006م.

93. موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، د.سميح الدغيم، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى، 1998م.

94. الناسخ والمنسوخ، أبو جعفر النحاس، تحقيق: سليمان بن ابراهيم، اللاحم، ط1،مؤسسة الرسالة، 1991م.

95. الناسخ والمنسوخ، القاضي محمد ابن العربي المعارفي، تحقيق: عبد الكبير العلوي، الطبعة1، مكتبة الثقافة الدينية، 1992م.

96. النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، 1996م.

97. نظرية الوحدة الموضوعية للقرآن من خلال كتاب الأساس في التفسير، للشيخ سعيد حوى، تحقيق: أحمد بن محمد الشرقاوي.

98. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور،.برهان الدين البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، ط1، 1995م، بيروت، لبنان.

99. نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: د. احسان عباس، بيروت، 1968.

100. هدى الفرقان في علوم القرآن، غازي عناية: دار الشهاب، باتنة، 1988م.

101. الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، محمد محمود حجازي، دار الكتب الحديثية، مطبعة المدني، الطبعة1، سنة: (1390هـ، 1970م) .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

102. الوحدة الموضوعية للسور القرآنية، رفعت فوزي عبد المطلب، ط أ، دار السلام للطبع، 1986م.
103. الشبكة الإسلامية، ترجمة الأعلام: www.islamweb.net.
104. الشبكة الإسلامية، مشاهير اللغة العربية، www.islamweb.net. تاريخ التحديث: 2006/02/28م.
105. مجموعة مقالات على الأنترنيت، د.عبد الحميد غانم، تاريخ: 2005/02/16م، WWW.ISLAMWAY.ORG/

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	أ
الفصل الأول: مقدمات ومفاهيم حول منهج التفسير الموضوعي.	**00**
المبحث الأول: منهج التفسر الموضوعي.	**06**
المطلب الأول: تعريفه.	**06**
الفرع الأول: تعريف التفسير.	**06**
1 – لغة.	**06**
2 – إصطلاحا.	**07**
الفرع الثاني: تعريف الموضوع.	**09**
1 – لغة.	**09**
2 – اصطلاحا.	**09**
الفرع الثالث: تعريف المركب.	**09**
المطلب الثالث: أهمية التفسير الموضوعي.	**10**
المطلب الثاني: ألوان التفسير الموضوعي.	**12**
الفرع الأول: التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني.	**13**
الفرع الثاني: التفسير الموضوعي التجميعي.	**14**
الفرع الثالث: التفسير الموضوعي الكشفي.	**15**
المطلب الرابع: قواعده وضوابطه.	**16**
المبحث الثاني: ماهية الوحدة الموضوعية.	**20**

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول: مفهوم الوحدة الموضرعية.	20
الفرع الأول: تعريف الوحدة لغة.	21
الفرع الثاني: اصطلاحا.	23
المطلب الثاني: حقيقتها، وأهميتها.	24- 26
المطلب الثالث: نشأتها، وأقوال العلماء فيها.	29
الفصـــل الثاني: الدراسة الخارجية لسورة الحج.	36
المبحث الأول: تعريفات عامة.	36
المطلب الأول: تعريف القرآن.	37
الفرع الأول: لغة.	37
الفرع الثاني: اصطلاحا.	38
المطلب الثاني: تعريف السورة.	40
الفرع الأول: لغة.	40
الفرع الثاني: اصطلاحا.	41
المطلب الثالث: تعريف الآية.	42
الفرع الأول: لغة.	42
الفرع الثاني: اصطلاحا.	43
المبحث الثاني: بين يدي السورة.	45
المطلب الأول: تسميتها، ترتيبها، وعدد آياتها.	46
المطلب الثاني: مكيها ومدنيها.	46

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثالث: فضلها وأقوال العلماء فيها.	49
المبحث الثاني: أجواء نزول سورة الحج.	52
المطلب الأول: أسباب نزول بعض آياتها.	52
المطلب الثاني: مكان وزمان النزول.	55
المطلب الثالث: ناسخها ومنسوخها.	58
المطلب الرابع: متشابهات سورة الحج .	62
الفصل الثالث: الدراسة الداخلية للسورة.	67
المبحث الأول: الموضوع الرئيس لسورة الحج.	67
المطلب الأول: آراء العلماء في الموضوع الرئيس لسورة الحج.	68
المطلب الثاني: وجه تسمية السورة وعلاقتها بالموضوع الرئيس.	71
المطلب الثالث: دور المطلع في تحديد الموضوع الرئيس للسورة.	71
المطلب الرابع: دور الآيات المكية والمدنية في الكشف عن الموضوع.	73
المطلب الخامس: دور جو النزول في الكشف عن الموضوع الرئيس للسورة.	73
المطلب السادس: علاقة الموضوع الرئيس بالقرآن الكريم.	76
المبحث الثاني: الدراسة الأسلوبية للسورة.	79
مقدمة: أسلوب السورة.	79
المطلب الأول: الفواصل في سورة الحج.	81
المطلب الثاني: تذييل آيات سورة الحج.	88

المطلب الثالث: الأثر الدلالي لبعض اللمسات البيانية الواردة في سورة الحج.	102
1- تكرار بعض الألفاظ المشتركة في الحروف.	102
2- صيغة التوكيد والتكرار.	103
3- دلالة "يأيها الناس" وعلاقتها بموضوع الحج .	107
4- تكرار صيغة النداء: "يأيها الناس" ووجه الربط بينها.	108
5- الفرق بين (ذلك) و(ذلكم)؟، وحقيقة تكرار هذا اللفظ.	109
6- صيغة "إن الله يفعل ما يريد" و"إن الله يفعل ما يشاء".	113
7- التفاتة لسجدتي سورة الحج.	114
8- صيغة المبالغة "وما ربك بظلاّم للعبيد".	115
9- الفرق بين الحكم والفصل في القرآن الكريم.	117
المطلب الرابع: بعض آيات الإعجاز في سورة الحج.	118
الفرع الأول: الإعجاز في إعادة الخلق.	120
الفرع الثاني: الإعجاز في الذباب.	128
المطلب الخامس: بعض الصور البيانية الواردة في سورة الحج.	133
المطلب السادس: الغريب في سورة الحج.	136
المبحث الثالث: مواضيع سورة الحج.	143
المطلب الأول: المقاصد العامة لسورة الحج، وآراء العلماء في ذلك.	143
المطلب الثاني: تناسب مواضيع سورة الحج فيما بينها.	148
المطلب الثالث: علاقة مفتتح السورة بخاتمتها.	132
المطلب الرابع: تناسب الموضوعات مع الموضوع الأساسي لسورة الحج.	153

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الخامس: تناسب موضوعات سورة الحج بالقرآن الكريم.	155
المطلب السادس: مناسبة سورة الحج بسورة الأنبياء وسورة المؤمنون.	191
الخـــاتمـــــة	195
فهرس الآيات.....	208
فهرس الأحاديث.....	211
فهرس المصادر والمراجع.....	213
فهرس الموضوعات.....	222

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية